

سلسلة
الجوائز
134
الهيئة المصرية العامة للكتاب
Twitter: @alqareah
6.12.2016
ريكاردو بيجليا
رواية
الطريقُ إلى إيدا
ترجمة : عبد السلام باشا

الطريقُ إلى إيدا

رواية

تأليف : ريكاردو بيجليا

ترجمة : عبد السلام باشا



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

Twitter: @alqareah

رئيس مجلس الإدارة	أ. حلمى النمنم
رئيس التحرير	د. سهير المصادفة
مدير التحرير	أحمد صلاح الدين إبراهيم
سكرتير التحرير	نبيلة عبد الله
الإشراف الفني	صبري عبد الواحد
متابعة	غادة ميسرة محمد

بيجليا، ريكادو، ١٩٤١ ـ......

الطريق إلى إيداء: رواية/ تأليف ريكاردو بيجليا؛ ترجمة: عبد السلام باشا. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٢٨٨ص؛ ٢٣ سم.

تدمك ٨ ٠٢٧٨ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأرجنتينية.

أ ـ باشا، عبد السلام (مترجم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٥٢١/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977 -91 -0278 - 8

ديوى ٨٦٣

Twitter: @alqareah

- الكتاب: الطريق إلي إيدا

El CAMINO DE IDA

- تأليف: ريكاردو بيجليا

Ricardo Piglia

- ترجمة: عبد السلام باشا

- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف:

© Ricardo Piglia

C/O Guillermo Schavelzon& Asoc..Agencia Literaria

- الطبعة الأولى ٢٠١٥.

- طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

Twitter: @alqareah

مقدمة

القطيعة مع الواقعية السحرية في أدب أمريكا اللاتينية أصبحت أمرًا واقعًا مع ظهور جيل تالٍ - وليس جديدًا- لجيل جابريل جارثيا ماركيز وماريو بارجاس يوسا. ورغم هذا ستظل المقارنة حاضرة مع الأسماء التي منحت لأدب أمريكا اللاتينية شأنًا وقيمة في العالم أجمع.

ريكاردو بيجليا (الأرجنتين ١٩٤١) أحد الذين جهروا بهذه القطيعة. كان عليه أن يعمل - مثل كتّاب كبار آخرين في أمريكا الجنوبية - خلال سنوات طويلة، لكي يحصل على الاعتراف المؤسسي، وعلى قطاع من القرّاء ليس بالإسبانية فقط وإنما بأكثر من عشرين لغة. وبعد هذا أمكنه أنٍ يصرح قبل ثلاثة أعوام أن الأدب الصادر عن كتاب لاتينيين لم يعد خاضعا لذائقة فنية واحدة. وأن الكتاب الحاليين - الذين ينظر لهم العالم ككتاب جدد- أصبحوا أكثر تواصلاً مع العالم بتغيراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من دون أن يفقدوا الصلة بمجتمعاتهم وثقافاتهم المحلية.

Twitter: @alqareah

تمثل أعمال ريكاردو بيجليا النقدية والسردية تجسيدًا لمفاهيمه حول الأدب المتصل بالعالم. والذي يمكن وصفه بالمعولم، خاصة روايته الأخيرة الطريق إلى إيدا.

في معظم أعماله السردية يتبع بيجليا تقليدًا أرجنتينيًا عريقًا: الرواية البوليسية. رواية البحث والتقصي والغموض. تأثرُ الأدب الأرجنتيني بالآداب المكتوبة باللغة الإنجليزية، وقراءة كثير من الأدباء الأرجنتينيين باللغة الإنجليزية مباشرة، جعل من ترجمات الرواية البوليسية جنسًا أدبيًا مزدهرًا منذ عشرينيات القرن العشرين، فقد كان بورخيس - وغيره من الأدباء - ينشر قصصًا ومقالات وعروضًا للقصص والروايات البوليسية في ذلك العقد، في المجلة التي أسسها باسم (مارتين فييرو). وفي عام ١٩٤٢ نشر بورخيس بالاشتراك مع أدلفو بيوي كاسارس رواية "سبع معضلات أمام دون أسيدرو بارودي" التي نشراها باسم مستعار هو هـ. بوستوس دوميك. وفي عام ١٩٤٥ قام نفس الكاتبان بإنشاء وإدارة سلسلة للرواية البوليسية تحت عنوان (الدائرة السابعة). بالطبع، توجد في ذات الفترة إسهامات كثيرة للعديد من الكتاب والمثقفين في الأرجنتين في الجنس الأدبي نفسه. وريكاردو بيجليا من جانبه كان مخلصًا لهذا التقليد الأدبي في الأرجنتين، في ١٩٦٨ بعد عام واحد من نشره مجموعته القصصية الأولى، قام بإدارة سلسلة أدب بوليسي. واستمر حتى العام ١٩٧٦. فكانت قراءاته خلال تلك السنوات تكاد تنحصر في هذا، بحكم العمل. من مراهق قارئ لوليام فولكنر وفيتز جيرالد وكافكا وتولستوي، إلى كاتب شاب يمارس النقد الأدبي والإشراف على سلسلة أدب بوليسي. تكوين ثقافي بديع ظهر بعد ذلك في أعماله النظرية والنقدية، كما ظهر في رواياته.

Twitter: @alqareah

لهذا، سنجد أن "الطريق إلى إيدا" رواية عصية على التصنيف. بها من الأدب البوليسي غموض جريمة القتل، والبحث المضني عن القاتل. بها لمحات - خادعة - من أدب السيرة الذاتية. البطل الذي ظهر بالاسم نفسه في روايات بيجليا السابقة، إيميليو رينزي، يعاود الظهور في "الطريق إلى إيدا"، ولإضفاء نوع من التماهي المصطنع، غير الحقيقي، بين المؤلف والشخصية الروائية سنجد أن اسم الكاتب بالكامل هو: ريكاردو إيميليو بيجليا رنزي. ماذا يوجد في أدب بيجليا من سيرة ذاتية؟ شيء أكثر من الاسم بالطبع. ربما بعض المعلومات والملامح الحقيقية مثل السفر للولايات المتحدة الأمريكية، التدريس في الجامعة، امتهان الكتابة والنقد، إلخ. لكن كم عدد الكتاب الذين فعلوا هذه الأمور نفسها؟

في "الطريق إلى إيدا" يوجد أيضًا ما يمكن أن نطلق عليه (الأدب التوثيقي)، أو (الأدب الوثائقي). فالقاتل الذي يظهر في الرواية شخصية حقيقية، لها نفس التاريخ الشخصي تقريبًا. وحدثت الوقائع في الفترة الزمنية نفسها. لكن الاستفاضة أكثر من هذا في تفاصيل الشخصية يُفقد النص بريقه وزخمه، لهذا يمكن تناول ملامح أسلوبية أخرى لدى الكاتب في هذه الرواية، لها أهمية في التعريف بالكاتب وفي الوقت نفسه في التفاعل مع النص.

جانب البحث والتقصي في الرواية لا ينحصر في السعي وراء قاتل مجهول ولا حتى في طريقة البحث. هذه الطريقة - التقليدية أو غير التقليدية - التي تتبعها المباحث الفيدرالية في الولايات المتحدة. جانب التميز في "الطريق إلى إيدا" أن البحث أدبي وفكري وثقافي. نحن أمام خريطة للآداب الإنجليزية والأرجنتينية والأمريكية والروسية. قام بيجليا بإتقان وألمعية، بصوت الشخصية

Twitter: @alqareah

الروائية، بالتناول النقدي والفلسفي لوليام هدسون وجوزيف كونراد وأوراثيو كيروجا وتولستوي، من بين آخرين. كما لا يتعلق الأمر فقط بالعلاقة بين كاتب وآخر، أو التناص في موضوعات وأفكار بعينها. لكنه تناص وانعكاس لنصوص هؤلاء الكتّاب مع القرن العشرين وحركاته الثقافية والفوضوية والفكرية والفنية. وأيضًا مع شخصية القاتل، وشخصية الضحية. تضافر، تشابك وتوازي الأفكار والموضوعات، وأيضًا القلق الوجودي، والشكل الفني لدى المؤلفين الذين تتناص الرواية معهم، كلها أمور تتناولها الرواية. يمكن لقارئ أن يقتطع فقرات أو صفحات، يقرأها على انفراد ولن يشعر أنه أمام نص أدبي سردي، وإنما نقد عميق كاشف لنصوص أخرى.

التفسيرات المتعددة (الممكنة) للنصوص الأدبية تنعكس أيضًا على الشخصيات. كل شخصيات الرواية مزدوجة، سواء في هويتها، مهنتها، أفعالها أو أفكارها. حتى القط الذي يظهر في صفحات قليلة، له حياتان مزدوجتان، وإن لم تكونا متوازيتين. فهو قط متمرد تلفظه القطة الأم، تاركة إياه فوق شجرة. يقبل القط بحياة منزلية هادئة، لكنه لا يحتملها كثيرًا. مثله مثل البشر، يهرب، يفر إلى العالم المفتوح. قط باحث عن الخبرة والتجربة. لكن الشخصيات البشرية تعيش ازدواجها وخيالاتها بالتواز. وفي أحيان كثيرة تتحرك الشخصية بين عالمين، سواء سرًّا، في الليل، تحت ستار العتمة، أم في أفكارها ورغباتها المعلنة والمكبوتة. هل يمكن أن نقول إن "الطريق إلى إيدا" رواية في التحليل النفسي أيضًا؟

كما يوجد جانب مهم آخر في الرواية، وهو اللغة. فضلا عن ازدواج اللغة، التي تستخدم الإنجليزية أو اللاتينية للتعبير عن

Twitter: @alqareah

مفاهيم وأفكار أو حتى مسميات، نجد أن الترجمة التي تقوم بها الشخصية الروائية لكلماته وأفكاره، للعبارات التي يسمعها وللنصوص الشعرية والسردية التي يذكرها، كلها تحتمل أكثر من ترجمة وأكثر من قراءة. إيمليو رنزي نفسه يقوم بهذا، يتذكر أبيات شعر لروبرت فروست بالإنجليزية، وبعد صفحات كثيرة يترجمها بالإسبانية. وبعد أن يضع أكثر من ترجمة محتملة لكل بيت شعري، يقوم بإعادة كتابة المقطع كاملاً من وجهة نظره هو، بناء على حالته المزاجية والنفسية في تلك اللحظة.

"الطريق إلى إيدا" عملٌ أدبي رفيع، يتجاوز الأجناس الروائية طارحًا نوعًا جديدًا من الكتابة المبهرة المشوقة. (العولمة الأدبية) بغض النظر عن الدلالات السلبية أو الإيجابية لدى كل قارئ عن مصطلح العولمة، أصبحت أمرًا واقعًا. لا يتعلق الأمر بالكتابة من وجهة نظر فوقية متعالية عن ثقافة غرائبية، أو حتى من منطلق الحنين كما يفعل هدسون. تسلطُ الرواية الضوء على التشابكات غير المرئية بين ثقافات وأفكار ونظم سياسية مختلفة، عبر النصوص الأدبية والفلسفية لكتَّاب عديدين. كأنها تضع العالم الأدبي والفكري في ثقافات وأزمنة مختلفة تحت جهاز لأشعة إكس أو تحت إضاءة فوق بنفسجية، قادرة على كشف غير المرئي، رغم حضوره الملموس.

عبد السلام باشا

أغسطس ٢٠١٤

Twitter: @alqareah

Twitter: @algareah

إلى خيرمان جارثيا(*)

نخب العودة

(*) خيرمان جارثيا . (١٩٤٤ ـ) روائي ومحلل نفسى أرجنتينى. أصدر روايته الأولى بعنوان «نانينا» عام ١٩٦٨، ونفدت منها طبعات حتى تم منع تداولها أثناء الديكتاتورية الأرجنتينية. عاش خيرمان جارثيا فى برشلونة بين ١٩٧٩ ـ ١٩٨٥ حتى عاد إلى بوينس أيرس (المترجم).

Twitter: @alqareah

لا نهاية لهذا الثراء المهجور

إدجار بايلي (*)

(*) إدجار بايلى (١٩١٩ ـ ١٩٩٠) Edgar Bayley. (المترجم).

شاعر وكاتب مسرحي أرجنتيني طليعي «لا نهاية لهذا الثراء المهجور» عنوان إحدى قصائد. (المترجم).

Twitter: @algareah

ـ ١ ـ

الحادث

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل الأول

ـ ١ ـ

في ذلك الوقت كانت لي أكثر من حياة، كنت أنتقل بين مراحل مستقلة: مرحلة الأصدقاء، الحب، الكحوليات، السياسة، الكلاب، الحانات، الجولات الليلية. كنت أكتب سيناريوهات لا يتم تصويرها، وأترجم روايات بوليسية كثيرة، تبدو دائمًا نفس الرواية، كنت أكتب أعمالاً فلسفيةً (أو في التحليل النفسي!) مملة يوقعُ عليها آخرون. كنت تائها، منفصلاً عن الواقع، حتى انتهى بي الأمر – بدون ترتيب، فجأةً، وبشكلٍ غير منتظر – إلى التدريس في الولايات المتحدة، والتورط في واقعة أريد أن أترك شهادتي عليها.

تلقيت دعوةً لقضاء فصل دراسي كأستاذ زائر في جامعة النخبة والصفوة "تايلور يونيفرستي"؛ تَراَجَعَ مرشحُ وفكروا فيّ لأنهم كانوا يعرفونني من قبل. كتبوا لي. تفاهمنا، حددنا موعدا، لكنني بدأت في التردد، في التأجيل: لم أكن أرغب في البقاء مدفونا طوال ستة أشهر في مكان منعزل. ذات يوم، في منتصف ديسمبر، تلقيت

Twitter: @alqareah

رسالة من إيدا براون، مكتوبة بلغة التلغرافات العاجلة القديمة: كل شيء جاهز. أرسل البرنامج الدراسي. ننتظر وصولك. كان الجو شديد الحرارة في تلك الليلة، فأخذت حمّاما، وجلبت زجاجة بيرة من الثلاجة وجلست على كرسي قماشي أمام النافذة: في الخارج كانت المدينة كتلة داكنة من الأضواء البعيدة والأصوات المتنافرة.

كنت قد انفصلت عن زوجتي الثانية، وأعيش بمفردي في شقة في (ألمارجو)، قام أحد الأصدقاء بإعارتي إياها. مر وقت طويل من دون أن ينشر لي أي شيء، لدرجة أنني حاولت الكلام مع فتاة شقراء، متعللا بأي شيء، فاندهشت عندما عرفت من أكون، لأنها كانت تظن أنني ميت. " أوه، لقد قالوا لي إنك توفيت في برشلونة.".

تعللت بأنني أعمل في كتاب حول حياة وليام هنري هودسون(*) في الأرجنتين، لكن العمل لم يكن يتقدم. كنت متعبًا، الكسل كان يمنعني عن الحركة، وقضيت أسبوعين لم أفعل خلالهما أي شيء، حتى اتصلت بي إيدا بالتليفون ذات صباح. أين اختفيت لدرجة أن أحدًا لم يستطع العثور عليك. تبقّى شهر على بدء المحاضرات، كان يجب عليّ أن أسافر فورًا. كلهم كانوا ينتظرونني، كانت تبالغ.

أعدت مفاتيح الشقة إلى صديقي، وضعت أشيائي في مخزن للأثاث ورحلت. أمضيت أسبوعًا في نيويورك، وفي منتصف يناير سافرت بقطار نيو جيرسي ترانزيت إلى البلدة الهادئة الواقعة في

(*) وليام هودسون William henry Hudsson (الأرجنتين - إنجلترا ١٩٢٢) عالم وروائي، وُلد لأبوين أمريكيين من بوسطن، هاجر ليعيش في إنجلترا عام ١٨٧٤. إنتاجه العلمي والأدبي غزير، وموضوعه الأثير هو المناطق الرعوية البكر في الأرجنتين. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الضواحي حيث يوجد مقر الجامعة. بالطبع، لم تكن إيدا في المحطة عندما وصلت. لكنها أرسلت طالبين لانتظاري على رصيف القطار، ومعهما لافتة باسمي المكتوب بخط أحمر بشكلٍ خاطئٍ.

كانت الثلوج قد سقطت، وساحة الانتظار أصبحت صحراء بيضاء، بالسيارات غائصة في الجليد. صعدت إلى العربة وتحركنا بإيقاع شخص يَتَمَشى، تنير طريقنا الأضواء الصفراء العالية في وسط الظهيرة. في النهاية وصلنا إلى البيت في ماركهام روود، غير البعيد عن حرم الجامعة، والذي أجّرته إدارة السكن من أستاذ فلسفة يقضي عام التفرغ في ألمانيا. الطالبان كانا مايك وجون الثالث (كنت سأراهما مجددا في محاضراتي)، كثيري النشاط وشديدي الصمت، قاما بمساعدتي في إنزال الحقائب، أعطياني بعض الإرشادات العملية، رفعا باب الجراج ليطلعاني على سيارة تويوتا تخص البروفيسور هربرت، وكان الإيجار يشملها. أوضحا لي كيف تعمل التدفئة، ودونّا رقم تليفون للاتصال إن تَجَمَدَتْ "في حالة الطوارئ، اتصل بالحماية المدنية".

القرية كانت رائعة، وتبدو كأنها خارج العالم، على مبعدة ستين كيلومترا من نيويورك. بيوت لها حدائق كبيرة مفتوحة، نوافذ زجاجية عريضة، شوارع مشجرة، سكون تام. مثل الوجود في مصحة نفسية فاخرة، وهذا تحديدا ما كنت أحتاجه في ذلك الوقت. لا توجد أسلاك، أو أبراج حراسة، أو أسوار في أي مكان. التحصينات كانت لها طبيعة أخرى. حياة الخطر تبدو بعيدة عن ذلك المكان، على الجانب الآخر من الغابات والبحيرات، في ترينتون، في نيو برونسفيك، في البيوت المحروقة، والأحياء الفقيرة في نيو جيرسي.

Twitter: @alqareah

في الليلة الأولى ظللت مستيقظًا حتى وقتٍ متأخرٍ، متفحصًا الحجرات، متأملاً الأرض الجدباء في الحدائق القريبة من خلال النوافذ. البيت كان مريحا للغاية، لكن الشعور بالغربة انتابني من جديد بسبب العيش في مكان يخص شخصًا آخر. اللوحات على الجدران، زخارف إطار المدفأة، الملابس المحفوظة في أكياس نيلون، كانت تشعرني أنني متلصص أكثر من كوني دخيلاً متطفلاً. في المكتب بالطابق العلوي كانت الجدران مغطاة بكتب الفلسفة، وعندما تصفحت المكتبة فكرت أن الكتب تُصنَع من مادة كثيفة، سمحت لي دائما بالانعزال عن الحاضر والهروب من الواقع.

في دواليب المطبخ وجدت صلصات مكسيكية، بهارات غريبة، أوعية زجاجية بها عش غراب وطماطم مجففة، علب زيت وبرطمانات مربى، كأن البيت مُعَدُ لحصار طويل. طعام معلب وكتب فلسفية، ماذا يمكن أن أطلب أكثر من هذا؟ أعددت حساء طماطم ماركة (كامبل)، فتحت علبة سردين، حمصت خبزًا مجمدًا، وفتحت زجاجة نبيذ أبيض. بعد ذلك أعددت قهوة وجلست على الكنبة لمشاهدة التليفزيون. أفعل هذا دائما عندما أصل إلى مكان جديد. التليفزيون متشابه في كل مكان، العنصر الواقعي الوحيد الذي يقاوم التغيرات. في قناة (أسبن) كان فريق (ليكرز) متقدمًا على (سيلتكس)، في الأخبار كان بيل كلينتون بسمْته الودود مبتسمًا، سيارة تغرق في البحر في إعلان لهوندا، قناة (إتش بي أو) كانت تعرض Possessed لكيرتس بيرنهاردت، أحد أفلامي المفضلة. جوان كراوفورد تظهر ليلاً في أحد أحياء لوس أنجيلوس من دون أن تعرف من هي، لا تتذكر أي شيء عن ماضيها، تسير في الشوارع غريبة الإضاءة كأنها في حوض سمك فارغ.

Twitter: @alqareah

أعتقد أنني نعست، لأن التليفون أيقظني. بالقرب من منتصف الليل. شخص يعرف اسمي ويطلق عليّ بروفيسور، كان يعرض عليّ بإلحاح مفرط، أن يبيعني كوكايين. كل شيء كان غريبًا، لكنه كان حقيقيًا. اندهشت وقطعت المكالمة. يمكن أن يكون أحد الظرفاء، شخصًا سخيفًا أو أحد عملاء إدارة مكافحة المخدات، يقوم بمراقبة الحياة الخاصة لأساتذة جامعات "إيفي ليج". كيف عرف لقب عائلتي؟

في الحقيقة، تركتني هذه المكالمة عصبيًا للغاية. عادة تصيبني نوبات خفيفة من التوتر. ليس أكثر من أي شخص عادي. تخيلت أن شخصًا ما كان يراقبني من الخارج فأطفأت الأنوار. الحديقة والشارع كانا مظلمين، الرياح تهز أوراق الأشجار، على الجانب، على الناحية الأخرى من الحاجز الخشبي، كان بيت جاري مضاءً، وفي الصالة امرأة دقيقة الحجم، ترتدي ملابس رياضية، وتقوم بعمل تمارين (تاي تشي)، بطيئة ومتناغمة، كأنها تطفو في الليل.

ـ ٢ ـ

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة، تعرفت إلى السكرتيرات وبعض الزملاء، لكنني لم أذكر المكالمة الليلية الغريبة لأي شخص. تصورتُ، وقّعت على أوراق، أعطوني بطاقة هوية تسمح لي بدخول المكتبة، وشَغَلتُ مكتبًا مشمسًا بالطابق الثالث للقسم، وكان مطلا على الطرق الحجرية والمباني القوطية للحرم الجامعي. كان الفصل الدراسي في بدايته، والطلاب يصلون بحقائبهم على الظهر أو يجرون حقائب بعجلات. كان هناك صخب مرح وسط البياض الجليدي على الطرق اللامعة تحت شمس يناير.

Twitter: @alqareah

وجدت إيدا في صالة الأساتذة وذهبنا لتناول الطعام في فيري هاوس. كنا قد التقينا هنا قبل ثلاثة أعوام، لكن، بينما كنت أغرق، كانت هي تتقدم. كان مظهرها أنيقا بالجاكيت القطيفة، فمها المطلي بالأحمر القرمزي، جسدها السامق وطَلّتها الساخرة الشريرة. (أهلا بك في المقبرة التي يأتي لها الكُتَاب ليقابلوا الموت).

كانت إيدا نجمة في العالم الأكاديمي، رسالتها حول ديكنز أوقفت الدراسات حول مؤلف " أوليفر تويست" خلال عشرين عاما. كان راتبها سرا من أسرار الدولة، ويقال إنهم يرفعونه كل ستة أشهر، والشرط الوحيد أن تتلقى مائة دولار أكثر من الذَكَر الأعلى راتبا في مجالها (لم تكن تطلق عليهم ذكورًا). كانت تعيش بمفردها، لم تتزوج من قبل، لم تكن ترغب في إنجاب أبناء، كانت دائمًا محاطة بالطلاب، ويمكن رؤية أضواء مكتبها في أي ساعة من الليل وتخيل الضجيج الخفيف لكمبيوترها، حيث كانت تقوم بصياغة نظريات مدوية في السياسة والثقافة. كما كان يمكن تخيل ضحكتها المرحة عند التفكير في الضجة التي ستسببها نظرياتها بين زملائها. يقال إنها تتباهى بالتجديد، تغير نظريتها كل خمسة أعوام، وكل كتاب من كتبها كان مختلفا عن السابق لأنه يعكس موضة الفترة، لكنهم جميعًا كانوا يحسدون ذكاءها وكفاءتها.

فور أن جلسنا لتناول الطعام أطلعتني على الموقف في قسم (الثقافة الحديثة ودراسات الفيلم)، الذي أسهمت في إنشائه. أدرجت دراسات السينما لأن الطلاب، قالت، قد لا يقرءون روايات، لا يذهبون إلى الأوبرا، قد لا يعجبهم الروك أو الفن المفاهيمي، لكنهم دائمًا يشاهدون أفلامًا.

Twitter: @alqareah

كانت صريحة، ومباشرة، تعرف كيف تتصارع وتفكر. "هذان الفعلان متلازمان". كانت منغمسة بمفردها في حرب ضد الخلايا الدريدية التي تتحكم في أقسام الأدب في الشرق الأمريكي، وعلى الأخص، ضد اللجنة المركزية التفكيكية في جامعة (يال). لم تكن تنتقدهم من موقف المدافعين عن "المعيار" مثل هارولد بلوم أو جورج شتايتر ("النقاد الجماهيريين الذين يظهرون في مجلات الطبقة الوسطى المصورة)، لكنها كانت تهاجمهم من اليسار، من خلال التقليد العريق للمؤرخين الماركسيين. (لكن قول مؤرخ ماركسي يعتبر رطانة، مثل قول سينما أمريكية).

كانت تعمل لصالح النخبة وضدها، كانت تكره أبناء مهنتها، لم يكن لها جمهور كبير، يقرأها المتخصصون فقط، لكن كان لها تأثير على الأقلية التي تنتج النظريات العميقة، تصوغها، تنشرها، وتحولها - بعد سنوات - إلى معلومات في وسائل الإعلام الجماهيرية.

قرأت كتبي، وتعرف مشروعاتي. كانت تريد أن أعطي سيمينار حول هودسون. "أنا بحاجة لمنظورك"، قالت بابتسامة متعبة، كأن هذا المنظور لا أهمية له. كانت تعمل على العلاقة بين كونراد وهودسون، قالت لي، ملمحة إن هذا هو مجالها، ولم يكن من المناسب لي أن أدخل فيه. (لم تكن تؤمن بالملكية الفردية، كانوا يقولون عنها، إلا فيما يتعلق بمجال بحثها).

إدوارد جاردنر، الناشر الذي اكتشف كونراد، كان قد طبع كتب هودسون أيضًا. وهكذا تعرف الكاتبان وأصبحا صديقين، كانا أفضل الناثرين الإنجليز في نهايات القرن التاسع عشر، وكلاهما

Twitter: @alqareah

ولد في بلد غريب بعيد. كانت إيدا مهتمة بتراث معارضي الرأسمالية من وجهة نظر عتيقة وما قبل صناعية. الشعبويون الرروس، "جيل البيت"(*) ، الهيبيز، والآن عاد أنصار البيئة إلى أسطورة الحياة الطبيعية، والتعاونيات الزراعية. هدسون، برأي إيدا، أضاف إلى هذه اليوتوبيا الصبيانية اهتمامه بالحيوانات. أعماله مليئة بمدافن لقطط وكلاب في مقابر الأحياء الفاخرة في الضواحي، قالت، بينما يموت من لا يمتلكون مأوى من البرد في الشارع. كانت ترى أن الشيء الوحيد الذي بقيَ حيًا من النضال الأدبي ضد آثار الرأسمالية الصناعية هو قصص تولكين للصبية. لكن، حسنا، في النهاية، ماذا أنوي أن أفعل في دروسي؟ شرحت لها خطة السيمينار، واستمر الحوار في هذا الخط من دون اختلافات كبيرة. كانت جميلة للغاية وذكية للغاية، حتى إنها تبدو مصطنعة إلى حد ما، كأنها تجتهد للتخفيف من سحرها، أو تعتبره نقيصة.

انتهينا من الطعام وخرجنا إلى شارع وايترزبون، باتجاه شارع ناساو. بدأت الشمس في إذابة الجليد ومشينا بحذر على الأرصفة المتجمدة. كان أمامي بعض الأيام من دون عمل لكي أقوم بالتأقلم، إن رغبت في أي شيء، لن يكون عليّ سوى إخبارها. السكرتيرات يمكنهن القيام بالتفاصيل الإدارية، الطلاب كانوا متحمسين ببرنامجي. تَمَنّت أن أكون مرتاحًا في مكتبي بالطابق الثالث. عندما

(*) جيل البيت Beat Generation

جيل من الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية. ظهر في خمسينيات القرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية. أهم ملامحه رفض القيم الأمريكية التقليدية والإقبال على تناول المخدرات، العلاقات الجنسية الحرة، والاهتمام بالديانات الشرقية، رفض الاقتصاد الرأسمالي. يعتبر ألن جينسبرج ووليام بوروز من أهم كتاب هذا الجيل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

افترقنا على الناصية أمام الجامعة، أسندت يدها على ذراعي وقالت مبتسمة:

- **في الخريف أكون دائما ساخنة.**

تجمدتُ في مكاني، حائرا. ونظرتْ لي بتعبير غريب، انتظرتُ للحظة أن أقول شيئًا ثم ابتعدتْ بخطى ثابتة. ربما لم تقل لي ما أظن أنني سمعته ("في الخريف أكون دائما ساخنة") [١]. ربما قالت "عندما أسقط أكون دائمًا كالصقر"ـ Hot-Hawks صقر ـ ساخنة، من الممكن. الخريف يمكن أن يشير إلى الفصل الدراسي الذي يبدأ في الخريف. لكن الفصل الدراسي الربيعي لم يكد يبدأ. بالطبع، ساخنة hot في العامية قد تعني سريع، و fall في لكنة هارلم تعني "فترة في السجن". المعاني تتعدد إن قام الشخص بالتحدث مع امرأة بلغة أجنبية. وكانت تلك إشارة أخرى على الاختلال الذي سوف يتنامى في الأيام التالية. عادة، لديّ هوس باللغة، أعراض جانبية للمهنة، سمعي مسمم بصوتيات تروبيتسكوي[٢]، ودائما أسمع أكثر مما يجب، أحيانا أتوقف عند اضطرابات بناء الجملة، أو عند الأسماء النعتية. وأفقد معنى العبارات. يحدث هذا عندما أكون مسافرًا، عندما أفتقد النوم، عندما أكون سكرانًا، وأيضًا عندما أكون عاشقا. (أو، هل سيكون أكثر مناسبة لغويا أن أقول: يحدث لي هذا عندما أسافر، عندما أكون مرهقًا وعندما تعجبني امرأة؟).

---

(١) In the fall i'm a;ways hot الكلمات المذكورة بالإنجليزية متعمدة لإيضاح حيرة الرواوي الذي ذكرها هكذا في النص وإلى تفسيرها بأكثر من طريقة. (المترجم).

(٢) الأمير نيكولاي تروبيتسكوي (موسكو ١٨٩٠ ـ فيينا ١٩٣٨) : عالم لسانيات ومؤرخ روسى. (المترجم).

Twitter: @alqareah

أمضيت الأسابيع التالية غارقا في تلك الأصداء الغريبة. اللغة الإنجليزية كانت تفقدني هدوئي، لأنني أخطئ أكثر مما كنت أحب، وأنسُبُ هذه الأخطاء للدلالة التهديدية التي تمتلكها الكلمات أحيانا بالنسبة لي. Down the street there are pizza huts to go to and the pavement is nice, bluish slate gray. لم يكن باستطاعتي التفكير بالانجليزية، كنت آخذ في الترجمة على الفور. (في آخر الشارع توجد بيتزا هت يمكن الذهاب إليها والرصيف جميل، لامع تحت الضوء المائل للزرقة).

حياتي الخارجية كانت هادئة ورتيبة. كنت أقوم بمشترواتي في سوبر ماركت ديفيدسونز، كنت أعد طعامي في البيت أو أذهب لآكل في نادي المدرسين، أمام حدائق بروسبيكت هاوس. من آن لآخر، كنت أصعد إلى سيارة البروفيسور هربرت التويوتا، وأذهب لزيارة القرى القريبة. قرى قديمة، بها بقايا لمعارك الاستقلال أو الحرب الأهلية الأمريكية القاسية. أحيانًا كنت أمشي بجوار ضفة قناة ديلوار، التي كانت تربط نيويورك بفيلادلفيا في القرن التاسع عشر، وكانت الطريق الأساسي للتجارة. قام المهاجرون الأيرلنديون بحفرها بسواعدهم، وكان بها نظام شديد التعقيد من القناطر والأهوسة، لكنها أصبحت خارج الخدمة الآن، وتحولت إلى ممر مشجر، به بيوت فاخرة مشيدة على الربى المطلة على المياه الهادئة. كانت القناة متجمدة في ذلك الوقت من العام، والأطفال بستراتهم الصفراء والقبعات الحمراء يطيرون مثل العصافير بأحذية التزلج والزلاجات فوق السطح الشفاف.

أحد شواغلي كانت مراقبة جارتي. هي الملمح الوحيد للسلام في أفجار عزلتي. جسدها ضئيل، ترعى الزهور في حديقتها الخاصة

Twitter: @alqareah

الصغيرة وسط الأرض الميتة. من غرفتي المظلمة في الطابق العلوي، كنت أراها تهبط إلى الحديقة كل صباح، تسير بخطوات حذرة بسبب الجليد، وبعد ذلك ترفع الغطاء الأصفر الذي تحمي به زهور الصوبة التي تزرعها على جانب، في ظل سور حجري. كانت تسعى لأن تتغلب البراعم على برودة الجو ونقص الشمس وهواء الشتاء القاسي. كانت تتحدث إلى النباتات، أظنُ هذا، كانت تصلني غمغمة هادئة بلغة غريبة، مثل موسيقى ناعمة غير معروفة. بدا لي أحيانا أنني أسمعها تُصَفِرُ، ليس من المعتاد أن تُصَفِرُ النساء. لكن ذات فجر سمعتها تدندن بـ"لوحات من المعرض" لموسورجسكي. الواقع به موسيقى في الخلفية، وفي هذه الحالة كانت النغمة الروسية (الخفيفة إلى حد كبير) مناسبة للغاية للجو ولحالتي النفسية.

-٣-

قرأت هيدسون أكثر من مرة طوال حياتي، كما قمت في الماضي بزيارة البيت الذي ولِدَ به، في مزرعة " ٢٥ أومبويس". كان بالقرب من بيتي في أدروجيه، كنت أذهب بالدراجة حتى الكيلومتر ٣٧ وأدخل في الطريق المترب بين الأشجار لأصل إلى البيت في وسط الحقول. نُحِبُ الطبيعة في صغرنا وهدسون - مثل الكثير من الكتّاب الذين ينقلون مشاعر الطفولة - يبدو وكأنه ظل طوال حياته هناك. بعد سنوات كثيرة، في ١٩١٨، عندما كان مريضا خلال ستة أسابيع في بيته القريب من البحر، في إنجلترا، عاش ما يشبه مرحلة طويلة من التجلي، سَمَحَت له باستعادة أيام سعادته الأولى في لا بامبا بوضوح "مُعْجِز". مستندًا على الوسائد، ومستعينًا بقلم رصاص ودفتر، قام بالكتابة من دون توقف، في حالة سعادة محمومة، هناك بعيدًا ومن زمن طويل، سيرته الذاتية الرائعة. هذه

Twitter: @alqareah

العلاقة بين المرض والذكرى بها شيء من الذاكرة غير الإرادية لبروست، لكن، كما أوضح هدسون نفسه، "لم تكن تلك الحالة الذهنية التي يعرفها معظم الأشخاص، عندما يقوم لون أو صوت، أو عطر زهرة في الغالب، لها علاقة بسنواتنا الأولى، ببعث الماضي فجأة وبوضوح شديد، كأنه صورة". الأمر يتعلق بنوع من الكشف، كأنه موجود هناك، ويمكنه رؤية الأيام التي عاشها بوضوح. النثر الذي خرج من هذه الذكريات يعتبر إحدى أهم العلامات الخالدة في آداب اللغة الإنجليزية، وأيضا للمفارقة، أحد أهم الأحداث المضيئة في الأدب الأرجنتيني المفتقد للشخصية.

ربما كَتَبَ هكذا لأن الإنجليزية كانت تختلط بالإسبانية التي تعلمها في طفولته. في أصول كتاباته كثيرًا ما تظهر زلات وأخطاء تكشف عن قِلة إلمام هدسون باللغة التي كان يكتب بها. أحد كاتبي سيرته الذاتية يذكر أنه كان أحيانًا يتوقف باحثًا عن كلمة لا يمكنه الإمساك بها، وعلى الفور يلجأ للإسبانية لكي يجد بديلا لها ثم يواصل. كأن لغة طفولته ظلت حاضرة دائمًا بالقرب من أدبه، وكأنها بئر لا تزال الأصوات المفقودة موجودة داخله. كان يكتب بالانجليزية، لكن بناءه للجملة كان إسبانيا، محتفظًا بالإيقاعات الناعمة لطريقة الكلام القديمة في سهول نهر لا بلاتا.

في ١٨٤٦ تركت عائلة هدسون (٢٥ أومبويس) وانتقلت إلى (تشاسكوموس)، حيث قام أبوه باستئجار مزرعة. الطرق في ذلك الحين لم تكن تقريبًا تصلح للسفر، ولن يكون عسيرًا تخيل صعوبة الرحلة التي استمرت ثلاثة أيام. بدأوا مسيرتهم فجر الاثنين بعربة تجرها الثيران، متبعين الطريق غير الممهد المتجه إلى الجنوب.

Twitter: @alqareah

تحت سقيفة العربة، سافر الأبوان والأبناء بالإضافة لبعض الأشياء القليلة، لأن الملابس والكلاب وأدوات المطبخ والكتب سافرت على متن مركب في النهر. سارت العربة ببطء شديد، بصرير واهتزازات وسط الحقول، بحثًا عن طريق الجيش. مصباح معلق على صليب العربة كان يتأرجح، وأمامه لا يُرَى إلا الليل.

كنت أخرج من المكتبة مع حلول المساء وأعود ماشيًا إلى البيت عبر شارع ناساو. مرات كثيرة كنت أجلس للطعام في بلو بوينت، مطعم أسماك في منتصف الطريق للبيت. كان هناك شحاذ يقف في ساحة انتظار المطعم. يحمل لافتة تقول: "أنا من أوريون"، ويرتدي معطفًا أبيض واقيًا من المطر، مغلقًا حتى العنق. من بعيد، كان يبدو ممرضًا أو عالمًا في معمله. أحيانا كنت أقفُ للتحدث معه. كان قد كتب أنه من أوريون، إذ ربما يظهر أحد منها أيضًا. كان بحاجة للصحبة، لكن ليست أي صحبة. "فقط أشخاص من أوريون، يا سيدي"، قال لي. يعتقدُ أنني فرنسي، ولم أكذبه لكي لا أقطع سير الحوار. بعد فترة كان يصمت، ثم يستلقي بجانب الجدار وينام.

في البيت كنت أقوم بترتيب الملاحظات التي دونتها في المكتبة وأقضي الليل في العمل. كنت أعد شايا، أسمع الراديو، محاولا ألا يصل الصباح أبدًا.

كان هدسون يتذكر بحنين حياته كجندي في الحرس الوطني ومشاركته في التدريبات العسكرية ومناورات ١٨٤٥ بالقرب من نهر كولورادو في باتاجونيا. "في الخدمة العسكرية تعلمت الكثير مع

Twitter: @alqareah

الفرقة حول حياة الجاوتشو(*) الجندي، من دون نساء، بدون راحة، وتعلمت من الهنود النوم متمددا على ظهر الحصان".

العصر الزجاجي، رواية هدسون، تعيد إنتاج هذا. الطبيعة القاحلة المتقشفة في عالم مستقبلي بعيد. "الرغبة الجنسية هي الفكرة الأساسية في روايتي"، يقول هدسون في رسالة: "الفكرة هي عدم وجود راحة أو سلام أبدي، حتى يتم استنفاد هذا الشبق. يمكننا أن نقول إننا نتقدم روحيًا وأخلاقيًا، لكنني لا أرى تغيرا، ولا أي نُقْصَان في عنف الرغبة الجنسية التي تعذبنا. نهتاج اليوم بنفس الحدة كما كنا نفعل قبل عشرة آلاف عام. يمكننا أن ننتظر الوقت الذي لن يعد فيه فقراء، لكننا لن نرى نهاية الدعارة على الإطلاق".

ـ ٤ ـ

أنا أيضًا كنت أعيش في عام شفاف، مائلاً إلى حياة رهبنة، كنت أحاول أن أتبع عادات ثابتة، رغم أنني كنت أجد نفسي مضطربًا بشكل متزايد. كنت أعاني من اضطرابات صغيرة، تصيبني بأعراض غريبة. لم أكن أستطيع النوم، وفي ليالي الأرق كنت أخرج للتمشية. البلدة تبدو مهجورة، وكنت أدخل في الأحياء المظلمة

(*) الجاوتشو El Gaucho، لقب يُطلق على رعاة البقر في العديد من بلدان أمريكا اللاتينية، لكن شهرة التسمية وملامحه جاءت أساسًا من الأرجنتين وأوروجواي. منذ ظهور الجاتشو في القرن الثامن عشر اشتهر كشخصية شبه رجالية، يعيش حياته باستقلال كبير، متمرد، يرفض الخضوع للتقاليد الاجتماعية الموروثة وعلاقات العمل شبه العبودية. اختفى الجاوتشو في بدايات القرن العشرين، لكن خلال القرن التاسع عشر كان لهم دور كبير في حروب الاستقلال في الأرجنتين وأورجواي. وتم تخليد الشخصية أدبيًا في أعمال كثيرة، أهمها على الإطلاق ملحمة (الجاوتشو مارتين فييرو) التي أصدرها خوسيه هرنانديث في جزءين (١٨٧٢، ١٨٧٩). (المترجم).

Twitter: @alqareah

كشبح. كنت أرى البيوت وسط ظلمات الليل، والحدائق المفتوحة، كنت أسمع صفير الرياح بين الأشجار وأحيانًا كنت أسمع أصواتًا غامضة. بل كنت أفكر أن هذه الليالي البيضاء، بينما أسير في الشوارع الخالية كانت في الحقيقة أحلامًا، وبالفعل، كنت أستيقظ في الصباح مجهدًا، متشككًا في قضائي الليلة متقلبا في الفراش من دون الخروج من الغرفة.

كنت أخرج من هذه الحالات شبه مغيب، مثل من قضى وقتًا طويلا ناظرًا إلى ضوء مصباح. كنت أستيقظ بشعور غريب من التجلي، أتذكر بوضوح بعض التفاصيل المتفرقة - سلسلة مكسورة على الرصيف، طائرًا ميتًا - كان هذا عكس فقدان الذاكرة: الصور كانت واضحة، بنصوع صورة فوتوغرافية.

قد يكون تأثير كابوس أو من أثر الأرق، لكنني كنت أحتفظ سرًا بهذه الأعراض. طبيبي في بوينس أيرس فقط يعرف ما يحدث لي، وبالفعل كان قد نصحني بعدم السفر، لكنني اعترضت، كنت متأكدا أن الحياة في مكان معزول سوف تشفيني. لا يوجد أفضل من قرية هادئة مليئة بالأشجار.

لا يوجد شيء أسوأ، قاطعني الدكتور أهرست، وأعطاني وصفة طبية. كان طبيبًا كبيرًا وشخصًا لطيفًا هادئًا دائمًا. برأي أهرست، كنت أعاني من مرض غريب كان يطلق عليه (بَلّوَرة ممتصة). كان ناتجًا عن الإرهاق والإفراط في الكحوليات، كأنني أعاني فجأة من أزمات صغيرة من التذكر القسري. ربما كان مرضي أو ربما كان الشعور بالضياع الذي يصبح أكثر حدة في مكان زرته قبل سنوات، وأتذكره بشكل مشوش.

Twitter: @alqareah

عندما أشعر بالاختناق كنت أهرب إلى نيويورك وأمضي يومين وسط حشود المدينة، من دون أن أهاتف أحدًا، من دون لفت الأنظار، أزور أماكن غير مشهورة ومتفاديًا سنترال بارك والأماكن المفتوحة. عثرت على كافتيريا رينزيس في شارع ماكدوجال، وتصادقت مع المالك، لكنه لم يستطع أن يقول لي لماذا تحمل الكافتيريا هذا الاسم. كنت أقيم في ليو هاوس، نُزُل كاثوليكي تديره راهبات. كان دار ضيافة لعائلات المرضى في مستشفى قريب، لكنه أصبح الآن فندقًا صغيرًا مفتوحًا للجمهور، وكانت الأولوية للقسس وطلاب اللاهوت. كنت أراهم في ساعة الإفطار، فرادى، بملابسهم الرسمية، يضحكون على أي شيء مثل الأطفال، ويقرءون كتبهم الدينية بتركيز مصطنع.

كنت أخرج من هناك، مثل مرات كثيرة في بوينس أيرس، بحثًا عن مغامرة. كنت أتمشى في فيلاج أو تشيلسي، قاطعًا الشوارع الباردة بينما أرى الفتيات يسرن بمعاطفهن الكبيرة الواقية من المطر والأحذية عالية الرقبة. كنت أهْرُم، تجاوزت الخمسين عامًا وبدأت أصبح غير مرئي بالنسبة للنساء. ربما لهذا، قررت ذات مساء أن أكلم إليزابيث وستورين، التي قامت قبل سنوات بنشر قصصي في دارها الصغيرة. في زيارتي الأولى لنيويورك، قبل ثلاثة أعوام، نمنا معًا بعض المرات.

كانت ضئيلة الحجم، نشطة للغاية، جلدها داكن، نصف خلاسية، في الحقيقة قام بتربيتها زوج من المهاجرين الألمان، لأن أمها - التي كانت زنجية (أفرو أمريكية)، كما كانت تقول - قامت بتسليمها لهما لكي يتبنياها. لم تر أمها أبدًا، ولم تجد السبيل لمعرفتها لأن المرأة

Twitter: @alqareah

أخذت كل الاحتياطات القانونية لكي لا يتم الوصول إليها. في النهاية، تعاقدت إليزابيث مع مخبر خاص لكي يعثر عليها، لكن عندما عثر عليها في ساينت لويس لم تتحمس للذهاب للقائها. كانت المرأة قد غيرت اسمها، تعيش في وسط المدينة، تعمل في مجلة أزياء. إليزابيث لم تعرف أمها، لكنها أصبحت صديقة للمخبر، وذات ظهيرة ذهبنا لزيارته. اسمه رالف باركر، من (أي سي أي إجينسي)، ويعيش في شقة بالقرب من ميدان واشنطن. في الأسفل، عندما دخلنا البناية، وجدنا نظام مراقبة على البوابة، كاشف عن المعادن، كاميرات تصوير. كان باركر ينتظرنا عندما خرجنا من المصعد. لا بد أن عمره أربعون عامًا، يحمل نظارات داكنة، وله وجه ثعلب. كان يعيش في شقة سقفها عال، خالية تقريبا، نوافذها مطلة على المدينة. توجد أربعة كمبيوترات موضوعة في دائرة فوق مائدة كبيرة، وتعمل من دون توقف، بها ملفات مفتوحة، ومواقع كثيرة متصلة. كانت المرة الأولى التي أرى فيها دائرة ويب على الإنترنت، بها محرك بحث خاص، ويب كراولير، الذي ظهر قبل فترة قصيرة. كان برنامج التصفح يتصل بالملفات التي لها علاقة بباركر، وتصل المعلومات في الحال. نحن المحققين الخصوصيين، لم نعد نخرج للشارع، قال. ما نريد البحث عنه موجود هنا. إحدى الشاشات كانت متصلة بأحد مخازن الميناء، وبتحريك السهم يمكن الدخول في المبنى ورؤية بعض الرجال جالسين إلى مائدة وسماع ما يقولون. أطفأ باركر الصوت وترك الصورة، التي كانت تنساب كما يحدث في حلم. كان الرجال يضحكون ويتناولون البيرة، وفي إحدى اللقطات بدا لي أنني أرى سلاحًا. كما لم يعد هناك مخبرون خصوصيون بالمعنى التقليدي،

Twitter: @alqareah

قال بعد ذلك. لا يوجد شخص عادي يقوم بالتحقيق في الجرائم. هذا يحدث في السينما، في مسلسلات التليفزيون، لكن ليس في الحياة. العالم الحقيقي قذر، مريض نفسي، متواطئ، غير منطقي. إن كنت بمفردك في الشارع، فلن تدوم سوى يومين، ابتسم باركر. كان يدخن سيجارة الماريجوانا تلو الأخرى ويشرب جينجر آل. (أي سي أي إجينسي) كانت مؤسسة بها أكثر من عضو متشاركين، لكنهم مستقلون. كانوا يتعاملون مع بائعي الأخبار، مع الشرطة، يجندون مدمنين، وعاهرات وشواذ وجنوداً، يخترقون العصابات، ويعملون كفريق. لا يعرف أي منهم الشركاء الآخرين، يتصلون عن طريق الإنترنت. من الأفضل عدم الالتقاء شخصيا بمن يعملون مع المرء. يوجد الكثير من الأشرار في هذه المهنة. خراء خاص.

كان يحقق في موت ثلاثة جنود زنوج من إحدى كتائب المشاه في حرب الخليج، حيث كان معظم الضباط وضباط الصف من تكساس. منظمة من عائلات الجنود الأفرو أمريكيين تعاقدت معه للتحقيق. عنصرية واضحة. قتلوهم ليتسلّوا. الوكالة قامت بالاتصال بالعديد من الجنود الذين ما زالوا في الكويت، وكان هؤلاء من سيكشفون عن الأمر. أنا أقوم بالتعامل مع المعلومات فقط، إن أمكنني إثبات هذا، ستتم محاكمتهم، وسوف أقدم الأدلة للمحامين. أطلعنا على صورة منطقة رملية بها ثلاثة جنود زنوج شباب، يرتدون ملابس القتال في صحراء العراق.

بعد ذلك ذهبنا لتناول الطعام في مطعم صيني. واصل باركر خيط حديثه لكي يكشف لي عن حقيقة مهنته. في ١٨٤٦ في بوسطن، تم افتتاح أول وكالة للمخبرين، وكانت متخصصة في التجسس الصناعي ومراقبة العمال المضربين. "متابعة الشخص في

Twitter: @alqareah

كل لحظة وفي كل مكان لترويعه، والمراقبة السرية للمنظمات النقابية الوليدة كانت ضمن أنشطتها العادية". كان باركر يحمل نوعا من الاحتجاج الرومانسي، كأنه الوحيد الذي اكتشف أن العالم مستنقع لا يصلح للحياة. الضوء في هذه العتمة هو ماريونا، زوجته السابقة التي تركته فجأة، وكان يحاول أن يغزو قلبها من جديد من دون نجاح. كانت الفتاة تعمل في مكتبة، وعندما عرف باركر أنني كاتب (أو أنني كنت كاتبا من قبل) أصر على أن نذهب لنراها، وهاتفها في التليفون، ماشيًا من جانب لآخر في المطعم الصيني، لكي يخبرها أننا في طريقنا إلى هناك، من دون تأخير، وإنها يجب أن تلتقي بي لأنني كنت صديقًا حميمًا لبورخيس. ذهبنا إلى مكتبة (لابيرنث) في شارع ١١٠ في حي جامعة كولومبيا. بالفعل، كان على جدار المدخل جملة لبورخيس حول المتاهات، لكن لا يوجد أي من كتبه على الأرفف. الفتاة كانت جذابة للغاية، حمراء الشعر طويلة وهادئة. كانت تتحدث عن باركر كأنه غير موجود. كانا قد عاشا معا بضعة أشهر، لكنها تركته لأن ضِيقها وصل إلى أقصاه بسبب غيرته وفظاظته. والآن يراقبها باركر بواسطة أحد تابعيه، وعرف أنها تخرج مع رجل متزوج. كان باركر يتحرك باستمرار، وقاطعها محاولا إقناعها بأن تأتي معنا لتناول كأسًا في (ألجونكين)، لكنها رفضت بلباقة شديدة، بأسباب واضحة، كأنها يجب أن تقنع مجنونًا خرج حديثًا من مستشفى الأمراض العقلية. في النهاية ذهبتُ مع إليزابيث وبقي باركر متصفحًا الكتب، ربما منتظرًا أن تنتهي الفتاة من عملها.

كان مخبرًا جيدًا برأي إليزابيث، لكن حياته الشخصية كانت فوضى. كان يعرف الكثير عن الجميع، ما يكفي لكي يشعر بالغيرة

Twitter: @alqareah

والشك بشكل عام. كانت لها حكاية مع المخبر، شَعَرَتُ بهذا، وأنها خضعت لمراقبته أيضًا. المشكلة الأخرى، قالت كأنها قرأت أفكاري، إنه يحمل سلاحه دائمًا، وهو عنيف إلى حد كبير. صاحبتها حتى شقتها، ورغم أنها أصرت، لم أرغب في البقاء وذهبت إلى محطة (بورت أوثوريتي) لكي آخذ الأتوبيس الذي سوف يعبر نيوجيرسي ويتركني في البلدة.

وصلت بعد انتصاف الليل. كل شيء كان مهجورًا مظلمًا، وفقط السيارات المركونة تعطي إحساسًا بأن المكان غير خال من السكان. وجدت خطابات في صندوق البريد، أشياء غير مهمة، فواتير لم يتم دفعها، نشرات دعاية. عندما أوشكت على الدخول للبيت رأيت جارتي آتية من المغسلة حيث ذهبت لغسل الملابس. هي أيضًا لم تستطع النوم في تلك الليلة، قالت لي، كأنها تعتقد أنني خرجت للتمشية لأتغلب على الأرق. كانت تتحدث الإنجليزية بلكنة أوربية خفيفة، وحكت لي أنها روسية، أستاذة متقاعدة للآداب السلافية. زوجها توفي قبل عامين. عندما أريد يمكنني الذهاب إلى بيتها لتناول الشاي والكلام. كانت امرأة عجوزًا، صغيرة الحجم، خفيفة الحركة، مليئة بالطاقة، ملامحها رفيعة، وعينيها زرقاوين. إحدى تلك النساء الجميلات في أي سن، بها شيء من الخبث لا تمحه السنون. كانت تتحدث بحيوية كبيرة وبمرح شديد فلا يبدو أنها عجوز بالفعل، بل كانت تبدو ممثلة تؤدي دور امرأة طاعنة في السن. "النساء في عمري لا يهرمن يا عزيزي، فقط يُصَبنَ بالخبل"، قالت لي يومًا".

Twitter: @alqareah

الفصل الثانى

ـ ١ ـ

بدأت المحاضرات في أوائل فبراير. كنت أُدَرِسُ ثلاث ساعات في الأسبوع، بعد ظهر يوم الإثنين في صالة (بي ٦ إم) بالمكتبة. الحضور في السيمينار كان متوسطا (ستة طلاب مسجلين). بالطبع، كانت مجموعة من النخبة، مؤهلة جيدًا، وتبدو عليهم هذه الحالة من التواطؤ بين طلبة الدكتوراه خلال السنوات التي يقضونها معا بينما يكتبون رسائلهم. إنه نوع غريب للغاية من التدريب، غير موجود في الأرجنتين. ربما يشبه أكثر ناديًا للرياضة البدنية في البرونكس، حيث يتمرن ملاكمون شباب مع أبطال سابقين شبه متقاعدين، يقومون بتوجيه اللكمات لهم، ويعطونهم أوامر على الحلبة، معرضين دائمًا لاحتمال الدخول في صراع. يبدو لي أحد الطقوس التعليمية القليلة الباقية في العالم الغربي. ربما الأديرة في القرون الوسطى كانت بها هذه الحالة من الاهتمام، التميز والضجر. لأن الطلبة هنا كأنهم في معسكر تقريبا، يتحركون في

Twitter: @alqareah

دوائر مغلقة ويتعايشون - مثل الناجين من سفينة غارقة – مع أساتذتهم. يعرفون أنه لا يوجد في العالم الخارجي من يهتم كثيراً بالأدب، وإنهم آخر حفظة تقليد عريق في أزمة.

وهكذا كان المجندون الستة، الجالسون إلى المائدة أمامي، متوترين في حالة ترقب، مثل شباب قتلة منعدمي الخبرة محبوسين في سجن فيدرالي. الجامعات أخذت مكان الجيتوهات كأماكن للعنف النفسي. يوم وصولي نفسه، قام مدرس مساعد شاب، في جامعة قريب بالتحصن في منزله في كونيكتكت وقتلَ رجل شرطة. ظل محاصرا خلال اثنتي عشرة ساعة حتى وصلت الشرطة الفيدرالية. كان يطالب بأن تتم إعادة النظر في بحث ترقيته إلى مدرس لأنهم رفضوه، وكان يعتقد أن هذا ظلم واستهانة بقدراته وأعماله المنشورة. وأكثر ما يثير الضحك أنه في النهاية، وعد بالاستسلام إن أكدوا له أنه يستطيع استعمال أسلحة في السجن. كان على حق، السجن هو المكان الذي يجب استخدام الأسلحة فيه، لكنهم رفضوا وقام الشاب بالانتحار.

الجامعات هادئة وأنيقة، تم تصميمها لترك الخبرات والرغبات خارجها، لكن تحت السطح تجري موجات عالية من الغضب الخفي: العنف الرهيب لدى الرجال المتعلمين. رئيس قسم الثقافة الحديثة ودراسات الفيلم هو دون دا – أماتو، محارب قديم في حرب كوريا، وكلهم يقولون إن اختياره لإدارة القسم الجديد كان لهذا السبب. قريبا سيصبح الرجال أصحاب الخبرة في الحرب والسجن هم الأساتذة المكلفين بإدارة الجامعات.

ربما أرى الأمور بهذه الطريقة بعد ما حدث (الحادث، الفاجعة، المأساة، كما أطلقت عليها الشرطة هنا)، وكأن هذه الأحداث نتاج

Twitter: @alqareah

للتعليم الفائق الرفيع للنخبة الأكاديمية الأمريكية. على أي حال، عندما جلست في اليوم الأول لكي أبدأ السيمينار حول هدسون شعرت أنني حر وسعيد، وهذا يحدث لي كلما بدأت فصلاً دراسيًا، متشجعًا بحالة التواطؤ الشديد التي يتكرر فيها الطقس الأبدي لنقل طرق القراءة والمعارف الثقافية القديمة - والأحكام المسبقة - للأجيال الجديدة.

كنت مهتمًا بالكُتّاب أصحاب الانتماء المزدوج، المرتبطين بلغتين وتقليديين. هدسون يجسد هذا الأمر بشكل كامل. هذا الابن الذي ولد لأبوين أمريكيين في بوينس أيرس عام ١٨٣٨، نشأ في لا بامبا الأرجنتينية المليئة بالزخم في أواسط القرن التاسع عشر، وفي ١٨٧٤ رحل نهائيا إلى إنجلترا، حيث عاش حتى وفاته في ١٩٢٢ شخصًا منقسمًا، لديه القدر الكافي من الغرائبية ليصبح كاتبًا جيدًا. "أشعر أنني ممزق بين وطنين، حنينين، روحين. يجب أن أقدم امتناني لكليهما، وعلى الأخص لهذين العنصرين اللذين يشكلان انتمائي المزدوج: الحنين والضيق. لديه المشاكل التقليدية للشخص الذي ينشأ في ثقافة ويكتب عن أخرى. مثل كيبلينج وأيضا مثل دوريس ليسينج ونايبول. هدسون ولد في أرض ضائعة أصبحت المحور الأساسي لأدبه. إنهم كتاب يقدمون في أعمالهم خبرة العالم غير الأوربي، وفي الغالب قبل رأسمالي، وأمامه تشعر شخوصهم (ورواتهم) بالمواجهة ويمرون بالتجربة. يحتفي هدسون بنثر ممتاز مدحي بهذا العالم الرعوي والعنيف، لأنه كان يراه كبديل لإنجلترا المثخنة بالتوترات التي خلفتها الثورة الصناعية.

بدأنا بمشهد من أيام راحة في باتاجونيا، الذي يمكن أن نطلق عليه "درس في علم البصريات". يدور في أيام طفولة

Twitter: @alqareah

هدسون، ١٨٥١تقريبًا. في تلك اللحظة في الريف، في الصحراء، يوجد (يحكي هدسون) رجل إنجليزي وجاوتشو يتعلم كيف يرى، للمرة الأولى يمكنه الرؤية، ويمكننا أيضا أن نطلق على المشهد "وجهات نظر". الجاوتشو يضحك من الأوربي لأنه يستخدم نظارة. بدا له مثيرا للسخرية رؤية ذلك الرجل الذي يضع هذا الجهاز الصناعي فوق أنفه. يوجد تحد وتوتر لتحديد من يرى جيدًا ما يوجد أمام عينيه، وبعد قليل يدخل الجاوتشو في اللعبة وفي النهاية يقبل تجربة نظارة الإنجليزي.

وما إن ارتدى النظارة (التي كانت بتوافق سريالي، على مقاسه تماما)، ابن المكان يرى العالم كما هو، يكتشف أنه نظرته للطبيعة حتى هذه اللحظة كانت مشوشة، وأنه لم يكن يرى سوى بقع غير واضحة وأشكال غير محددة في السهل الرمادي. يضع النظارة فيتغير كل شيء، ويرى الألوان والتفاصيل الواضحة للطبيعة ويكتشف لون الشعر الحقيقي لحصانه نحاسي اللون، ويصاب بحالة من التجلي النظري.

"أرى تلك العربة"، يقول الجاوتشو، لا يستطيع التصديق أنها بهذا اللون الناري، ثم يذهب ويلمسها لأنه يعتقد أنها حديثة الطلاء. سير الجاوتشو حتى العربة، وقيامه بلمس ما يراه، يعتبر كشفًا ولقاءً مع الواقع. أصبح العالم مرئيًا وحقيقيًا. "خضرة الأوراق، صفرة العشب". يدرك الجاوتشو أن الطبيعة لم تكن طبيعية، أو أنه يمكنه رؤية الطبيعة الحقيقية فقط بواسطة جهاز صناعي.

إنه مشهد لتغيير القناعات إذن، مشهد تعليمي، يمكننا أن نقول هذا، لكنه أيضًا، وبالطبع، مشهد استعماري: الساكن الأصلي أصبح

Twitter: @alqareah

متحضرا. هدسون من سلالة كونراد والفصل بعنوان "مشهد في الأراضي البربرية". منذ تلك اللحظة يبدأ الجاوتشو في استخدام النظارة، ومن المحتمل أن يكون أول راعي بقر بنظارة يجوب محافظة بوينوس أيرس بحصانه.

من كان يستخدم النظارات في الأرجنتين في أواسط القرن التاسع عشر؟ عرضت بعض الصور والرسوم. مع اختراع المطبعة، تزايد الطلب على النظارات، وفي ١٨٢٩، تقريبًا كانت قد انتشرت بالحد الكافي لمنح امتياز تصدير النظارات إلى الأرجنتين لمؤسسة إنجليزية من صانعي النظارات. ومن جانب آخر، يجب علينا تطبيق مصطلح (عدسات ثقافية) لعالم الأنثروبولوجي فرانز بواس، الذي أشار إلى انعدام تكافؤ الفرص الذي سوف يواجهه أي كاتب يعمل على دراسة ثقافة أخرى.

هدسون يضع مسافة ولا يتحدث عن نفسه، لكي يأخذ الموقع المتميز للشاهد الذي عاش هناك. هذه الطريقة في التناول بها ملامح مألوفة مع كتَّاب آخرين منبهرين بالعوالم البعيدة. وهو ما قام به كونراد باقتدار منذ روايته القصيرة الشباب، التي بدأ بها السلسلة المروية بصوت مارلو. طلبت منهم قراءة هذه الرواية، وأيضا قصة كيبلينج "مدام باتهورست"، بجانب هذه العاطفة المزدوجة، تظهر السينما لأول مرة في الأدب. أضفت لهم "خوان دارين"، قصة أوراثيو كيروجا، حيث يقوم نمر تحول إلى رجل بالنظر إلى العالم عن بعد، ببصيرة لا تصدق، ويدفع ثمن رؤيته الكاشفة.

وزعت البيبليوجرافيا، نظمت العروض الشفهية وخلال الأسابيع الأولى مر كل شيء بسلاسة. كل منهم كان يقرأ كتب هدسون بشكل

Twitter: @alqareah

مختلف، كأنها نصوص كتبها مؤلفون مختلفون. أكثر من التوفيق بين هذه الرؤى، كنت أحاول تعميق الاختلافات.

ـ ٢ ـ

كنت أتأقلم مع مرور الأيام، الروتين الأكاديمي كان يساعدني على تنظيم الفوضى في حياتي. رؤاي الليلية لم تتحسن، لكن على الأقل كنت أكثر انشغالاً. كنت قد بدأت في تدوين لقاءاتي مع أوريون في دفاتري. وكرست نفسي لملاحظته ودراسة عاداته والأماكن التي يلجأ لها على مدار اليوم. عادة كان يظل ثابتًا خلال وقت طويل، في الشمس دائمًا، كأنه يحاول اختزان الطاقة. كان يتحرك متبعا الضوء، ويقوم بالجلوس في المناطق المشمسة بحثا عن الدفء والنور. مثل حجر يا سيدي، قال لي يومًا، يجب علينا أن نحاول أن نكون مثل الأحجار، أقوياء وصلبين. نشاطه الأساسي الآخر كان المشي، كان يسير في القرية كأنه زائر، بخطى معتدلة هادئة، ويطلق على هذا النوع من المشي (المسيرة الذهنية). كان يمكنه التفكير فقط عندما يكون متجهًا إلى مكان ما. مع هبوط المساء كان يقترب من (ناتشورال)، السوبر ماركت العضوي الذي كان في الجزء السفلي من القرية. وهناك، بين مخلفات نهاية اليوم، كان يجد كل شيء: زبادي، فواكه، خضروات، خبز، حبوب، بسكويت. كان يطلق على هذا إنقاذ الطعام، ورغم أن هذه الممارسة ممنوعة، كانوا يتركونه يقوم بها. كان أوريون يحتج ويغضب لأن أي شخص كان باستطاعته إلقاء الطعام، لكن لم يكن من المسموح جمعه واستخدامه.

أحيانًا كان يذهب لتناول حساء ساخن في المطعم اليوناني أمام الجامعة، أو يطلب قهوة باللبن مع الكعك في كافتيريا الطلاب.

Twitter: @alqareah

دائمًا يدفع ما استهلك بعملة خمسة وعشرين سنتًا، وكانوا يقبلونها بغض النظر عن قيمة ما تناول. كان يدفع السعر الذي كانت تكلفه طلباته في الستينيات، عندما وصل، كما يقولون، كطالب للدراسات العليا، وشيئًا فشيئًا أخذ يغرق في الخمول والبؤس. لم يكن يطلب صدقة أبدًا، كان يعثر على عملات ملقاة في الشارع، وكان هذا أحد أعماله طوال اليوم. كان يمشي بالقرب من طرف الرصيف، ويفحص كل المربع السكني ودائمًا ما يعثر على عملات ملقاة. عندما يتوقف الجليد والشمس تذيب الثلج، يكون وقت عثوره على عملات أكثر. يتوقف أمام البالوعات وتكفيه قطعة من القماش أو شبكة من السلك لكي يلتقط ما كان يكفيه في الماضي لكي يعيش عدة أيام. الكل يعرفه هنا، ويتركونه يعيش ولا يضايقه أحد. "إنهم مهذبون إن كان المرء مهذبًا، يفزعون إن كان مفزوعًا، يبتسمون إن ابتسم لهم": هذا أحد آرائه حول طبيعة الحياة الاجتماعية.

سرعان ما أدركت أن السيمينار به مجموعتان محددتان بشكل واضح: إحداهما تضم فتاتين يو - يهو - لين وكارول مريفي، مجتهدتين وخجولتين، وشاب هو بيلي سوليفان، الذي كان يبدو غاضبًا دائمًا. إلى حد ما كانوا تائهين لأنهم كانوا طلبة في العام الأول، بالكاد بدأوا سيمينارات الدراسات العليا في الجامعة. المجموعة الأخرى كانت ثلاثيًا مكونًا من جون راسيل الثالث، مايك تريلينج وراشيل أوليسون، فتاة من أصل سويدي، رياضية ذكية. كانوا يظهرون معًا دائمًا، كما كانوا طلبة متقدمين تمت الموافقة على مشروعات رسائلهم. أكثرهم تميزا هو جون الثالث، الخليفة الشاب لإيدا، له هيئة طلاب أوكسفورد (التي كان قادمًا منها بالفعل)، كان

Twitter: @alqareah

يقوم برسالة حول رواية (عصابة القرد) لإدوارد أيبي(*)، برسوم روبين كرمب، حول عصابة من الفوضويين الخارجين عن القانون، نصف بانك، يدافعون عن الطبيعة بقتل مخربي الغابات، بتدمير آلات التجريف والروافع الآلية والمناشير الكهربائية. كان يحضر الكورس حول هدسون لأنه كان يرى في كتبه التي تحتفي بلا بامبا الأرجنتينية، مقدمة تاريخية سابقة للحركات الحديثة المدافعة عن البيئة. كلهم يقولون إن جون الثالث هو تلميذ إيدا المفضل، وفي نفس الوقت - يتوقعون بتشف - أنه منافسها المستقبلي. توجد أخبار حول نقاشات وصراعات لأن إيدا اعترضت على مشروع أطروحته"من الغباء والتخلف في هذا الوقت عمل رسالة حول كتاب واحد"، لكن جون الثالث ظل على موقفه ودافع بكبرياء عن مشروعه لدراسة سرد عنيف دموي، يعود، كما يقول، إلى تقاليد أغاني الكونتري ولصوص الريف. أما مايك، فكان الأمريكي التقليدي من الطبقة الوسطى البسيطة في فلادليفيا، شاب بأنف أفطس، الشعر مقصوص كالفرشة، أكثر جدية وإظهارًا للاحترام عن الآخرين، وشديد التهذيب لدرجة أنني فكرت أن أخلاقه المفرطة كانت أمرًا عاديًا لدي الذين دخلوا السجن. كان مايك قد عمل سائقًا للشاحنات طويلة المسافات "نعم، أنا من الذين قرؤوا على الطريق في المدرسة الثانوية"، حتى قرر في النهاية إتمام الدراسات العليا. تم قبوله لأنه نشر قصة في مجلة (ستوريز)، ولأنه أرسل عملاً جيدًا للغاية حول تقليد السيرة الذاتية في الرواية الأمريكية. هو الآن في العام الثالث في الجامعة، ويكتب رسالة حول ثقافة العمال

(*) إدوارد باول أيبي (١٩٢٧ ـ ١٩٨٩) Edward Paul Abbey. (المترجم).

كاتب أمريكي بدأ حياته العملية حارسًا للغابات. له العديد من الكتب حول الطبيعة والحفاظ عليها. روايته عصابة القرد ١٩٧٥ مستوحاة من أحداث حقيقية وأصبحت أسطورة للمدافعين عن البيئة.

Twitter: @alqareah

في (جيل البيت). كان يقوم بدراسته الأكاديمية، لكنه لم يكن يؤمن بالجامعة إلا باعتبارها مكانًا لكسب العيش بطريقة مريحة. كان معجبًا بتوماس وولف، وجاك كيرواك وكين كيسي، لأنهم لم يكونوا من مثقفي الشرق المتزمتين.

راشيل تنحدر من أكاديميين ودبلوماسيين - أمها من نيويورك وتقوم بتدريس الأدب الفرنسي في فاسّار، وأبوها كان ملحقًا ثقافيًا بالسفارة السويدية في واشنطن - وكانت شديدة النشاط وجذابة للغاية. كانت تعمل على الرواية التعليمية النسوية، وكانت المُدَرِسة المساعدة في كورسات إيدا، وكانت تعشق جون الثالث، الذي كان بدوره يعشق مايك، وهذا بالطبع كان يحب راشيل. هذه الكوميديا من التشابكات المثيرة غير المرئية كانت تقوم بإلهائي عن همومي، وكنت ألاحظهم بالاهتمام العميق الذي كان هدسون يستعمله في دراسة طيور الساحل الأرجنتيني.

جون الثالث، مايك وراشيل اعتادوا على المجيء للمكتب في آخر الظهيرة للحديث حول مشروعاتهم ورسائلهم. كان الثلاثة ينتظرون معًا في الممر، وتبدو عليهم هذه الزمالة المرحة التي يعيشها الشباب عندما يدرسون ويقضون الوقت معًا (يجب أن أقول إنني تخيّلت لفترة أنهم أيضًا يذهبون معا للفراش). كنت أتحدث لفترة مع كل واحد منهم في مكتبي، وبعد ذلك أذهب مع الثلاثة لتناول القهوة في مقهى تشيز نانا، المقهى الفرنسي في ميدان بالمير. أتذكر أنه في أحد المساءات أصر جون الثالث على أن نذهب لزيارة البيت الذي عاش فيه هيرمان بروش، القريب في شارع كوليج. رحلة سياحية مخصصة للأدباء الذين يصلون إلى الجامعة وتضمنتها صورتين أخذناهما في حديقة البيت. قام بكتابة روايته موت فرجيل في الطابق العلوي من البيت، وكان بروش قد مات في مستشفى

Twitter: @alqareah

البلدة. الرواية طبعت بالإنجليزية في ١٩٤٦. وأدهشني تمامًا أن الطبعة الثانية للكتاب كانت الترجمة إلى الإسبانية والتي طبعت في بوينس أيرس عام ١٩٤٧، الكتاب الصادر عن دار نشر (بيوسير) الذي أمتلكه في بيتي وقرَأته وحاولت أن أنتحله - من دون نجاح - مرتين. (موت ألبيردي كان أحد مشاريعي المحبطة). كانوا قد دفعوا لبروش ثلاثة آلاف دولار مقدما لطباعة الرواية في الأرجنتين. يجب عليّ أن أحسب كم تساوي اليوم الثلاثة آلاف دولار في عام ١٩٤٧.

عندما تركت الطلاب عدت إلى البيت وعلى ناصية شارعي ناساو وهاريسون رأيت رجلاً، مرتديًا جينزًا وجاكيتًا كاروهات، كان يقوم بعمل دعاية سياسية منتهزًا الوقوف الطويل في الإشارة. كان يحمل لافتة تأييد للمرشح الجمهوري في الانتخابات التشريعية في مايو. وأضاف لها علمًا أمريكيًا صغيرًا، دلالة على انتمائه لليمين الوطني. لم أر على الإطلاق دعاية سياسية يقوم بها رجل واحد. هنا كل شيء يصبح فردانيًا، فكرت، لا توجد صراعات اجتماعية أو نقابية، وإن تم طرد موظف من مكتب البريد الذي عمل فيه طوال عشرين عاما، لا توجد إمكانية للتضامن معه بإضراب أو مظاهرة. لهذا، من تتم معاملتهم بشكل غير عادل يصعدون إلى سطح بناية عملهم السابق ومعهم سلاح آلي وقنبلتان ويقتلون كل المواطنين غير المنتبهين الذين يمرون من المكان. الولايات المتحدة بحاجة لشيء من البيرونية(*)، شغلت نفسي مفكرًا، لكي ينخفض معدل القتل الجماعي الذي يقوم به أشخاص متمردون على ظلم المجتمع.

(*) نسبة إلى خوان دومينجو بيرون (١٨٩٥ ـ ١٩٧٤)، رئيس الأرجنتين بين (١٩٤٦ ـ ١٩٥٥) وبين (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤). في الفترة الأولى وقع انقلاب عسكري عليه بدعم أمريكي ومن رجال الأعمال الأرجنتينيين بسبب سياسته الاجتماعية التي انحازت للطبقات العمالية الأكثر فقرًا. (المترجم).

Twitter: @alqareah

-٣-

القدرة على ملاحظة الحيوانات لدى هدسون كانت فنًا في حد ذاته. يمكن إنشاء حديقة حيوان أدبية من حيوانات لا بامبا التي تظهر في أعماله. كأي قاص جيد، كان صبورًا وكان يعرف كيف ينتظر، وكان قادرًا على وصف الحركات والتغيرات السريعة في الإيقاع لدى شتى أنواع الكائنات، بما فيها البشر. "أحد الحيوانات المثيرة للاهتمام هو القارض الذي يطلق عليه توكو توكو(*) بسبب صوته، وأيضًا (المختفي) لكونه يعيش تحت الأرض، وهو مثل الخُلد (الفأر الأعمى) يمكنه السباحة تحت الماء. صوته جهير، قوي، سلسلة من ضربات مطرقة تدوي في أحشاء الأرض، في البداية بضربات قوية محسوبة، وبعد ذلك بضربات أخرى أكثر خفة وسرعة، وهكذا لا يمكن رؤيته، لكن يمكن سماعه.

نظرة هدسون لم تكن ثابتة أبدًا، له علاقة خاصة بالمخلوقات الحية، لا يسعى لقنصهم (مثل ميلفيل أو هيمنجواي) ولا يتطلع لطبيعة من دون حيوانات (مثل كونراد)، لكنه كان يتصرف مثل متلصص محترف، لا يقتل ولا يصيد، فقط يراقب. لكن أحيانًا، كان هدسون يصف الطريقة التي تنظر بها الحيوانات له. "يوجد وشق جميل، ظهره أسود ورأسه رمادي، ابن عرس من فصيلة باربارا، يجلس منتصبًا، ويراقبني بعينين متعاليتين، مبتسمًا، مثل كاهن صغير بردائه الأسود وغطاء رأسه الرمادي؛ لكن التعبير على وجهه الحاد شرير ومليء بالاحتقار، أكثر من كل ما يوجد في الطبيعة، وربما يكون أكثر دقة مقارنته بشيطان قبل مقارنته بالكائن البشري".

(*) أحد القوارض التى تعيش في الأرجنتين وتشيلي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

لم نعد نعرف كيف نصف الحيوانات، باستثناء المستأنس منها. ذلك اليوم، وحسب الأخبار في التليفزيون، شُوهِدَ دب في الغابة، بالقرب أرض واطئة، ليست بعيدة عن هنا. بدا كبقعة بين الأشجار، مثل ضباب أحمر. شق طريقه وظهر في الأرض الخلاء، بجانب طريق مونتاين. منتصبًا على ساقين، متوترا بسبب ضجيج السيارات، ببريق قاتل في عينيه، كان يدور حول نفسه، وفي النهاية ابتعد متجها إلى الدغل. جعلني أتذكر دب سيرك متجولاً أُقِيمَ في أرض فراغ خلف بيتي، في أدروجيه، عندما كنت صغيرًا. كنت أراقبه خلال ساعات من عند السور المشجر. مربوطا إلى سلسلة، كان يتحرك في دوائر أيضًا، وأحيانًا كنت أسمعه يعوي في الليل. السيرك كان ينهي عروضه بمشهد مسرحي. كانت عروضًا مقتبسة من أعمال تصف الحياة اليومية ومن المسرحيات الإذاعية الشهيرة. طلب الممثلون من أمي استعارة بعض قطع الأثاث لصنع الديكور. عندما حضرت العرض، كانت المقاعد الخشبية من حديقة البيت، التي تظهر على المسرح تمنعني من تصديق ما أرى. الدب الذي يتسكع بالقرب من الجامعة كان له أثر عكسي: أعتقدُ أن كل شيء ممكن.

الليلة كانت ثلجية والزجاج مضبب. عازف البيانو الذي يعيش أمامي، على الجانب الآخر من الشارع، كان يعزف السوناتا الأخيرة لشوبرت. يتقدم قليلاً، يتوقف، ويعود للبدء من جديد. كان يشعرني بوجود نافذة جرارة تتحشر ويصعب فتحها. الآن أراه تحت الضوء الأصفر لمصباح الشارع، متوقفًا أمام سيارته. غطاء المحرك مفتوح، في حالة سكون. من آن لآخر كان ينحني ويسمع صوت المحرك الذي يعمل. يعود للوقوف ويظل ثابتًا، في حالة انتظار غير مفهومة.

Twitter: @alqareah

ماذا يمكن أن يفعل أوريون في هذه الساعة؟ ربما عاد إلى مقره، كما يطلق عليه أحيانًا. نسي كل شيء ويعيش اليوم بيومه، الحاضر فقط. يعاني من خلل غير محدد يؤثر على إدراكه للزمن، منغمسًا في حركة دائمة تساعده على التفكير لكي يُبْطِلَ الاضطراب. التفكير ليس كالتذكر، يمكن التفكير رغم فقدان الذاكرة. مع هذا، لم ينس اللغة، وما يحتاج معرفته يجده في المكتبة، كما يقول. المعرفة لم تعد تنتمي لحياته.

أعلنت قناة (ويزر) عن اقتراب عاصفة، ينتظر وصولها في الفجر. صعدت إلى السيارة وقدت عبر الطريق رقم واحد حتى (المركز التجاري). تحت الكوبري، قافلة لا نهائية من السيارات القادمة من نيويورك، تعطى الانطباع بوجود غزو من جيش معاد. سيارات وسيارات، واحدة خلف الأخرى، بنفس السرعة وعلى نفس المسافة، بالأضواء مشتعلة، تسافر في اتجاه واحد، كأنها تسعى وراء هدف مشترك، وهكذا لا تتوقف عن العبور خلال ساعات. في النهاية، بعد عبور جنكشين، تركت الطريق رقم واحد، اتجهت للجنوب وعبرت الجسر ودرت إلى الساحة الصغيرة في الوسط. درت مرتين حتى عثرت على محل (هوم ديبوت). محل حدائد ضخم به أدوات وآلات وماكينات من كل نوع وحجم، تملأ المكان مثل ورشة لا نهاية لها، أو مقبرة للقطع الجديدة. لم يكن هناك زبائن أو موظفون، كان خاليًا. سرت عبر الممرات المرقمة بين معدات كبيرة حمراء اللون ومثاقب آلية. انتابني شعور بالوجود في متحف، نسخة من المخزن الذي تُحفظ به المعدات والأشياء التي لا تُستخدم والتي تتراكم خلف البيوت القديمة، لكن كل شيء هنا كان لامعًا براقًا.

Twitter: @alqareah

نقاط دفع المشتريات كانت مغلقة ومغطاة. بجانب الممر، فتاة واحدة كانت تعمل على الطاولة الوحيدة المفتوحة. اشتريت مجرفة للجليد، قفازين من القماش السميك و(كماشة) لفتح وإغلاق النوافذ. وعاصفة جليدية كانت على وشك الوصول، ربما الأخيرة في الشتاء.

- ٤ -

في اليوم التالي قالت لي سكرتيرة رئيس القسم إن دون دا - أماتو يرغب في رؤيتي، وإنه يدعوني لتناول شراب في بيته. كان يعيش في بيت مطل على طريق بروسبيكت، وذهبت لزيارته في نهاية الظهيرة. دون كان مزيجًا أمريكيًا أصيلاً بين العَالِم ورجل الحركة. في حرب كوريا، عندما كان عمره ثمانية عشر عامًا، بموقع قريب من الحدود، على خط العرض ٣٨، انفجر فيه لغم لدى الخروج من حمام المعسكر، والآن لديه ساق خشبية. فتح لي الباب ودار حول نفسه كأن ساقه اليسرى صاري سفينة. كان طويلاً وقوي البنيان، وشعره الأبيض المنسدل على كتفيه يبدو مثل صواري وحبال مركب شراعي.

كتابه حول ميلفيل أصبح مرجعية في العالم الأكاديمي خلال الستينيات، لكن نجمه خبا بعد ذلك. في الطابق العلوي من بيته توجد غرفة مخصصة لميلفيل، حيث كان يجمع مقتنيات شخصية للكاتب - على سبيل المثال مكتب متنقل، وهي قطعة شديدة الغرابة في القرن التاسع عشر - وأيضًا مكتبة كبيرة متخصصة في مؤلف "بينيتو سيرينو". كانت تُحكى عن دون حكايات شديدة الغرابة، وكنت أراه دائمًا شخصًا لطيفًا. كان رجلا واضحًا مباشرًا، يقال إنه لم

Twitter: @alqareah

يعد يقوم بإعداد المحاضرات؛ في كورساته (سيميناره الأسطوري حول موبي ديك). ببساطة كان يطلب من الطلبة أن يكتبوا أسئلتهم في بطاقة، وكان يقرأها في المحاضرات ويرتجل الإجابات. كان بمفرده في تلك الليلة - وكل ليالي أيام العمل - لأن زوجته وأبناءه لم يعودوا يحتملون الحياة في البلدة، ويقضون فترات طويلة في نيويورك. دا - أماتوا كان يعيش معهم في عطلة نهاية الأسبوع، وهذا رفع من شهرته كزير نساء.

مكتبه كان مُغَطًى بمقتنيات من عالم الحيتان جمعها كجزء من متحفه لميلفيل. أطلعني على نسخة من حربة كويكيج ومكتب أصلي من خشب الأرز، كتب عليه ميلفيل - واقفًا على قدميه دائمًا - تقاريره المملة عندما كان يعمل في جمارك نيويورك. واشترى أيضا نسخة من أعمال شكسبير تعود لـ ١٧٨٩، قام ميلفيل بالعمل عليها بينما كان يكتب روايته. كان واضحا أن اللقاء مع أعمال الباردو(*) أوحى له بشخصية القبطان آهاب، وعثر على النبرة الراقية المأساوية السائدة في الرواية بعد بدايتها الأكثر من تقليدية. تبدأ ككتاب حول صيد الحيتان وتنتهي كعمل من قامة ماكبث.

كانت المكتبة الخاصة الأكبر في الولايات المتحدة حول أعمال ميلفيل. تلقي عروضًا لكي يبيعها، لكنه دائمًا كان يرفض بابتسامة. إن بعت هذه الكتب سأشعر بالملل، كان يقول. في تلك الليلة كان لطيفًا معي للغاية ، مع الأخذ في الاعتبار أنني أديب مجهول من أمريكا الجنوبية، وهو كان أكاديميًا من الجيل الثالث، زميلاً لليونيل تريلينج وهنري ليفين.

(*) لقب لشكسبير. (المترجم).

Twitter: @alqareah

جلسنا على المقاعد الجلدية في المكتب ومعنا أكواب براندي وتحدثنا حول علاقة هدسون بميلفيل؛ في أيام راحة في باتاجونيا، يوجد فصل طويل حول بياض الحوت لدى ميلفيل. المروج الكبيرة والبحر المفتوح يميزان كلا الكاتبين، يقول دا - أماتو، نحن على العكس كُتَاب قصص تدور في حجرات مغلقة وفي مساحات ضيقة. أصعب شيء في رواية إخراج الشخوص من بيوتها، وميلفيل يجعلهم يدورون حول العالم في مركب لصيد الحيتان. كان يضحك بصوت قوي، بينما يصب لي براندي كما يحدث في قصص القراصنة.

بعد ذلك انتقلنا إلى غرفة الطعام وأكلنا بيتزا وصلت على موتوسيكل، وفتحنا زجاجة نبيذ أرجنتيني كنت قد حملتها معي. سألني دا - أماتو حول مشروعاتي المستقبلية. إن كنت أنوي البقاء في الولايات المتحدة، فالقسم سيكون مسرورا بتجديد عقدي لعام آخر. الزملاء والطلاب، وعلى الأخص البروفيسورة براون كانوا سعداء بعملي. في تلك اللحظة لم تكن لدي فكرة واضحة عن مستقبلي، لكنني لم أكن أرغب في العودة إلى بوينس أيرس. شكرته على العرض وأجبته بكلمات مراوغة. دا - أماتو كان يحاول إقناعي بزيارة المنطقة البحرية القديمة في ماساشوستس. وكان يجب أن أذهب إلى نانتوكيت، القريبة من كونكورد، كل الأدب الأمريكي تمت كتابته في تلك المنطقة. حكيت له أن سارمينتو، أكبر كتابنا في القرن التاسع عشر، ميلفيل الأرجنتيني، أضفت لكي يُكَونَ فكرة، كان صديقًا حميمًا لماري مان، التي كان لقبها كعازبة بيبودي، وكانت أختًا لزوجة هاوثورن. سارمينتو كان يتردد على إيمرسون، والتقى بهاوثورن، وفي زياراته لبيت هوراس وماري مان، ربما يكون قد تعرف إلى ميلفيل أيضًا. هل يمكن أن توجد أي رسالة من سارمينتو

Twitter: @alqareah

إلى ميلفيل؟ نظر لي، ليس بدهشة، لكن بعدم اكتراث. أعرف أنه عندما أتحدث عن كتّاب أمريكا الجنوبية الذين أحبهم، يسمعني الأكاديميون الأمريكيون بشرود مهذب، كأنني أحدثهم دائمًا عن نوع من النسخة الوطنية من ساجلاري أو كتب الأسلوب مثل كوخ العم توم. نعم، بالطبع، قال مستدركا، بحار الجنوب، سفينة بيكود عبرت رأس هورنوس. استمر الحوار لفترة ثم أخذ في الفتور فدعاني لزيارة القبو.

الأقبية المبنية تحت الأرض تقليد عريق في الثقافة الأمريكية: في أفلام الرعب، عندما يتم النزول للقبو يجب انتظار أسوأ الأحداث، قاتلي عائلات الفلاحين يختبئون عادة في القبو لكي يقوموا بعد ذلك بتصفية أفراد العائلة واحدا تلو الآخر؛ الشباب المراهقين يبدؤون حياتهم الجنسية في أعماق البيوت. لكن لم يخطر على خيالي ما ينتظرني تحت بيت دا ـ أماتو.

السلم الذي يقود لأسفل موجود في مدخل جانبي، لصق المطبخ. خلف حاجز معدني قام دون بعزل سخانات التدفئة، الغسالة، وآلة التجفيف، ولوحة الكهرباء، العمود الإسمنتي الذي يحمل أزرار الإنذار، وبعض الصناديق والأشياء القديمة. قام بتفريغ باقي مساحة القبو وحوّلها إلى حوض سَمَكٍ جدرانه زجاجية وسقفه جرار. يمكن السير فوق الحوض الضخم على عوارض خشبية ممتدة فوق البناء الزجاجي.

في الأسفل، في حوض السمك الضخم، تسبح سمكة قرش بيضاء. كانت تتحرك كظل في الماء الشفاف، وذيلها يلمس الهواء. إنها سمكة قرش كلبي، قال لي، رضيع، حياتها قصيرة في

Twitter: @alqareah

الأحواض. كان جميلاً وغريبًا، ويتحرك بأناقة باردة. وكيف تطعمه؟ بالأساتذة الزائرين! قال دون، ومَثَّلَ أنه سوف يدفعني، لكنه وضع يده على كتفي فقط. أشعل الأضواء، وبدا أن الظل يشعر بالغضب، لأنه غطس حتى أصبح غير مرئي لفترة، ولم نكن نسمع سوى غمغمة الماء حتى عاد القرش إلى السطح مثل شبح وحشي وقطع ذيله الماء في صمت، خيط ناعم رمادي في الهواء الشفاف. كان يطعمه بقواقع حية، قطع من اللحم، لكنه لم يكن يقدم له قططًا ولا كلابًا حديثة الولادة، كما كان يشنع عليه جيرانه.

نظرنا لفترة إلى التموجات الغريبة للسمكة المتعجرفة، وبعد ذلك صعدنا للطابق الأرضي وتوادعنا مبتهجين، بمساعدة آثار الكحول.

عدت سيرًا، كانت الليلة هادئة، الأشجار لم تكد تتحرك تحت هواء مارس، القمر لامع في السماء. ليس ببعيد عن هنا، يوجد قرش أبيض يسبح بصمت في المياه تحت سطح بيت فيكتوري.

Twitter: @alqareah

الفصل الثالث

- ١ -

كنت ألتقي بإيدا في الاجتماعات أو في الطرقات. دائمًا يبدو عليها أنها متعجلة، يجب أن نتكلم، كانت تقول - على انفراد أفكر- وفي النهاية، أحد أيام الجمعة، عندما أخذت القطار إلى نيويورك، رأيتها تدخل العربة، جميلة وجذابة، وتجلس بجانبي. كان لديها أمور كثيرة تريد أن نتحدث حولها، وهكذا، إن لم أكن سأفعل شيئًا أفضل، يمكننا أن ننتهز الفرصة لنطلع بعضنا على آخر التطورات. كانت عيناها متقدتين، كأنها لم تنم، أو تعاني من الحمى. بالطبع كان تعرف بالتفصيل ما فعلنا في السيمينار. الطلاب كانوا سعداء بدروسي. هل تحدثت مع جون الثالث؟ إنه أكثرهم ذكاءً، وأكثرهم إثارةً للمشاكل. لا يزال مصرًا على هذه الفكرة السخيفة لعمل رسالة حول كتاب واحد. لم تَعُد هناك رسائل حول كتاب واحد، أكدتْ بحسم، كأنها تشير إلى تغير بدهي يدركه كل المسافرين في القطار. لكن، ماذا سأفعل في نيويورك؟ لا يوجد شيء محدد، قلت

Twitter: @alqareah

لها، التنزه قليلا. هي كانت تهرب إلى المدينة كلما استطاعت، كانت تحاول ألا تقضي كل الوقت محبوسة في الجامعة، كانت بحاجة للتنفس، في نيويورك تصبح امرأة أخرى، نشأت في مانهاتن، تعرف المدينة جيدا، والدها كان طبيبا. طبيبًا من المدرسة القديمة، من الذين يعودون المرضى في بيوتهم. كان يحملها معه عندما كانت صغيرة، وهي كانت تنتظره في السيارة بينما يقوم أبوها بزياراته. كان يخرج دائما برائحة ثلج جاف في جلده، وتستطيع الشعور ببرودة الكحول في يديه شديدتي البياض عندما يداعب وجهها ويلاعبها قبل تشغيل السيارة وعبور المدينة إلى الزيارة التالية. يبدو أنها حكت تلك الحكاية مرات كثيرة، وأمكنها الوصول إلى أن تكون صورة الطفلة التي تنتظر أباها في السيارة شديدة الحميمية، لكي يتخيل السامع طفولة سعيدة. كان لديها شعور بالثقة والاعتداد بالنفس تربت عليهما منذ طفولتها، هذا ما كانت إيدا تسعى لأن يعتقد المرء. هي نفسها ترى شخصيتها نتاجًا للتربية التي تلقتها فتاة من أب محب لابنته، واثق وشهم، يعرف كيف يعامل النساء وكان حاضرا دائما كشخصية حارسة. تتحدث عن نفسها بجمل درامية، ملحمة فتاة نيويوركية حققت كل رغباتها، تمتلك حياتها، ولم تفعل أبدا ما يطلبه الآخرون منها. لست امرأة بالمعنى الحرفي، قالت، لكنني لست ذكرا، قالت للتوضيح. كانت تتحدث بسخرية، كانت تحاول إثارتي. لكن أباها مات، وما يؤلمها أنه لم يرها تنتصر. تنتصرين؟ نعم، بالطبع، التدريس في هذه الجامعة، أبي كان سيبتهج لمعرفة هذا. في عصره، لم يكن باستطاعة النساء الدخول هنا، قالت كأنها تصف تقدم جيش استطاع الاستيلاء على موقع للأعداء. كانت لها ابتسامة مستفزة، هي الشابة التي لا تزال تبهر

Twitter: @alqareah

الكبار. كانت تصغرني بعشرة أعوام، لكنها تبدو أصغر بكثير. كانت في هذا العمر غير المحدد، حيث لا يمكن معرفة إن كانت امرأة تركت المراهقة أخيرًا أو إنها بدأت في الشيخوخة.

استبدلنا القطار في جينكشن، وبحثنا عن عربة المدخنين التي كانت ما زالت موجودة في ذلك الوقت. يوجد رجال قليلون، أقل مع مرور الوقت، يدخنون في الشارع، قالت هي. النساء تخرجن من المكاتب ويشعلن سيجارة حتى لو نُظِر إليهن بشكل سيئ؛ يوجد شيء من الرحمة -النعمة(*) في التدخين. رذيلة بسيطة، إن كان يمكننا أن نطلق عليه هذا، قالت بعد ذلك. الأمريكيون ما زالوا يفعلون هذا خفية. ليس بالأمر السيئ الاختباء لممارسة الرذائل الشخصية. كانت جميلة للغاية حتى ليصعب الربط بين هذه المرأة وطريقتها السريعة المدهشة في الكلام. كان ترتدي فستانًا بنفسجيًا، لائقًا عليها تمامًا، يحدد خطوط جسدها ويجعلني أتوه بنظرتي في الأخدود بين نهديها. ألا ترتدي حمالة صدر؟ تحركتُ قليلاً محاولاً كشف اللغز، وهي قامت بتعديل وضع المنديل على عنقها بحركة سريعة. كانت جذابة، مثيرة، لكنها لم تكن ترى أنها جميلة، مثل النساء اللاتي يعتقدن أنهن جذابات - أو هن بالفعل جذابات - وهذا يدمرهن. كانت ترى أن جمالها شيء سطحي، وكانت تبتسم بحنق أمام النظرات - مثل نظرتي- التي تحاول تعريتها. كانت تستخدم الأفعال بصيغة المضارع، والسخرية كانت تزيد من سحرها. كانت تتحدث كأنها تضع كلمات معينة بين الفواصل، بل أحيانًا كانت تستخدم أصابع اليدين كقوسين لكي توضح أنها تضع مسافة بينها وبين ما تقول.

(*) مكررة بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

عندما وصلنا إلى (بن ستاشين) ارتدت معطفًا طويلاً وقبعة من الصوف. قبل أن ننزل نظرت في مرآة اليد الصغيرة، وضبطت طلاء الشفاه، ودعوتها لتناول شراب. ذهبنا إلى دبلين، حانة أيرلندية في الجزء العلوي من مانهاتن اكتشفتها في مسيراتي بالمدينة. جلسنا على البار وفي المرآة كنا نرى منطقة لا تكاد تكون مضاءة في عمق المكان، وبها عشاق في العتمة. كانت تنظر إلى البار بشرود، كأنها في مكان طبيعي، الحديقة غير المنسقة لبيت مهجور. شخص بوجه حزين كان يحدث البارمان حول لعنة امرأة لم يستطع الانفصال عنها. كان ثملاً، أو هكذا كان يبدو، وكان يتحدث عن المرأة بمزيج من العشق والغضب. لا يمكنني أن أترك البيت، قال، لديّ الورشة في القبو وأمضي هناك أفضل ساعات حياتي. وافق البارمان بإيماءة خفيفة، كان يمكن أن تمر كرمشة عين بينما يقدم لنا الويسكي على الطريقة الأمريكية، بكثير من الثلج في كوب يميل إلى الصغر. من يقدمون الشراب في البارات لديهم قدرة على إقامة حوار مُسَلٍ مع شخص أبكم. شربت إيدا جرعة، وعليها سمْت التفكير. عندما كانت تقوم بالدكتوراه في بيركلي، كانت تتقاسم غرفتها مع ناشطة زنجية مقربة من حزب الفهود السوداء، فتاة جميلة من آلاباما، انضمت في وقت قصير إلى كل ثورات تلك الفترة: الجنسية، والنسوية، والماوية، ومناهضة العنصرية، كانت تقوم بتحليل نفسي لنفسها، تدافع عن البشرة السوداء، تتعاطى حبوب منع الحمل، كانت تكتب رسالة حول جو براون، الثوري المناهض للعبودية في القرن التاسع عشر، كانت تخرج مع الشاعر الأسود، لي روي جونز وكانت تريد اعتناق الإسلام. قتلوها في مظاهرة ضد حرب فيتنام عندما كان عمرها تسعة عشر عامًا. كان

Twitter: @alqareah

اسمها آسيا مورجان، وكنت تفكر في تغيير اسمها إلى شهرزاد بركة، لكن الوقت لم يسعفها. قامت إيدا بجمع متعلقاتها قبل هجوم الشرطة على البيت. لم تكن تعرف ماذا تفعل بكل تلك الأشياء، وعندما وجدت مسدسا في قاع صندوق وضعته في حقيبتها، وذهبت بالتاكسي حتى مقر الفهود في سان فرانسيسكو. كان بيتًا بأسوار متوسطة الارتفاع، به نوافذ دائرية صغيرة وباب حديدي كبير. ضغطت الجرس عدة مرات وفي النهاية ظهر حارس، أعطته الحقيبة وقالت له على العنوان الذي سيجد فيه بقية متعلقات آسيا. شكرها الرجل ونظر لها بحنق، كأنها مذنبة لكونها بيضاء. تلك الفتاة، قالت إيدا، كان تضفي الجمال على كل ما تلمس، الفتاة الميتة، حسب ما قالت، كان لديها استعداد فطري للحب، وقالت لها إنها تنحدر من ملوك مصريين. أحيانًا كانت ترافقها إلى البارات الحقيرة للموسيقيين الزنوج في بوسطن والتي كانت تتردد عليها، وعندما ذهبت إيدا إلى هذه البارات أدركت وجود بلدان عديدة، بثقافات متنافرة، في هذا البلد. فجأة توقفت، تركت الحكاية معلقة، نظرت إلى الصالون مجددًا وابتسمت. ألا يبدو لك هذا المكان حزينًا؟ سألتُ. إنه حزين. فلنذهب إلى مكان آخر، قالت.

كانت إيدا تمتلك شقة في فيلاج، في بليكر ستريت. ستديو من حجرتين، مشمس، حيث كانت تغلق على نفسها لتمارس حياتها كامرأة مستقلة. عندما دخلنا عانقتها، لكنها ابتعدت بإيماءة خفيفة. ليس بهذه السرعة يا رجل، قالت. الحياة أمامنا. لم يكن هذا حقيقيًا، لكننا أمضينا تلك الليلة والتالية كأنهما خطر، قبل أن تكونا فألًا سيئًا.

Twitter: @alqareah

فتحت إيدا علبة فضية صغيرة حيث كانت تحتفظ بأقراص وردية، لا أعرف إن كانت أقراص الهلوسة أو (إل أس دي) أو ربما للإثارة الجنسية، لكن في الساعات التالية شعرت أنني قرد معلق في مروحة السقف، ومن مكاني كنت أري هذين الجسدين تحتي، عاريين في الفراش، أو واقفين أمام المرآة، يحققان الخيالات التي لم تخطر لهما.

لكي يمكننا الكلام يجب أن نذهب إلى الفراش أولا، قالت هي. كانت لديها القدرة على خلق حالة من الحميمية سريعًا، شعور بالحميمية، وبالثقة أبعاده أكبر من الجسد. حينئذ سألتها عما قالته لي عندما خرجنا من المطعم المرة السابقة. إنني كنت ساخنة معك، قالت. كانت تشعر بالضجر من سماعي أقول إنني انفصلت عن زوجتي، وإنني أعيش نصف تائه. كلنا تائهون، إن كان لهذا السبب لا تقلق، وكلنا انفصلنا عن امرأة ذات مرة.

مر الوقت كأننا تعارفنا وعشقنا بعضنا في الماضي، وفجأة وجدنا أنفسنا في هذه الشقة السرية في نيويورك. اسم إيدا(*) يعني حركة، الذهاب، الرحلة من دون عودة، يشير إلى من يرحل. ويعني أيضا الفتاة الغريبة "هي مجنونة" أو "هي نصف مجنونة". بالإضافة إلى هذا، كان اسمها مثل أمي، هل تصدقون؟ هذه هي الكلمة الأولى التي تعلمت قراءتها. "إيدا، هل ترى؟"، هكذا كانت تقول أمي، ثم تقوم بهجاء حروف اسمها المنقوش على بوابة بيت جدي.

مساء الأحد لحقنا بالقطار الأخير وجلسنا في عربتين مختلفتين لأنها لا تريد مشاكل. أي مشاكل؟ لا أريد أن أكون مادة للكلام في القسم. لا يجب أن أكلمها بالتليفون لأي سبب، ولا أن أكتب لها

(*) هذه بعض المرادفات لكلمة إيدا Ida بالإسبانية. وبهذا يمكن تفسير العنوان كـ «رحلة ذهاب»، «طريق الذهاب» «الطريق إلى إيدا». (المترجم).

Twitter: @alqareah

رسائل إلكترونية شخصية. كانت امرأة وحيدة، تريد أن تكون امرأة وحيدة. لا مكان للعبث في مكان العمل أو التواطؤ المزيف. هذا أفضل، قالت، سنصبح عاشقين سريين. كانت دائمًا تتحدث بسخرية، (مثل أمي) وتحتفظ بالرذائل السرية بعيدًا عن حياتها المهنية. نَزَلتُ في جونكشين، ومن فوق الرصيف رأيتها تواصل بالقطار حتى القرية. جميلة في النافذة، كانت تقوم بضبط شعرها وعينيها في مرآة اليد الصغيرة.

رأيتها في اليوم التالي في صالة الأساتذة، وتبادلنا التحية بالنبرة المعتادة بين زميلين يلتقيان في القسم من دون أي إشارة إلى الليالي الحميمية في شقتها السرية في فيلاج. لطيفة، ساخرة، غير مكترثة، أقنعتني أن أفضل شيء هو الالتزام بالمبادئ الأكاديمية للعلاقات الودود الرسمية، ونسيان ما يحدث خارج الكامبوس(*) (الكامبو كما يقول المصورون).

كانت ظهيرة مظلمة ممطرة، وفي الاستراحة يوجد قهوة وكعك، ويمكن قراءة الصحف. المتخصص في السينما الروسية، مخرج تجريبي سابق قام بتصوير فيلمين سوبر ٨ مم في مصحات نفسية سوفيتية، كان يقرأ بالقرب من النافذة عددًا قديمًا من (سايت آند ساوند). بعد تبادل إيماءة خفيفة بالترحيب اقتربت إيدا من الشاب كالامازوف لكي تقول له إن اثنين من طلبته كانا مبهورين بمحاضراته حول الظلام في أفلام تاركوفسكي. وسرعان ما انضم لهما البروفيسور الغامض للآداب السلافية والعديد من طلاب الدراسات العليا في كورس إيدا. بعد فترة، تحول اللقاء العارض إلى

(*) الحرم الجامعي. Campus. أما الكلمة الأخرى المذكور بعدها (الكامبو) Campo، فتعني حقلاً أو معسكرًا. (المترجم).

Twitter: @alqareah

نوع من الاجتماع السياسي الثقافي. تناولنا قهوة وتحدثنا عن انهيار الستار الحديدي، وعن التقاليد الروحانية في الثقافة البولندية بينما ننتظر هبوط المساء لكي نعود إلى البيت. بقيت حتى النهاية، أسيرًا للملل وأيضًا للحالة المعقدة التي يمثلها الموقف لي. كنت قد مررت بارتباكات شبيهة في حياتي، الوجود في اجتماع مع امرأة كنت أراها سرا، والكلام معها في أمور تافهة بينما الزوج يتحرك من هنا لهناك مقدما النبيذ بالفواكه. بالطبع هنا لا يوجد زوج، فضلاً عن أنها تزوجت من الجامعة، مثل الراهبات اللاتي ينذرن أنفسهن للمسيح؛ كان الأمر يتعلق في النهاية بالحفاظ على حياتها الخاصة بعيدة عن عيون الآخرين، كأنه يوجد بالفعل من يقوم بالتجسس عليها، وتشعر بالحاجة للتظاهر طوال الوقت. وحقيقةً كانت تحت الملاحظة. كانت شابة عزباء تحافظ على مكانتها بصرامة حديدية وتعرف أن المضايقات الجنسية والسلوك الخاطئ قد يقضيان على مستقبل امرأة أيضًا، وربما ببساطة كانت تحب أن تتم الأمور بهذا الشكل: الخروج ليلاً، متنكرة كغاوية، واللقاء مع رجل شبه مجهول في الثنايا المعتمة لحديقة مليئة بالشجر. الحياة المزدوجة كانت جزءً من ثقافة هذا البلد، من وقت لآخر يتم الكشف عن سيناتور متخفٍ بزي امرأة في بيت دعارة؛ الأبطال كانوا شخصيات عادية تتحول في الليل إلى ملكات - أو إماء- في العالم السري، أو لأبطال خارقين لا يمكن هزيمتهم (أوه، باتمان).

لم أكلمها في التليفون، كان الاتفاق ألا نتبادل الرسائل، ولا حتى نفتح حسابًا سريًا في البريد الإلكتروني، لم يكن الأمر مجرد كلمات أو أشياء تقال وتُنسَى: احترمنا بنود الاتفاق الذي أصرت على عقده مُحَدِدةً شروط العلاقة معي وحدود العواطف.

Twitter: @alqareah

يوجد شيء من المسرحية في هذه التمويهات، الشخوص المتخيلة والألعاب الخطرة، شيء يشبه الحكاية الخيالية التي يعيشها شخصان مجهولان. كانت تأملات مساء ممطر، تفسيرات مجردة لمشاعر حقيقية. في استراحة القسم، بينما تتبادل التعليقات والنكات مع الزملاء في الصالون ذي الزجاج المضبب والأضواء الخافتة، فكرت أنها محاولة لاختراع حياة أكثر إثارة وأكثر واقعية. كان العالم الأكاديمي شديد الانغلاق، يحتل مساحات كبيرة ويترك مكانًا صغيرًا لخبرات أخرى، يجب إنشاء نقاط للتنفيس وحيوات سرية للهروب من الرسميات. لهذا توجد رقابة إدارية صارمة على السلوك الخاطئ، سور من القواعد الأخلاقية الطهورية. بينما تتزايد الإنجازات المهنية، قالت لي ذات ليلة، كانت تشعر في داخلها بحاجة ملحة للخضوع والإهانة. كان لعبا بالنار في صالات التدخين في الحصون الجامعية.

كنا نتصادف في الطرقات ونتحدث عن أي شيء، من دون تبادل نظرات أو إشارات حميمية. يبدو أنها تعيش أيضًا في مراحل منفصلة، مع الأصدقاء، والزملاء، والعشاق، والطلاب، معارف المهنة، وكل واحد من هذه الفضاءات لم يكن متداخلا مع الآخرين. كانت فتاة أمريكية: ذكية، نشطة، ومنظمة للغاية، كانت تخرج للجري مع الشروق في شوارع القرية المشجرة، متحكمةً في الإيقاع والنبضات عن طريق الجهاز الرياضي الرقمي الذي تحمله في معصمها الأيسر. كان لها استعداد فطري لوضع الحدود، للكبح، وكان من المستحيل عبور هذا الزجاج غير المرئي الذي كان يعزلها عن العالم. كانت تعيش حياة سرية وتتبع إجراءات الأمان؛ في حياتها الأخرى كانت بروفيسورة تشعر بالملل في اجتماع القسم.

Twitter: @alqareah

أتذكر جيدًا إحدى تلك الليالي. الابتسامات المتعبة والغضب يتقاطعان مثل البرق بينما نتناول نبيذًا كاليفورنيًا ونتحدث في مجموعات صغيرة حول أوانٍ بها دجاج بالكاري وفطائر التونة. كانت ترتدي تنورة مشغولة تحدد ردفيها وما يشبه البلوزة أو البيجاما البيضاء، عنقها مثل أعناق سترات ماو. تتحدث بلطف مع أحد الزملاء. اقتربت، قمت بتحيتها بانحناءة. كنت قد أفرطت في الشراب، وعلى هذه الحالة النفسية التي أعرفها جيدًا، عندما أمشي في خطر على حافة الهاوية، لكنها تركتني أتحدث مع شخص بائس لا أعرفه، يرتدي رابطة عنق صفراء واقتربتْ من دا - أماتو لكي تسأله عن حال حيتانه المتوحشة في قبو البيت. كنت أراقبها من أحد الجوانب وأرغب فيها، وكيف لا أرغبها، إن كنت لا أستطيع التوقف عن التفكير في الليلتين اللتين أمضيناهما معًا.

كانت هناك حالة من الترقب في الجو، كأن كل الإشارات الغامضة تعلن عن نبوءة سيئة. أعرف هذه الحالة - أو هذه القناعة - من دون دلائل، التي تبدو وهمًا أكثر منها كاعتقاد. أفكار الحب السحرية، لعاشق مغيب، متعلق بامرأة يرغب فيها، ويسعى وراءها بإصرار مرتبك وغبي. لكي أهرب من هذه الأفكار الخاطئة، كنت أقضي أوقات الظهيرة في العمل في المكتبة. كانت أفضل طريقة لتغيير الموضوع "ما دمنا لا نستطيع تغيير الحوار، فلنغير الواقع"، كما كان يقول صديقي جونيور في بوينس أيرس. رغم هذا، كانت صورة إيدا تفرض نفسها وفي النهاية ماذا أفعل؟ أجمع الكتب وأخرج للشارع. إيدا تتقن فن المقاطعة، بحركة واحدة من اليد كانت تباعد بين الأجساد، مثل البطلة في رواية مغامرات. بالطبع لم تكن إيدا بطلة أي رواية، رغم أنني كنت أود أن تكونها لكي أغير مصيرها.

Twitter: @alqareah

صعدت إلى السيارة وأخذت أقود في الطرق من دون هدف محدد. لماذا انتحت جانبًا بدا- أماتو؟ ما دامت تعرف الحوض الغبي في القبو لا بد أنها ذهبت إلى بيته. في ذلك الوقت لم أكن قادرًا على التفكير في طبيعة علاقات الآخرين، لأنني كنت منشغلا فقط بموقف الآخرين مني. أتذكر أنني تبعت مجرى قناة ديلوار، بل إنني سرت على ساحل نيو جيرسي، متوقفا في بارات صغيرة قرب البحر. ذات مساء توقفت في شارع ما في أحد أحياء ضواحي أتلانتيك سيتي، وذهبت إلى الكازينو وربحت الكثير من المال في الروليت. عدت إلى السيارة وذهب للتسكع في الشوارع الخالية الواقعة خلف المنتجع والكورنيش والفنادق. يبدو كأن الحي تعرض للقصف، توجد مبانٍ محروقة، بيوت منهوبة، أكوام من القمامة التي تطلق الدخان، متشردون نائمون تحت الجسر. شباب كثيرون، بجينز ساقط وسترات بغطاء للرأس كانوا يسمعون الراب عالي الصوت، جالسين على الرصيف أمام متجر صغير، يدخنون ويغفون. في طريق جانبي، في الحي اللاتيني من المدينة توجد صالة جيمنزيوم، (ساندي سادلير بوكسينج كلوب).

صوت القفازات المرتطمة بأكياس الرمل، رائحة الجير، الحركات الإيقاعية للملاكمين يلاحق كل منهما الآخر جعلتني أتذكر الزمن الذي كنت أذهب فيه مرتين في الأسبوع للتمرين في نادي الملاكمة في شارع كاسترو باررروس، عندما كنت حديث العهد ببوينس أيرس وأعيش في فندق ألمارجو. الفئة في الملاكمة لا تحسب بالعمر وإنما بالوزن. في ذلك الوقت كنت وزنًا خفيفًا (٦٦,٠٠ كجم)، وبعد ذلك أصبحت خفيفًا متوسطًا (٦٦,٠٠ كجم) والآن سأكون وزنًا وسطًا (٧٢,٠٠ كجم).

Twitter: @alqareah

من يتدربون هناك كانوا فتياناً في الرابعة عشر أو الخامسة عشر، ويُعِدُّون أنفسهم للقفازات الذهبية. ومع هذا، كان البعض يذهب لتقوية الذراع من أجل رمي الكرة السريعة في البيسبول. كانوا يمارسون اللكمات الخطاف والمباشرة على كيس رملي، وهكذا يتمرنون لزيادة قوة الكتف ودوران الجسد من أجل رمي الكرة بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة من دون التعرض لتمزقات. نظام التدريبات كان يتبع إيقاع المباريات: ثلاث دقائق من التمرين الجاد ودقيقة من الراحة. عندما رأوني داخلا، فكر البعض أنني أقوم بتدوين ملاحظات لكتابة مقال حول صالات الجيمنزيوم، وأخذوا يحكون لي قصصهم ويقولون إنهم كانوا أصدقاء للكاتبة جويس كارول أوتس، التي كانت تعيش في نيو جيرسي وأَلَفَتْ كتابا جيدا حول الملاكمة، وكانوا جميعًا يطلقون عليها أوليفيا لتشابهها مع زوجة البحار بوبيي.

المدرب كان عجوزًا كوبيًا منفيًا، يقول إنه كان بطل وزن الريشة في منافسات اشتراكية قديمة للملاكمة في موسكو. أسمر، شديد الهدوء، كان من المعجبين بكيد جافيلان وشوجار راي ليونارد. في الملاكمة، قال لي، الأسلوب يعتمد على النظر وعلى السرعة، بمعنى، ما يطلق عليه "علميا"، الرؤية اللحظية. كم أتمنى أن أمتلك هذه الرؤية اللحظية لكي أستطيع رؤية إيدا بين الظلال. ماذا تفعل عندما لا تكون معي، فيما تفكر عندما نتصادف في الممر وتحدثني كأنني شخص غريب يأتي من بلد بعيد غامض؟

كنت أعطي محاضراتي، آكل في مطعم بروسبيكت هاوس، أحيانًا كنت أمضي ساعات قارئًا في (سمول وورلد)، على مائدة بالقرب من النافذة، مفكرًا أنني قد أراها تمر في الشارع الذي

Twitter: @alqareah

يؤدي إلى مدخل الجامعة. وبالفعل، ذات مساء، رأيتها تمر أمامي عبر زجاج البار ومن بدون أن تتوقف تقريبا، أتت بإيماءة، وقالت، ناطقة كلماتها من دون صوت من خلف الزجاج، إنها سوف تمر على مكتبي. أتت بعد قليل وبصوت خفيض عرضت عليّ أن نلتقي في الثامنة من مساء الجمعة في فندق حيات - على جانب الطريق الذاهب إلى نيويورك. يمكننا أن نلتقي في اللوبي وبعد ذلك قضاء الليلة معًا.

ذهبنا بالسيارة، كل بمفرده، والتقينا في البار، حيث كان عازف بيانو أسود يعزف بارتباك مقطوعات من إلينجتون. الفندق كان ضخمًا، وفارغًا، ربما كانوا يستخدمونه للمؤتمرات أو للمسافرين الذين تخلفوا عن الطائرة في مطار نيو أرك القريب، وربما كان مكاناً مخصصًا للقاءات السرية للعشاق الحذرين في المنطقة.

حجزت غرفة باسم السيد أندرادي وزوجته، وفي الاستقبال قمت فقط بتمرير ورقة بمائة دولار بجانب رخصة القيادة لكي يقوم موظف الاستقبال الليلي بتسجيلي في سجل النزلاء، ويعطيني بطاقتين مغناطيسيتين لفتح باب الغرفة. قلت له إنني أنتظر زوجتي، وذهبت للبار لتناول شراب. بعد قليل دخلت اللوبي مرتدية معطفا رماديا واقيا من المطر وصعدنا إلى الغرفة. كانت منفرة، بأثاث أبيض، مصممة للمديرين والمنتحرين، لكن ما إن أُغلِقَ الباب، بدا وأن سلسلة من الأحداث البسيطة قد تجمدت في الزمن، لأننا وجدنا في الحال، نفس الحميمية ونفس العاطفة اللتين عشناهما في مخبئها في نيويورك.

كانت تحب الغموض، كانت تحب اللقاءات السرية في فندق على وسط الطريق. في الفجر، نزلتْ هي أولاً وانتظرتُ حتى رأيتها تعبر

Twitter: @alqareah

ساحة الانتظار وتصعد إلى سيارتها. بعد قليل، خرجتُ من الفندق وعدت إلى البيت قائداً السيارة في الطريق الخالي، بينما تشرق الشمس في الحقول المزروعة والأضواء الأولى كانت تشتعل في البيوت الكولونيالية العالية في مدخل القرية.

كررنا هذه اللعبة مرتين أو ثلاثًا، كأنها تنفذ بإخلاص بنود الاتفاق بيننا، ليالي العشق السرية، سور الصمت الذي يفصلنا عن العالم، التكرار المنتظر للإشارات والكلمات، الطلبات المحددة، القائمة الصارمة بالواجبات والأوامر والتي تم إعدادها بعناية، والتي كانت تخضع لها ببهجة وسعادة. ربما يمكننا إحضار شخص ما، شخص مجهول يمكنني جلبه من بار الاستقبال أو من محطة الأتوبيس على جانب الطريق السريع، شخص يصعد إلى الفندق ويقضي معنا الليلة. توجد بعض الأندية في نيويورك التي يمكن الذهاب إليها، للاختلاط بغرباء، قالت. خيالات في الليالي العمياء، كانت تتطلع للانطلاق، في عزلة، غائبة عن الوعي، ومترقبة.

بعد ذلك، في الخارج، يعود كل شيء كما كان، هادئًا، رتيبًا. في كل لقاء ليلي، يحدث كل شيء بنفس الطريقة، لكن تتغير اللغة والطقوس الخاصة. ليس معي فقط، أدركت هذا بعد ذلك، لكن في كل شئون حياتها كانت الأولوية للسرية، كل شيء له ضده، واقع مواز، وكأن كل خبرة يجب انتزاعها من قوة معادية مهيمنة ومهددة.

إلى حد ما، ورغم كل شيء، كان الاتفاق مناسبًا لي: ما زلت رجلاً وحيداً كما أرغب، من دون التزامات، آملا لتكرار تلك الليالي المبهرة في المستقبل. لقاءات غير منتظمة مع امرأة في فندق على الطريق، تتكرر فيها عاطفة المرة الأولى. لا حاجة لأمر آخر، لم أكن

Twitter: @alqareah

أرغب في العودة للانجذاب الغبي إلى المشاعر اليومية. كانت محقة، هذه الحميمية الوقتية، والمليئة بالحياة لا يمكن أن تدوم إن عرضناها لضوء الواقع المباشر.

حينئذ، عندما كنا نلتقي في اجتماع أو في الطرقات يوجد شيء من سعادة غريبة، كأن الاتفاق الخاص ينكشف في الطريقة المحايدة للتصرف عندما نكون مع آخرين، أو في بعض الكلمات والعبارات المنفصلة - لقاء، أدوات، قيود، جزيرة مهجورة - التي تظهر في وسط اجتماع، كأنها موجهة فقط لي.

كان النصف الأول من التيرم على وشك الانتهاء، واقتربت إجازة الربيع. في ذلك الوقت، كنت أشعر بالطبع أن كل شيء ليس إلا انتظارا لهذه الليالي مع إيدا في غرفة مضيئة، محايدة في فندق حيات العالي، في وسط الطريق إلى نيويورك. في تلك الأيام، ومثل المجانين، كنت أعتقد أن كل ما يقال كان يشير إلى حياتي السرية.

في محاضرة الاثنين التالي قدم جون الثالث عرضا لـ" العصر الزجاجي". في رواية هدسون، وفقا له، كانت اليوتوبيا قائمة كلية على عالم بلوري، محايد، منزوع الجنس، نسخة من الحياة في الجنة الأرضية، حيث لا يوجد مكان للفروق الجنسية والرغبات. جون الثالث أضاف أن اليوتوبيات لم تعرف ماذا تفعل بالأجساد، كانت تسعى إلى عالم من دون رغبات، لأن الدافع الجنسي كان يعمل بشكل مستقل عن الحاجات والمصالح الجمعية، من دون أن يأخذ في الحسبان المساواة، وفي الغالب على حسابها. المتعة لا يمكن أن تكون اشتراكية ولا تحترم المساواة، قال جون الثالث. كانت عصية على المنطق الاقتصادي، لهذا كانت اليوتوبيات تميل مباشرة

Twitter: @alqareah

إلى إلغاء الرغبة الجنسية، لأنه لا يمكن تنظيمها ديمقراطيًا. بالطبع توجد يوتوبيات جنسية، لكنها كانت دائما متعالية واستبدادية. القرعة التي يتم التلاعب بها لترتيب اختيار العلاقات الجنسية وتحسين النسل في جمهورية أفلاطون، فلسفة العبودية المبتغاة لدى جاستين في رواية دي ساد، بيوت الدعارة في حياة باتاي؛ الأجساد كعملات حيةً في التبادل الأرستقراطي لدى كلوسيسكي. هل يمكن إطلاق يوتوبيا على هذه الأنظمة القائمة على الجنس؟ تساءل جون الثالث برطانة لينهي عرضه اللامع.

وعلى الفور، ربطت راشيل بين هذه الحالة من الزهد والتخلص من الممتلكات الشخصية، وقرأت رسالة لهدسون تعود لـ ١٨٨٤ "لا أتفق مع أفكارك حول الملكية الدائمة والاحتفاظ بأشيائك معك. إن أحضروا لي فنجانًا وطبقًا لاستبدالهما بالمكسورين سوف أشعر بالأسف على نفسي. عندما أكون أقل ارتباطًا بأي مكان، وكلما قَلَ عدد الأشياء التي أمتلكها، أشعر بحرية وخفة أكثر. أعتقد أن هذه الخفة مرتبطة بأسلوبي: أبحث عن التخلص من الملكية والوضوح ذاتهما".

التخلص من كل الممتلكات، نسيان الجسد؛ الأنبياء العظام - يكفي تذكر تولستوي - اختاروا حياة فقر، وزهد، وابتعاد عن العنف. كانوا يُثَوِّرون منظومة معايير المجتمع، قالت في النهاية، بإحالة غير محددة إلى قراءاتها الفرنسية.

النقاش أصبح عامًا، وبينما كان الطلاب يتحاورون ويبرهنون، كنت أفكر في اللقاء التالي مع إيدا، وأرى صورًا متفرقة - ستائر من القماش الأبيض في الغرفة التي تشبه باقي غرف الفندق - بنفس

Twitter: @alqareah

الشعور بالنشوة أثناء قيادتي في الطريق ليلا، وعلى مبعدة أرى اللافتة المضاءة بأضواء قوية على مدخل حيات، وأتخيل إيدا في طقس ارتداء ملابسها ببيتها، وبعد ذلك تتغطى بمعطف المطر الرمادي وتخرج للشارع.

في تلك الأيام لم أستطع تفادي ألا تدور أفكاري حول اللقاءات مع إيدا، كانت دفقات، رؤى، كأنها متصلة بجهاز عرض يعكس صورًا محروقة على جدار العقل، وكنا فيها، هي وأنا، أبطالاً ومشاهدين في الوقت نفسه. كانت تظهر فجأة ودائمًا تحدث في المستقبل، ومن هذه المادة الضوئية الهشة، تتكون ذاكرتي الآن حول تلك الأيام.

ذات ظهيرة كنت في المكتب أراجع المكالمات في جهاز الرد الآلي، أو أقوم بالرد على رسائل إلكترونية، وعندما خرجت لإحضار بريدي من مكتب القسم التقيت بإيدا في الممر. توقفتُ للحظة، كأنها كانت تنتظرني ودخلتْ مكتبي. أعتقد أننا تقريبًا لم نتحدث، عانقتها وتبادلنا القبل، وبسرعة، متوترين، مثل هاربين يلتقيان في صالة الانتظار في محطة الضاحية، اتفقنا على موعد في يوم الجمعة. إلى حد ما كان مثيرا للسخرية أن تتم كل الاتفاقات شخصيًا، وجها لوجه، من دون استخدام أي وسيلة اتصال أخرى أو رسالة (ولا حتى ملاحظة مكتوبة باليد). "امح بصماتك"، تقول قصيدة بريخت. يوم الجمعة تبدأ العطلة ولا توجد محاضرات في الأسبوع التالي، يمكننا أن نبقى في الفندق يومين، ونقضي باقي الأسبوع في نيويورك. إيدا تركت كتابًا وبعض الأوراق على المائدة وكانت تبحث عن شيء في جيب المعطف، وفي تلك اللحظة قام أحد

Twitter: @alqareah

بطرق الباب وبسرعة انفصلت وابتعدت عني. كان جون الثالث، الذي قام بتحيتنا بهدوء وفي الحال اعتذر عن المقاطعة، لكنها قالت له إنها كانت كان وشك الذهاب، ومرت أمامنا وخرجت. نلتقي غداً في اجتماع القسم، قالت أثناء ابتعادها. أمضيت وقتًا متحدثًا مع جون حول عرضه في المحاضرة، وانتبهت إلى أن إيدا تركت الأوراق فوق المكتب، هكذا ظللت طول الوقت محاولا أن أشتت انتباهه، كأن أوراق إيدا دليل على شيء محرم. لم يكن شيئا ذا أهمية. كتاب لكونراد وحافظة أوراق بها قائمة الندوات في النصف الثاني من التيرم، ورسالة من طالب يبرر غيابه بشهادة طبية.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى اجتماع القسم، كانت إيدا موجودة، بطلعتها الهادئة الشاردة. كنا ستة أساتذة جالسين حول مائدة كبيرة من البلوط في الصالة ذات النوافذ العريضة. بعد قليل وصل دون وبدأنا الاجتماع. دار النقاش حول مواعيد الامتحانات وبعض القضايا الخاصة بالميزانية ومر كل شيء من دون مشاكل. الزملاء المحيطون بي كانوا معتادين على مداراة ضيقهم، وليس الملل، وهكذا تمر الاجتماعات عادة. بعد الحصول على ما كانت تريد (ميزانية إضافية لضيوف مادتها)، اعتذرت إيدا وغادرت الاجتماع قبل نهايته. بعد دقيقة خرجت خلفها. كنت أريد أن أعيد لها الأوراق، لكن هذا لم يكن سوى حجة لكي أعطيها رقم الغرفة التي حجزتها. لقد تركت بعض الأوراق فوق المكتب. اندهشت. بالأمس؟ بعض الأوراق؟ حسنا، كتاب وبعض الأوراق. لا، أعطها لي في وقت آخر، لا أريد أن أحملها الآن. كانت قد ذهبت لاستلام بريدها وأرتني الرسائل واللفافات كأنه لا يوجد مكان في يديها. كانت متأخرة؟ رأيتها تذهب، وتنزل في المصعد إلى ساحة الانتظار لتخرج سيارتها.

Twitter: @alqareah

امتد الاجتماع وقتا آخر. وعندما انتهى كانت الساعة قد تجاوزت السابعة. تركت أشيائي في المكتب ونزلت على السلم لكي لا أرافق الزملاء في المصعد فأضطر إلى الكلام معهم. كنت متعبًا، لم أكن أعرف جيدًا ما سأفعل تلك الليلة. كانت العاصفة الثلجية تشتد. عبرت الحرم الجامعي وخرجت من الباب المؤدي لبالمر سكوير. في أحد الجوانب، جالسا على مصطبة، بجانب موقف التاكسي، كان أوريون جالسًا ومغطى بقطعة بلاستيك ومتخذا مأواه تحت مظلة السيارات. كان قد حصل على راديو محمول، كبير، قديم، يعمل ببطاريات دائرية وله سماعات كبيرة. وكان يسمعه باهتمام واضعًا أذنه على الجهاز. تنبهت إلى أنه كان يريد سماع الموسيقى فقط، فعندما يظهر صوت بشري كان يتوتر ويغير المحطة في الحال. أحيانًا كان ينهض أو يحرك الراديو ويثبته في مكان إستراتيجي لالتقاط التردد. توقفت أمامه لكنه نظر لي بلا مبالاة؛ هو أيضا لديه لحظاته الصعبة ومراحله الحياتية.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

في اليوم التالي استيقظت على مكالمة من القسم. هل يمكنك لو تفضلت، أن تأتي لاجتماع مع المدير؟ كل هيئة التدريس اجتمعت في المكتب الرئيسي. يوجد جو من العصبية والقلق. بصوت جاد، قام دون دا - أماتو، الذي بدا كأنه لا يحتمل ثقله، وأيضًا لا يحتمل الموقف، بتلخيص الرواية الرسمية لما حدث، كأنه يقرأ علينا تقريرًا طبيًا.

قامت إيدا بالخروج من ساحة الانتظار، تحذير إدارة المرور حول العاصفة جعلها تغير طريقها المعتاد وقررت الخروج من بايارد لين لكي تدور حول البلدة من الجنوب. لم ير أحدٌ أي شيء، لكن كل شيء حدث هناك. تم العثور على السيارة متوقفة في نهاية شارع ناساو، أمام إشارة المرور البطيئة التي تنظم التفريعة إلى الطريق ٦٠٩ كانت مربوطة إلى الكرسي بحزام الأمان، في وضع غريب، شبه مائلة، الذراع مفرودة، واليد محروقة، كأنما اشتعلت

Twitter: @alqareah

بينما تبحث عن شيء في أرضية السيارة. التصادم - أو أيا ما كان- أدى إلى موتها. الحرق في اليد اليمنى كان أغرب الأمور في الحادث. لم ير أحد أي شيء، لم يسمع أحد أي شيء. فقط إنذار السيارة، الذي ظل يصفر خلال دقائق كثيرة لأن فنيّ الشرطة لم يرغبوا في تغيير أي من العناصر الموجودة في لحظة موتها. هل يمكن أن يقال "موتها"؟ عندما يموت شخص عَرَضًا ؟ "كلنا نموت عَرَضَاً" كانت ستقول هي بسخرية.

أصابني الخبر بالذهول. فقط كان يمكنني رؤية التشنج في وجه دون. العينان ترمشان بعصبية تبدل ملامحه الهادئة. رعشة خفيفة في جفن العين اليمنى. الوهم يكمن في التفاصيل، وبينما أحاول مداراة تأثري، كأنها موسيقى كنت أسمع السرد البطيء للمعلومات والتفاصيل التافهة التي ترافق دائمًا ما لا يمكن قبوله. فوق كرسي السيارة، على جانب، كان هناك الكثير من الخطابات المغلقة. هل كان هناك شخص آخر معها؟ هل قام أحد بالاعتداء وهرب بعد ذلك؟ أم أنها أصيبت بإغماء وفقدت التحكم في السيارة؟ الحادث وقع في السابعة مساء يوم الخميس الرابع عشر من مارس، ساعتها كانت متوقفة على هذه الساعة. سكرتيرة القسم رأتها تدخل المكتب لأخذ رسائلها وبعد ذلك تهبط في المصعد.

كان من الضروري إخبار الطلاب. سوف يتم تعليق المحاضرات، لحسن الحظ لدينا عطلة الربيع. الصحف والتليفزيون سوف تنشر الخبر، الفضيحة لا يمكن تفاديها. طلب منا الصمت. لا تصريحات للصحفيين، لا يريد أن تواجه الجامعة عاصفة الفضيحة. يجب إخبار قسم الثقافة الحديثة ودراسات الفيلم بما حدث. بالطبع، رواية الإدارة أن ما وقع كان حادثا قيد التحقيق. تَوقَفَ. وتم تكليفي

Twitter: @alqareah

بإخباركم أن الشرطة ستأتي ظهر اليوم لاستجوابكم. يجب أن ننتظر رجال الشرطة في مكاتبنا (خصوصًا مَنْ كانوا في الطابق نفسه مع البروفيسورة براون).

بعد قليل دخل رئيس الجامعة، الدكتور همفري، من قسم الفيزياء. كان صريحًا ومهذبًا، لديه هوس - أو حرص- بتصوير كل من يطلب لقاءه. لكي يتذكرهم، وربما، لكي يقيم معرضا للصور عندما يتقاعد. كان ينظر إلى أعضاء أقسام الأدب باعتبارهم بعض المجانين وغريبي الأطوار، يقومون دائمًا بدعوة مشاهير أجانب لا يفهمهم أحد. تحدث بنفس طريقته في اجتماعات اللجنة عندما يكون عليه أن يقوم بتقليص ميزانية برامج العلوم الإنسانية. بلباقة قام بالتشكيك في الضحية. في أي أمر كانت متورطة تلك البروفيسورة، تلك المرأة، تلك الفتاة العزياء. يحيط بها الطلاب دائما. مسيرتها الأكاديمية مبهرة، لكن ماذا نعرف عن حياتها الشخصية. طلب منا التعاون لاستئناف المحاضرات بعد الإجازة والحفاظ على الهدوء. كان هو مَن يبدو عصبيًا.

ـ ٢ ـ

عندما دخل رجلا شرطة في مكتبي كانت الحادية عشرة صباحًا، استقبلتهما بشيء من التوجس، لكن بود. لم يقبلا دعوتي للجلوس. كانا مهذبين (يمكنني أن أقول مهذبين أكثر من اللازم، هذا التهذيب الفج الذي يخفي وراءه عنفًا لا حد له). كانا متشابهين، باستثناء أن شَعرَ أحدهما كان قصيرًا للغاية والآخر على موضة تلك الفترة (الشعر يغطي الأذنين)، كل منهما يرتدي بذلة سوداء، قميصًا أبيض ورابطة عنق حمراء بدبوس في العنق. لكن

Twitter: @alqareah

أحدهما يبدو شديد الأناقة، بينما الآخر يبدو كبائع أناجيل متجول. كان الأكثر أناقة عرفت بعد ذلك - العميل الخاص منينديث من (إف بي آي)، والآخر الذي كان يتكلم، قدم نفسه بالمفتش أوكونر من الإدارة المركزية لشرطة نيو جيرسي، في ترينتون. لغتي الإنجليزية كانت تشعرني بالتردد وعدم القدرة على الإقناع. أعتقد يا دكتور رينزاي، قال أوكونر منغمًا نطقه بلقبي، أنت من بوينس أيرس... مدعو، على ما أظن، من الدكتورة براون. لدينا هنا بعض المراسلات الإلكترونية التي تبادلتمانها. بالطبع كانت كل رسائلنا الإلكترونية تحت أيديهم، ومن المرجح أن يكونوا قد سجلوا المحادثات التليفونية وسمعوا الرسائل الباقية في جهاز الرد الآلي. هذا لا جدال فيه. أحنيت رأسي موافقًا. شكرًا على تعاونك، قال أوكونر. كنت أعرف الطريقة جيدًا. في البداية توجد بعض الأسئلة التي يتم استخدامها من أجل ما يطلق عليه في المهنة "تشحيم الصامولة". رجل الشرطة يبدي معرفته الكاملة بحياة الشخص الذي يتم استجوابه، وهذا لديه مساحة محدودة للرد. من الطبيعي بالنسبة له أن يمسك بين يديه برسائلي الخاصة، لكنني كنت هادئًا لأننا لم نتبادل الكتابة إلا فيما يتعلق بعملنا.

-حضرتك كنت صديقا لها.

-صديق، زميل، ومن المريدين، قلت له. بالإنجليزية تبدو أفضل: صديق، تابع، ومعجب(*).

كانا يقومان بجمع معلومات حول الحادث الذي يشغل السلطات لعدم وجود شهود مباشرين. كانت مَيتَةً عنيفة ولم يتم استبعاد أي

(*) بالإنجليزية في الأصل. وتعمد الكاتب أن تكون التوصيفات مختلفة عن التي كتبها بالإسبانية للتدليل على هوسه بمراجعة ما يقول. (المترجم).

Twitter: @alqareah

فرضية. عرضوا عليّ صورة للسيارة. وسرعان ما أدركت أن مصطلح حادث كان شديد المطاطية، وأن الشرطة لديها فرضية أكثر تآمرية حول الموضوع. كانا يقولان، تلميحًا، إنه قد يكون انتحارًا أو اغتيالاً. ابتسم أوكونر قبل الكشف عن دهشته عندما بدا له أن الدكتورة براون لم تكن تثير الكثير من التعاطف بين زملائها. هل تحدثوا بشكل سيئ عنها؟ بعد يوم من موتها؟ بالطبع لم يفصح عن أي شيء، قام فقط بذكر معلومة للإيحاء بشيء من الثقة في الحوار معي. كل ما يمكنني أن أقول لك كان سريا لأقصى حد، قال لي (شككت في صدقية كل). عميل المباحث الفيدرالية كان يتمشى في مكتبي ناظرًا إلى الكتب ومتفحصًا بلا مبالاة الملاحظات والأوراق المعلقة بدبابيس على لوحة من الفلين أمام مكتبي. سألني إن كنت أعرف أحد معارف الدكتورة براون (أدهشتني كلمة معارف)، والذي قد يكون مفيدا لهم في البحث، من دون الإشارة بالطبع إلى أي نوع من العلاقات، وبالطبع، قلت له إنني لم أكن أهتم بالأمور الشخصية. بدا حائرا، وأنا لم أكن سأخضع للترويع، أنا من الأرجنتين، وأعرف جيدًا معنى التعامل مع الشرطة. لكن الآخر، غير الاتجاه.

ـ بروفيسور - قال لي، مخفضًا رتبتي - لدي معلومات عن تجولك في القرية فجرًا.

ـ أحيانًا لا أستطيع النوم. لكن هذا أمر غير مهم وشخصي.

-قد يكون أمرًا شخصيًا، لكنه ليس (غير مهم) - قال أوكونر ونظر إلى دفتر ملاحظاته -. لا يوجد شيء غير مهم في هذه الظروف.

Twitter: @alqareah

ببساطة كانا يقومان بالضغط عليّ قليلاً. كنت أعرف هذا الأسلوب. ومنذ تلك اللحظة لم يعد يدون ما أقول، لكنه أخذ يقرأ ما كان مكتوبًا في دفتره ويوجه أسئلة محاولاً أن أقوم بالتأكيد على معلوماته.

-ولديك أرق بشكل مستمر - نظر لي وابتسم - أخبروني - قال- إنك تعاني من بعض الحوادث العارضة. طبيبك في بوينس أيرس - نظر في ملاحظاته - الدكتور أهرست، قام بتأكيد هذه الوقائع.

قاما بالكلام معه تليفونيًا. وضيق الخناق قائلاً إنني ربما، وحسب ما فهم، كنت أقوم بالتجول قرب منزل البروفيسورة براون. كان هذا توكيدًا، وهكذا لم أرد بأي شيء. نظر لي مبتسمًا وقال إنه تمت رؤيتي ماشيا بالقرب من بيت الدكتورة براون. شرحت لهم أنني أعيش في طريق ماركهام، كما لا بدّ أنهما يعرفان جيدًا، وبيت الدكتورة براون في شارع هاريسون، وهكذا، إن خرجت للمشي، كان من المنطقي أن أعبر أمام بيتها أحيانًا.

لم يقل شيئًا. نظر إلى ملاحظاته. كان محترفًا، يريد إخباري أنهم يعرفون كل ما قد أرغب في الإخفاء، وفي النهاية قال لي إنهما قد يطلبان مني عمل فحص للتأكد من التشخيص حول تلك الحوادث العارضة أو وقائع التجول الليلي المزعومة. بدا أن هذا هو كل شيء، لكن قبل أن يخرجا، توقفا أمام الباب.

- حضرتك تسافر كثيرًا إلى نيويورك.

- كلما استطعت.

- وتقوم بالمبيت في ليو هاوس.

Twitter: @alqareah

ابتسم أوكونر ونظر في دفتره كأنه يريد التذكر. في عطلة نهاية الأسبوع في العشرين من فبراير، قال إنني قمت بعمل حجز، لكنني لم أشغل الغرفة. هل يوجد لدّي شيء يمكنني إيضاحه؟ نظرت له، من بدون رد. بشكل غريزي قمت بإخفاء قصة لقاءاتي مع إيدا، لكن من الواضح أنهما اكتشفا أنني أمضيت معها عطلة نهاية الأسبوع تلك. هل قاما بالبحث أيضًا في فندق "حيات"؟

-من المفضل ألا تترك البلدة خلال الأيام التالية. قد نحتاج إليك، قال لي.

جلست أمام الكمبيوتر وفتحت البريد. رسالة كانت تعلن عن حفل تأبين في كنيسة الجامعة.

أصدقائى الأعزاء: أكتب أليكم لأشارككم أخبارًا سيئة للغاية. إيدا براون رحلت في نهاية هذا الأسبوع. سوف يتم عقد حفل تأبين الخميس القادم، مارس ٢٢ في الساعة ١,٣٠ ظهرا في الكنيسة المشيخية في الجامعة. أفضل أمنياتي. دون دا - أماتو(*).

رحلت، ذهبت إلى حياة أفضل. في تلك اللحظة فقدت التحكم في نفسي وانهرت. أوه. نعم. بقيت في المكتب. الضوء في النافذة. الكتب. هل كان هذا ممكنا؟ لم يمكنني تخيل جسدها الجريح، اليد المحروقة، جلد العنق، أوه، نعم، بجعات الليل...

أغلقت المكتب وعبرت الطرقة وخرجت من السلم المؤدي إلى قسم اللغات القديمة. اليوم كان رائقًا ومشمسًا، أحد هذه الأظهار الشتوية التي تنقي الجو بعد العاصفة. عبرت الحرم الجامعي

(*) بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

متجهًا إلى الغابة. كان يجب أن أمرّ على بعض ملاعب التنس، بها فتيات جميلات ملابسهن بيضاء، تنوُّرات قصيرة وجوارب صوفية. لا أعرف إن كان يمكن للإنسان أن يعرف (أو يقول إنه يعرف) امرأة لأنه أمضى معها بضع ليال، لكنني كنت أعرف زخم إيدا، وهذا هو المهم. إرادة الذهاب إلى مكان من دون التفكير في العودة ولا في العواقب. لم يعد باستطاعتها الانتهاء من مشروعاتها، كل شيء انتهى فجأة. بالإضافة إلى هذا، كانت شابة صغيرة، وهذا كان محزنا أكثر. يجب أن توجد علامة تميز من يموتون من دون الوصول للشيخوخة. جلست على كرسي تحت شجرة بلوط. فجأة تذكرت حركة من يديها، إشارة بسيطة، الأصابع فوق المائدة، ولا حتى هذا، أطراف الأصابع، حركة رقيقة، آلية، عندما تكون متوترة، وهذا آلمني وأغلقتُ عيني. كانت يداها رفيعتين للغاية. فكرت، وأحسست بالدموع تتجمد في الجو الثلجي. هل كنت أبكي؟ الفتيات اللاتي يلعبن التنس توقفن لدى رؤيتي. بعد ذلك ضربن شبكات المضارب بقبضات الأيادي، شجعن بعضهن ببعض الصيحات وعدن إلى المباراة. الكرة الصفراء كانت تشق الهواء، كن يتحركن بعزم. منذ كم سنة لم أبكِ؟ فوق، حط غراب على الأفرع كأنه إشارة غامضة، نقطة سوداء في البياض الرائق للظهيرة. وحينئذ هز الغراب جناحيه وندف الثلج الناعمة سقطت على وجهي، وبعثت روحًا جديدة فيّ، كأنها تنقذني - أو تعزيني - في يوم مؤلم. لم يكن غراب إدجار آلان بو، كان غراب فروست(*). لا يمكن العثور على معنى للألم، لكن القوافي والأوزان الهادئة للأشعار التي بدأتُ في

(*) روبرت فروست Robert Frost (١٨٧٤ ـ ١٩٦٣). أحد أهم الشعراء الأمريكيين. له الكثير من القصائد عن الجليد والطبيعة عندما تدهمها الثلوج. (المترجم).

Twitter: @alqareah

تذكرها سمحت لي بالتنفس في سكينة: طريقة غراب/في إسقاط / غبار الثلج عليّ / من شجرة شوكران/أعطت قلبي / تغييرا في المزاج / وأنقذت جزءًا / من يوم حزنت عليه. لم أستطع التفكير فيها بكلمات خاصة بي. الجليد/ منح قلبي / مزاجًا جديدًا.

خرجت من الحرم ومشيت على أطراف الجيتو المكسيكي، الذي كان من قبل جيتو زنجيًا، ومن قبل جيتو إيطالي ومن قبل إيرلندي. بيوت جميلة تقليدية بشرفات مكشوفة ونوافذ كبيرة. ما زال بعض الأفرو أمريكيين العجائز يعيشون هنا، لكنهم قليلون، رحلوا والآن يعيش مهاجرون جواتيماليون ودومينيكان ومن بورتو ريكو، حتى كنيسة الحي بها لافتات تعلن عن خدماتها بالإسبانية والصلوات والترانيم تُتلى بلكنة مكسيكية. أوه ماريا، يا أمي. دخلت في الكنيسة وركعت للصلاة. فلينقذك الرب، يا ماريا، أنت المليئة بالرحمة. ثلاث سيدات سمراوات جالسات على الدكك الخشبية، إلى جانبي، كان يرتلن على المسبحة بصوت خفيض، كأنها أنشودة جنائزية. الرب معك وبوركت بين كل النساء. الصوت الموسيقيّ للصلوات كان يهدئني. إحدى النساء كانت تقول مقطعا من (يا مريم العذراء) والأخريان تردان عليها مثل الكورال. هذا هو أصل المأساة: قارئ وكورال. أي علاقة توجد بين طقوس القداس والقرابين وتقاليد التراجيديا اليونانية. فقط يمكنني أن أفكر بهذه الطريقة، مثل جريح حرب لا يستطيع الكلام عن نفسه. المذبح كان متواضعًا، مسيح خشبي معلق وبعض الأقمشة البيضاء المطرزة فوق مائدة حديدية. نهضت وعدت إلى ضوء النهار.

على مبعدة أمتار قليلة توجد (بيلوسا ترافيل)، الشركة المكسيكية التي تقوم بإرسال الأموال إلى وسط أمريكا، وتبيع بطاقات

Twitter: @alqareah

اتصالات دولية وصور لمارادونا في مونديال ١٩٨٦. شاب من أصل مكسيكي، يتحدث مع فتاة، كان يرتدي بنطلونًا منتفخًا يبدأ تحت الخصر بكثير، نظارات كليبر سوداء وقبعة بيسبول لفريق نيويورك يانكيز، وهي - بشعرها مثل عرف أحمر، كانت ترتدي عباءة من قماش أصفر مربوطة بشريط وحذاء من تكساس - كانت تضحك متمايلة وتقول تعليقات باسمة وصوتها الناعم جعلني أتذكر صوت إيدا. أول ما يُنسى ويضيع عندما يرحل شخص هو صوته، وفي ذلك المساء اتصلت مرات عديدة من تليفون عمومي لكي أسمع صوتها في جهاز الرد الآلي. "أنا إيدا براون. نحن غير موجودين ولا يمكننا الرد عليك. اترك رسالة أو اتصل في وقت آخر". كنت أحب صيغة الجمع ثم تغييرها إلى صيغة المتكلم المفرد (لا يمكنني الرد عليك). الصوت لا يزال هناك، ليتني استطيع تلفيق رسالة موجهة لي، وداع، تحية ختامية في جهار الرد الذي سيرد إلى الأبد على مكالمات من أحبها.

أتذكر أنها كانت غاضبة ذات مساء لأنه تم إنشاء برنامج للدراسات اللاتينية مخصص لدراسة موسيقى السالسا والموسيقى الريفية والجرافيتي المكسيكيين، لكن لم يهتم أحد بمن كانوا يعيشون هنا. كأن ما نُعلمه لا يمتلك أي علاقة بالحياة الواقعية. زملائي يتكلمون حول خونوت ديات، قالت إيدا، أو حول عروض فريق (لا راتا)، لكن عندما يخرجون من المحاضرات، يصبح أكلي الدهون وأكلى البهارات وأكلى البقول(*) غير مرئيين. اللاتينيون يشبهون مأكولاتهم وبواقي الطعام، قالت في ذلك اليوم، إنهم

(*) هذه التوصيفات مذكورة بالإنجليزية في النص. تطلق للتعبير عن الاحتقار للمهاجرين اللاتينيين في الولايات المتحدة. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الملوثون بالدهون، إنهم الدهون. "دهوني"، فكرت. هم من يقومون بكل شيء هنا، يعملون في مطابخ المطاعم الفرنسية وفي أقبية البارات الأيرلندية وفي محطات البنزين في الجو البارد ، وينظفون حمامات المكتبات ويزيلون الجليد من الشوارع في الشتاء. هذا ما قالته هي بذلك الصوت، أتذكر هذا. "أنا إيدا براون. نحن غير موجودين ولا يمكنني الرد عليك". صوت واضح، حاسم، دافئ، كنت قد بدأت في نسيانه.

على الرصيف المقابل، بالقرب من الجيتو في شارع وايترسبون، توجد مقبرة، بالمدافن على الرصيف تقريبا، الشواهد من زمن الحرب الأهلية، وأيضا من قبلها. أين إيمر، هيرمان بيرت، توم وتشارلي، ضعيف الإرداة، قوى الذراعين، المهرج، السكران والمشاغب؟ هذا ما تقوله شواهد القبور، بتاريخ (١٠ / ٢ / ١٧٨٩) وصورهم الفوتوغرافية، أو المنقوشة أو المرسومة على الألواح الحجرية والصناديق الزجاجية الصغيرة. وجوه شابة، وجوه مندهشة، ابتسامات هادئة فوق أسطح بيضاوية بيضاء، داخل زجاج وإطار مذهب بجانب كئوس معدنية بها زهور جديدة. أين إيلا، كات، ماج، ليزي وإديث، صاحبة القلب المرهف، والروح المتواضعة، المبتهجة، صاحبة الكبرياء، السعيدة؟ رجل طويل، بادي هادئ، يرتدي أوفرولا وحذاء مطاطيًا، كان يقوم بكنس الجليد وينظف المقابر بشوكة أسنانها مدورة. كنت أتحرك مثل شبح في الضوء الشاحب النازل من الأشجار. أين عازف الفيولين جونز، الذي خاطر بحياته في التسعين من عمره، متحديا الجليد بصدر عارٍ؟ (١٠ / ٢ / ١٧٨٩).

Twitter: @alqareah

كانت الرابعة عصرًا تمامًا في الساعة ذات الأرقام الرومانية في محل الساعات على ناصية ناساو وويترسبون. الطلاب يمشون في الشارع، الإحساس بأن كل شيء طبيعي كان يفزعني، كأنني الشخص الوحيد المضطرب في كل البلدة. لم يكن باستطاعتي غلق عيني خوفا مما يمكنني أن أرى. كانت مهووسًا بالغرفة الخالية في الفندق حيث كنا سنلتقي في تلك الليلة. كانت ميتة، ورغم هذا... الرغبة الجنسية هي ما تقلب الحياة وتغير أي موقف. لم أنم مع أحد بنفس هذه الحدة. هل كان هذا؟ فقدتها. وغرفة الفندق هذه الليلة؟ الكتلة المضاءة لـ «حيات» في وسط الطريق الفارغ.

عندما وصلت إلى البيت كان الوقت ليلاً، العتمة تهبط مثل ستارة ثقيلة على النوافذ. أشعلت التليفزيون. كانوا يقومون بتصنيع جواهر، كنت أرى فقط الأيدي والحلي التافهة. هناك من يتصل بالتليفون ويقدم عروضًا. في السادسة والنصف بدأت الأخبار المحلية. على الشاشة يُعرض شارع هاريسون وبيت إيدا. حادث مروري تسبب في موت بروفيسورة شهيرة. وفي تلك اللحظة أدركت أن شخصًا ينقر على الزجاج. كانت نينا، جارتي الروسية. لم تكن تمتلك تليفزيونًا وكانت تريد أن تعرف ما حدث لهذه الفتاة التي ماتت. لم تقابل إيدا لكنها تعرفها، شاهدنا الأخبار الوطنية لبعض الوقت. هناك كانت التفاصيل أكثر، وتحدثوا عن النقاط الغامضة في التحقيق. الشرطة كانت تستجوب معارف البروفيسورة براون. التوقعات الأولية تشير إلى أنه كان حادثا، السيارة كانت تفقد وقودا وشرارة سببت الانفجار. رغم هذا، كان بعض المراقبين يربطون بين هذه الوفاة وبين الاعتداءات الغريبة التي تمت في مناطق مختلفة من البلاد، وقضت على حياة الكثير من العلماء والأكاديميين.

Twitter: @alqareah

الشرطة لا تستبعد أي فرضية. أطفأتُ التليفزيون ونهضت لأعرض على نينا كأس نبيذ.

-الشرطة جاءت وسألتني عنك. يفعلون هذا لأنهم يريدون أن تعرف أنهم يقومون بالضغط عليك. أنت لم تقتلها يا عزيزي، أليس كذلك؟ قالت نينا مبتسمة لكي تخفف التوتر.

قلت لها إن لديّ شعورًا بالخطر.

- خطر؟ أي نوع من الخطر؟

- إن أمكننا تحديده لن يصبح خطرًا.

أخذت تضحك وفجأة، كأن هدوءها ومرحها يدفعانني، حكيت لها الحقيقة.

- كانت لي معها مغامرة في نيويورك لكننا احتفظنا بهذا الأمر سرًا. وأعتقد أن الشرطة تعرفه.

- شخص ما رآكما معًا، ربما في القطار، وحكى هذا... لن يسجنوك لأنك ذهبت إلى الفراش معها. ربما كانوا يراقبون التليفونات ولم يكن من الصعب عليهم تحديد مكالماتك. الشرطة تعرف كل شيء عن الجميع، وهم يريدون أن يعرف الفرد أنهم يعرفون كل شيء.

أخذت تضحك من قلبها. كانت معتادة على الأسباب العجيبة التي تستخدمها الشرطة لتفسير ما لا يفهمه أي شخص. ولدتْ في موسكو ١٩٢٠ ورحلت عن روسيا في نهايات ١٩٣٨، قبل قليل من اعتقال أبيها. ولأنه كان عاشقًا كبيرًا للفن الشرقي، أرسله ستالين إلى معسكر اعتقال بتهمة الجاسوسية لليابان.

Twitter: @alqareah

كانت نينا تعتقد أنه قد يكون اعتداء إرهابيًا مدبرًا لكي يبدو حادثًا. الكي جي بي كانت تقتل المنفيين والمتمردين الذين يعيشون في الخارج وتتظاهر أن الأمر كان حادثا. لكن، من كان يريد قتلها؟ في معهد الدراسات التجريبية، انتشرت أقاويل منذ شهور حول سلسلة من الاغتيالات في الجامعات. منذ شهرين قتلت رسالة مفخخة عالم بيولوجيا في يال. يوجد جو من القلق، لكن لا أحد يمكنه تحديده. ومن الواضح أن (إف بي أي) كان يفضل ألا تنتشر الأخبار لتفادي الرعب. الأخبار في النشرات كانت مراوغة: يُحتمل، يُقال، يُعتقد. لا شيء محدد.

تكلمتُ لفترة ووجدتُ أنني كنت شاردًا، وظنت أنني بحاجة للراحة. تعال إلى البيت عندما تريد التحدث قليلا، قالت، وابتسمت بإيماءة ودود. كانت تمشي برشاقة وخطوات قصيرة. أي شيء أحتاجه، كنت أعرف، كانت أرملة وتقضى ساعات كثيرة بمفردها، وستسعد بالحوار وتناول الشاي، في بيتها، عندما أريد.

الحياة في صيغة الغائب كانت شعار شبابي، لكنني الآن كنت أتوه في الدوامات الحقيرة للذكريات الشخصية. أفضل شيء أن أستحم وأجلس للعمل، قلت، وانتبهت إلى أنني كنت أتكلم بصوت عال، ولم أكن أتحدث بمفردي فقط، لكنني كنت أتكلم ناظرًا إلى نفسي في مرآة الحمام. مهرج عار، لم ينم جيدًا. الدش كانت به ذراع تتحرك إلى اليمين للمياه الساخنة وإلى اليسار للمياه الباردة، وكان من الصعب عليّ أن أضبط درجة الحرارة، أحيانًا كنت أحترق، وأحيانًا كنت أشعر بأمطار مثلجة، لهذا خرجت من البانيو وجففت جسدي بقوة، أمام مرآة الحمام، كأنني أمثل دور رجل قوي يدلك نفسه

Twitter: @alqareah

بالمنشفة. كنت مضطربًا إلى حد ما، هذا كان حقيقيًا. غيرت ملابسي، لأن الملابس النظيفة تشعرني دائما أنني أفضل. جوارب ناعمة، لباس مكوي، قميص نظيف. المرأة التي تأتي لتنظيف بيتي مرتين في الأسبوع كانت "مبللة الظهر" كما يطلق على من عبروا النهر بشكل غير شرعي، من دون أوراق. كانت مكسيكية، اسمها "أنكارناثيون" وتقول إن الحياة هنا (في الشمال) تشبه الوجود في قفص من الذهب. كان أبواها يعيشان في أواكساكا، وفي أعياد الميلاد كانت ترجع لقريتها، ثم تعود للعبور خلسة. أحيانًا كانت تأتي ومعها (ذئب أمريكي)، وذات مرة عبرت من كاليفورنيا. كانت دائمًا تفكر في شرطة الحدود وتتحدث عن "شرطة الهجرة" كأنها ساحرة مشعثة الشعر، بنظرات ثاقبة لا تتركها في حالها. ذات مساء جاءت باكية لأن السيدة (الجرينجة)(*) صاحبة البيت الذي تعمل به يوميا، قامت بإهانتها أمام (الناس الغرباء). كانت تمسح دموعها بكف يدها، كانت امرأة بلا عمر محدد، قد تكون في الرابعة والعشرين أوفي الثانية والأربعين من عمرها، حسب ابتسامها أو تجهمها، وبعد أن جففت دموعها بدا أنها تماسكت، وقالت لي إن لديها كبرياء أيضًا، وبابتسامة فتحت معطف العمل وأشارت إلى قميص ترتديه تحته، عليه وجه تشي جيفارا مطرزًا على القماش، على الطريقة القديمة للصور الشعبية أو نجوم المصارعة الحرة المكسيكية. روّحت عن نفسها، للحظة، تلك المرأة البدينة قصيرة القامة، ذات العمر غير المعروف، بهذا الوجه الأزتيكي الذكي، وصورة جيفارا تحت معطف العمل. قالت لي إنه (تي شيرت) تصنعه يدويا عاملات

(*) مصطلح يطلقه المكسيكيون وأبناء أمريكا اللاتينية على الأمريكيين خصوصًا والأوربيين عمومًا. (المترجم).

Twitter: @alqareah

النسيج في مونتيري، ويبيعه أحد مواطنيها الذي كان يعمل في محطة بنزين لورانيسفيل.

تذكرت هذه القصة لأنني أيضا كنت بحاجة للقوة لكي أتحمل ما سيحل بي. يجب أن أستمر، البكاء خفية، محو الظهور المستمر للصور: سيارة إيدا معزولة خلف أشرطة الأمن الصفراء في ناصية بايارد لين، قرب سور بالمير هاوس، وهو ما رأيته في التليفزيون. طريقتها في الدخول إلى الغرفة؛ الحركة الخفيفة لفتح المعطف الواقي من المطر لكي تريني ما ارتدته في تلك الليلة. يجب أن أتوقف عن التفكير، فكرت في هذا، وبدأت في ترجمة قصيدة روبرت فروست ، ربما يساعدني إيقاع الأشعار على التنفس بشكل أفضل Frost [١] صقيع، الثلج، البرد في العظام، برودة كالحجر، برودة كالرخام، برودة الأموات Frost تعني أيضًا الهش، سهل الكسر، الضعيف، الرقيق، طبقة من الجليد المتشقق، غير مرئية. Dust of snow[٢] ندف الثلج، أو بلورات ثلجية، غبار جليدي لا تبدو معنًى جيدًا، كريستال جليدي، غبار جواهر، إبر ثلجية، snow cristal، بلورات ثلجية صغيرة، ضباب جليدي، غبار ثلجي. The way a crow الطريقة، الأسلوب الذي قام غراب به، طريقة غراب/ Shook down on me، أسقط على رأسي، جعله يسقط على رأسي، هز فوقي / The dust of snow غبار الجليد/ From a hemlock tree من تلك الشجرة، من شجرة الشوكران، من شجرة شوكران/ Has given my heart

(١) المقصود به الاسم، وليس اسم العلم. (المترجم).

(٢) تقوم الشخصية الروائية بكتابة مقاطع قصيدة روبرت فروست بالإنجليزية، والترجمات المحتملة لها بالإسبانية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

أدخلت في قلبي، منحت قلبي، قامت بمنح قلبي/ A change of mood تغيرا في المزاج، مزاجًا مختلفًا/ مزاجًا جديدًا/ And saved some part وأنقذت، احتفظت بجزء، مُنقِذَةً جزءًا/ Of a day I had rued من يوم حزين، يوم مؤلم، من يوم مؤسف.

ربما تكون أفضل بصيغة الشخص الغائب: ندف الثلج التي قام غراب بهزها، من فوق شجرة، سقطت عليه، وأدخلت على قلبه روحا جديدة، رغم أن حياته كانت محطمة(*).

استلقيت على الفراش. وفجأة تذكرت ما عشته عندما مات أبي. ما فعلته عندما ماتت أمي. وتذكرت مغنية الأوبرا التي فقدت صوتها. A change of mood تغير في المزاج. تمنيت ألا أمضى الليلة مستيقظا. أتمنى أن يكلمني الوسيط مرة أخرى، فكرت. غبار الكوكايين. غرفة الفندق، الستائر المسدلة. الرجال المرتدين بذلات غامقة يُظهِرون تحقيق الهوية في الاستقبال، يوجهون أسئلة. الحجرة كانت محجوزة. كنت بحاجة لَمخرَج. ومَن لا يحتاجه؟ كان منتصف الليل تقريبًا في الأرقام المضيئة على ساعة الكومودينو، كنت متجمدًا، كأنني تحت الماء، في أعماق البحر، كما يقول المقامرون عندما يخسرون كل شيء. هل يوجد كازينو في الفندق؟ إيدا على الناصية، بمعطفها الرمادي، تدخن، عندما تحركت رأيت فخذها. لم أستطع الانتظار ولا النوم. نزلت إلى الجراج لإخراج السيارة، كانت الشوارع مهجورة، قرية ميتة، رجل شرطة كان يجوبها بسيارة صغيرة، يراقب بها تجاوزات المرور، خلفته ورائي وبعد بعض التفريعات دخلت على الطريق السريع الذاهب إلى نيويورك. طبيعة

(*) ترجمة لرؤية الشخصية الروائية لقصيدة فروست. (المترجم).

Twitter: @alqareah

خالية، الأنوار البعيدة لبار، لافتة مضئية على الطريق، مطعم (تاكيتوس)، كشك أمن فارغ، لا توجد أي سيارة على الطريق. للخروج من الطريق رقم واحد يجب الدوران بعد ميل وصعود الكوبري للدخول في هولاند بارك، والنزول إلى ساحة انتظار السيارات في الفندق. كان رقم حجز الغرفة معي وضغطت ٣٤١ على لوحة ساحة الانتظار، وارتفع الحاجز سامحًا بالعبور. كان الصعود للساحة في دوائر وفي النهاية تركت السيارة في الطابق الثالث، في أحد الجوانب، بين خطين أبيضين، برقم الغرفة مكتوبًا على الجدار.

في الاستقبال قام رجل زنجي بالتأكد من الحجز، نظر من دون اهتمام إلى بطاقة هويتي وسلمني المفتاح، لم تكن بطاقة مغناطيسية في هذه المرة. طلبت من البارمان أن يحضر زجاجة ويسكي إلى الغرفة. لم تكن كالمرة السابقة، تبدو أكثر قدمًا، أو أكثر فخامة، بستائر مخملية حمراء على النوافذ. جدران مزينة بمشاهد صيد، أثاث محايد، تجاويف تكييف الهواء. التليفزيون، خزينة بالأرقام، بار صغير به زجاجات صغيرة، وسرير كبير، غطاء الفراش أحمر. كل شيء في نفس المكان، من الواضح أن المعماريين يعملون على تصميم موحد لكي لا يتوه الزبائن الدائمون، ويعرفون مكان الحمام أو مفتاح النور في العتمة. أحضر لي الجرسون الويسكي ومعه كوبين. هل أنت بمفردك؟ يا زميل، ناداني هكذا، ولم أحب نبرته الحميمية، لدينا خدمة مرافقين. أعطيته عشرين دولارًا وأعطاني رقم تليفون. ردّت عليّ امرأة بصوت حذر. كيف تريدها؟، قالت لي، المتاحة، قلت لها. كلهن متاحات. شقراء، قلت. لدى حضرتك على الإنترنت صور، يمكنك الاختيار، سأعطيك كلمة المرور. لا حاجة لهذا، قلت لها،

Twitter: @alqareah

فتاة شقراء. إذن جاستين، تقول لي. ماذا؟ جوستا، اسمها جوستا. اسم كأي اسم. سوف أنتظرها. يوجد صوت مياه في جدران الغرفة، كأن التدفئة تعمل بكل طاقتها في المواسير. بعد قليل رن الجرس. الفتاة كانت شقراء بلاتينية، ملابسها سوداء، بكعب عال. وجه نصف آسيوي، بقايا أمطار متجمدة على شعرها. أنا جوستا، تقول لي، (الشقرا). شكرًا على اختياري، تقول، وتداعب فمي بإصبعين كأنها تقوم برسم شفتي. كانت تتحدث بصوت أنفي، وجهها طفولي. عيناها سوداوان وجميلتان، إحدى عينيها حية والأخرى جامدة ، ويدها اليمنى تبدو مصنوعة من معدن أبيض، وتغطيها باستمرار بكُم البلوزة الحريرية التي ينقص أحد أزرارها في المعصم. كنت سآتِ قبل الآن إن لم يصعب عليّ العثور على المخرج من الطريق السريع، تقول. كانت تستخدم (زمن الماضي المركب) (*) بصيغة شرطية، وبنيتها للجملة كانت غريبة، لأن هذه الصيغة الفعلية موجودة في الإسبانية، لكنها لا توجد في الإنجليزية. هل توجد في الإسبانية ولا توجد في الإنجليزية؟ فكرت أننا إن واصلنا التكلم، سيصبح الأمر أسوأ. حينئذ ذهبتُ إلى الحمام "لكي أرطب جسدي"، كما قالت بطريقة بدت لي مثيرة للضحك وراقية في الوقت نفسه. لم أدفع إلى امرأة من قبل مطلقًا. يمكنني أن أقول إنني جئت بحثًا عن (عاشقة) في الفندق، وأنني أتيت في المرتين السابقتين أيضًا للسبب نفسه. سوف يكون هذا مخرجا مثل أي مخرج آخر. أشعر أنني وحيد، يمكنني أن أقول لهم،

(*) Pluscuamperfecto باللاتينية Plus quam perfectum. (المترجم).
زمن لتصريف الأفعال باللغة الإسبانية، ويستخدم للتعبير عن حدثين في الماضي، أحدهما يسبق الآخر. وفي هذه الحالة استخدامه بشكل شرطي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

أنا غريب، قادم من بوينس أيرس. لكنهم كانوا يعرفون هذا بالفعل. كانت الدفء ينعسني. فَتَحَتْ الفتاة باب الحمام وكانت عارية لكن بالكعب العالي، وسط الباب، تحت الإضاءة القوية. هل أعجبك؟ قالت بالإسبانية. كانت لديها ندبة حمراء على بطنها، والعانة محلوقة. نهضتُ واقتربت منها. كان هناك غراب حي فوق الكومودينو. أدخل منقاره تحت الجناح بعين حية ناظرة عليّ... كانت ٥,٣٠ صباحًا في الساعة المضئية. على الأقل يمكنني الحلم، فكرت، واستيقظت، مستلقيًا على ظهري في الفراش، غارقا في العرق. هل يمكن أن أكون قد حلمت بها؟ لم آكن أتذكر الحلم، شذرات فقط، الحجرة ٣٤١ امرأة شقراء. ماذا كنت أفعل هناك؟ الحلم مُحيَِ لكن الشعور كان بالقذارة والخوف. اقتربت من النافذة. كانت الشمس تشرق. في آخر الحديقة المجاورة رأيت نينا تعتني بنباتاتها، الهواء الذي تطلقه في الزفير كان ضبابًا في الهواء الشفاف. شعرت أنه في الخلف، فوق المائدة في آخر في الغرفة، كان الغراب يحلق بجناحيه.

Twitter: @alqareah

ـ ٢ ـ

الجارة الروسية

Twitter: @alqareah

Twitter: @algareah

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

الآن، عندما أتذكر تلك الأشهر، أفكر أنني إن كنت قد احتفظت بقواي العقلية إلى حد ما، كان بفضل نينا أندروبوفا، جارتي الروسية. حواراتي معها كان لها أثر مهدئ، كأن نينا تتحرك بسرعة أخرى، لا علاقة لها بالمستجدات اللحظية. كنت أعود مرة وأخرى إلى لقاءاتي مع إيدا، وإلى الظهيرة الذي رأيتها فيها للمرة الأخيرة في طرقات القسم، وكانت هي قد ابتعدت بالخطابات في يدها اليسرى وحقيبة قماشية على الكتف. هل كانت اليسرى؟ لكنها إن كانت عسراء، لماذا كانت اليد اليمنى، حسب الرسم التخطيطي الشرطة، هي التي تنحني للبحث عن شيء في أرضية السيارة؟ أوه، يا عزيزي، كانت نينا تقول، لن تفهم ما حدث بهذه الطريقة.

يبدو أن الحوارات مع نينا كانت مُقَدَرَةً لإخراجي من الظلمات الدوستويفيسكية التي كنت قد غرقت فيها. كأن قصة حياتها، التي كانت تحكيها في دفقات، وحوارها الشيق يجعلاني أتذكر الأوقات

Twitter: @alqareah

القديمة، الاجتماعات حيث الحديث في السياسة في غرف مليئة بالدخان، الفتيات المتقدات بالحماس اللاتي كنت يتطوعن للعمل في الأحياء العمالية، وكن يخططن لثورات ستقوم بتطهير العالم؛ كل هذه الروعة تبدو حاضرة في صوتها الموسيقي الهادئ.

في تلك الأيام كنت أستمع إلى كلمات في الشارع، وأعتقد أنهم يتحدثون عني ("كانت ترتدي ملابس رزقاء"). كنت أعيش في عالم لكل شيء فيه معنى سري، وكل لفتة أو تفصيلة لها أهمية لا يدركها سواي. نينا كانت تستمع لي بصبر وتغير الموضوع، كأنها تريد فقط مساعدتي على مداواة جراحي، وعلى مواصلة الحياة. كانت كريمة. وتعود مرة وأخرى إلى السنوات الروسية، كأن تقول، نحن عشنا أوقاتًا عظيمة ومآسي كبيرة، خطابات مشتعلة بالحماس، وقمعًا جماعيًا قام به أبطالنا الثوريون؛ الأمور الشخصية لم تعد تسبب المعاناة، لأن لا مكان لها في القلب. أمها ذهبت لتعيش في قرية بائسة في سيبيريا لكي تكون بالقرب من معسكر العمل حيث سيموت أبوها. نحن أيضا، قلت لها، قام التاريخ والرعب بجرفنا، ويمكنني أن أفهم عما تتحدثين. أوه، نعم، يمكن فهم كل شيء، عدا العنف الثوري ونشوة الانتصار، قالت لي بينما تضع بعناية سيجارة في المبسم الأبيض، كأن الحفاظ على رئتيها بهذه الطريقة له فائدة. كان عمرها ثمانين عامًا تقريبًا، كانت أقرب للموت أكثر مما يمكن التخيل، ومع هذا كانت تتحرك بحماس، من دون أن تخبو شعلتها.

عاشت نينا في فرنسا خلال الحرب والاحتلال الألماني، حيث كانت تعمل مربية أطفال في دوائر كُتَّاب مجلة "نوفيل ريفيو فرانسيه"، (قامت برعاية وتربية أبناء جون بولان) بينما كانت تكتب

Twitter: @alqareah

رسالتها حول سنوات شباب تولستوي، تحت إشراف نيكولاي بيرديف. في ١٩٥٠رحلت عن باريس، وجاءت إلى الولايات المتحدة. رحلت لأنني لم أحتمل جو اليسار الفرنسي بعد التحرر، مع سارتر وأراجون وسلطويين آخرين كانوا يدافعون عن القمع في روسيا بحجة أن البلشفيين الأوائل خدموا العدو فعليا بعض النظر عن نياتهم، تحكي نينا. كتب سارتر في نهاية "سان جينيه" أن نيكولاي بوخارين، المفكر الكوزموبوليتاني اللامع، ومُنَظِر الحزب الشيوعي، لم يكن ضحية لستالين، وإنما خائن للثورة، تمت معاقبته بشكل عادل بعد اعترافه. قاموا بتعذيبهم، وكانوا سيطلقون عليهم الرصاص وأجبروهم على الاعتراف بجرائم عبثية. كان من الصعب الانتماء لليسار في تلك السنوات، والآن أيضًا، قالت نينا. (لكنني روسية يا عزيزي، ومن المستحيل أن أكون إصلاحية)(*)، وكررت الكلمة الأخيرة التي نطقتها بالروسية. ما زالت تعتقد أن القيصر وبلاطه كانوا مسئولين عن كوارث روسيا، وأن الثورة كانت نارا دمرت أبطالها في البداية وبعد ذلك أرعبت كل الشعب. في ذلك الفجر، عندما أخذت القطار إلى فنلندا، أدركت أنها تترك عالمًا كاملاً خلفها، مع صورة أبويها في الضوء الشاحب على الرصيف الخالي. منذ غادرت روسيا عاشت بطعم رماد المنفى في حلقها.

وصلت إلى نيويورك وفي جيبها سبعة وخمسون دولارًا، نسخة من الجزء الأول من كتابها عن سيرة تولستوي الذاتية، والقرار بالبدء من جديد. تتذكر الهيئة المهيبة لألكساندرا تولستوي، ابنة الكونت، التي كانت تدير مؤسسة مخصصة لمساعدة المنفيين السوفيتيين القادمين إلى أمريكا. بصبر نافد خلف الحاجز، على

(*) بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

رصيف الميناء في نيويورك، كان شرطيو الهجرة يعطلون نينا بأسئلة مهينة، بينما يأخذ الرصيف في الخلو، حتى استطاعت في النهاية العبور بينما تجر الحقيبة التي تحوي أشياءها القليلة.

قامت نينا بالعمل في كل الوظائف التي لا يمكن تخيلها، ولا بد أنها تعذبت طوال عامين حتى استطاعت الحصول على وظيفة مدرسة للغة الروسية في مدرسة بنيوجيرسي. في ١٩٦٠نشرت الجزء الثاني من عملها الضخم "تولستوي الروائي" وحصلت على كرسي الأدب في قسم اللغات السلافية في الجامعة. هناك عرفت زوجها، عالم الجغرافيا الروسي ألبرت أوستروف، الذي كان يدرس طبوغرافيا البراكين في القمر ، في المعهد الأسطوري، معهد الدراسات التجريبية. لكن معشوقها إلبرت مات، وهي الآن وحيدة، متقاعدة عن التدريس، ومنغمسة في كتاب لا نهاية له حول السنوات الأخيرة لتولستوي.

كنا في بيتها، في حجرة عملها، بنوافذها العالية المطلة على الحديقة. بدأت نينا في التمشية في الصالة المليئة بصور وأثاث قديم، وموائد فوقها كتب وأوراق. أسوأ شيء بالنسبة لها عدم وجود أحد تتكلم معه بالروسية. كانت تكلم نفسها، وأحيانًا كانت تقرأ بوشكين للأسماك الصامتة التي تهز ذيولها الطويلة في الحوض الدائري. منذ فترة جاء عالم رياضيات روسي إلى المعهد، قالت لي. لكنه كان يرفض الكلام بالروسية وكان يتواصل مع الجميع بإنجليزية ركيكة. نينا تدبرت أمرها لكي تدعوه على الغداء في مطعم الجامعة، وذهبت مستعدة للحوار، لكن عالم الرياضيات كان شديد الصمت، لدرجة أن نينا شعرت أنها بلهاء طوال الغداء. وفي نهاية الطعام، نهض عالم الرياضيات وقال بالروسية بصوت

Twitter: @alqareah

مضطرب: "هل تؤمنين بالأرواح". وذهب عابرا الصالة بخطوات واسعة.

ترى نينا أن الميل لنزع البساطة عن المشاكل عبر (تعبير غامض) كان أمرًا شديد الروسية. ربما هذه الروحانية هي أكثر ما أفتقد، قالت نينا، وأخذت تضحك. فقرات طويلة شبه فلسفية وغير مفهومة لكنها مشوّقة للغاية، أو كلمة واحدة غير متوقعة تغير مسار الحوار العادي. عندما يتوقف المرء عن الكلام بالروسية وبعد ذلك يسمع الروس يتكلمون، لا يفهم شيئا. أكثر تعليقاتهم دقة وتحديدًا كان يحمل دائمًا إحالات غامضة تبدو غير مفهومة. النتيجة النهائية لهذا النوع من الرسائل، بعيدا عن الدقة في صياغتها، كانت الارتقاء بالمعنى بعيدا عن الاستخدام اليومي، فتختفي الدلالة تماما. هذا يفسر ميل الكتّاب الروس - من جوجول حتى دوستويفسكي وسولجنيتسين- إلى التبشير والدخول في تأملات دينية. اللغة نفسها تحملهم إلى هذه الأعماق، قالت مبتسمة نزوع اللغة الروسية إلى التعبيرات الصوفية هو نوع من العيب الأنطولوجي الذي لا يظهر في لغات أخرى إندوأوربية. أفعال الحركة والإدراك الحسي عندما تستخدم في التواصل تصبح شديدة الاتساق في اللغات السلافية. المشكلة الجوهرية في الروسية هي عدم وجود مصطلحات روسية لأنماط التفكير والمشاعر الغربية. كل شيء عاطفي، وحاد. لا يمكن أن يقال مساء الخير من دون أن يبدو كتهديد. لهذا تصعب كثيرًا الترجمة من الروسية، ونابوكوف سقط في هذا المستنقع في ترجمته الكارثية لبوشكين. كان متعاليًا، وعاطفيًا وأعتقد أن الترجمة الحرفية ليوجين أونجين يمكن أن تنقل الحالة الشعورية في الشعر الروسي.

Twitter: @alqareah

مستحيل، يجب القراءة بالروسية لسماع هذه الموسيقى الصوفية الغامضة. تولستوي، قالت بعد ذلك، هو أكبر كتابنا لأنه حارب هذا الوهن في اللغة، وفي هذا الصراع، قالت نينا، اكتشف ostranenie هذه الكلمة السحرية لا ترجمة لها، يمكننا أن نقول (قطيعة)، (غربة) أو حتى (غموض) كما يقول فرويد، أو (جفاء). انحراف يغير المعنى العادي لكي يكشف عن الوجه المضيء للغة الروسية. تولستوي استخدمه، وجلعه مرئيًا. كان قاصًا غير عادي، وأسلوبه صعب، لا أناقة به، وتم انتقاده، واتهمه كثيرون بالكتابة بشكل خاطئ، وكان يكتب بشكل خاطئ - لم يكن تورجينيف - لأنه كان يسعى إلى علاج المرض الأبدي للغة الدارجة. قام بتغيير طريقة الكتابة في اللغة الروسية. من دون تولستوي لم يكن ماندليستام قد ظهر، ولا أخما توفا، ولا سكلوفسكي. قام بتجسيد هذه الطريقة، هذا الضوء، هذه النظرة الناعمة، التفاصيل البصرية التي تقال من دون الشحنة الروحية.

عندما كان يناضل ضد عقوبة الإعدام، كتب تولستوي مقالاً حول إعدام فلاح فقير متمرد. منصة الإعدام، الجلاد، الوجه الشاحب للشخص الذي كان ينتظر الشنق، الموقف المثير للغثيان. تولستوي، بخلاف أي كاتب مقالات آخر، توقف أمام وصف الخادم الذي كان يحمل دلوا به ماء وصابون، لكي يبلل حبل المشنقة، وبهذا ينزلق بسهولة أكبر على عنق الضحية. هذه التفصيلة تلغي أي بُعد ميتافيزيقي، وتنقل الشعور بالرعب في عملية الإعدام أكثر من أي مبالغات عاطفية على طريقة دستويفكسي حول المهمشين والمظلومين.

Twitter: @alqareah

كانت نينا تدخن وتشرب الشاي، سيجارة تلو الأخرى، فنجان مائل للخضار تلو الآخر من السامفوار الفضي. وقفت بجانب النافذة وكان الضوء ينير شعرها القريب للزرقة. تولستوي ناضل ضد العمق الشيطاني الوحشي للغة الأم، واصفا التفاصيل الصغيرة التي كانت تعيش تحت قشرة ميتافيزيقة، وبهذه الطريقة تفادى شرك العمق الديني الغامض للغة. تلميذه الحقيقي كان ويتجشتاين. ما لا يمكنه قوله، لا يقال.

كانت قد توقفت بجانب النافذة وصمتت، كأنها تعبر بالصمت عما تريد أن تقول لي. ضوء الشتاء كان يدخل ناعمًا عبر النافذة. السناجب كانت تجري من جانب إلى آخر فوق الأرض الجليدية في الحديقة بحثا عن طعام.

- هنا تكثر السناجب لعدم وجود كلاب مطلقة السراح - قالت نينا -. يجب استيراد كلاب ضالة.

ـ ٢ ـ

لم أستطع التوقف عن التفكير في الغرفة الخالية في الفندق، في الروح المحايدة للأشياء والأثاث، في منديل إيدا الخفيف، الذي يغطي الأباجورة بظل محمر. هوس بالفنادق! كانت تخرج عارية من الحمام، العانة المشعرة، الفخذين الناعمين. ذات ظهيرة، كنت مهووسا بتلك الصور التي كانت تعود بنصوع الأحلام، فأخرجت السيارة من الجراج، وقمت ببعض الجولات في القرية، عبرت الغابة، وأخذت الطريق رقم واحد لكي أعود إلى فندق حيات. في البار كان عازف البيانو يواصل عزف مقطوعات إيلينجتون (سويت جورجيا براون)، وصعدت إلى الطابق الخامس، وأمضيت الليلة في

Twitter: @alqareah

غرفة تشبه كل الغرف. لا يوجد مكان آخر، حيث يمكنني أن أشعر أنني في أمان، وربما، كما فعلت مرات كثيرة في شبابي، إن أقمت في تلك الغرفة الغريبة ربما يمكنني البدء في الحكاية التي يصعب عليّ كتابتها. هناك بدأت في العمل في تلك الملاحظات، محاولاً ملء الثغرات وتسجيل كل التفاصيل والذكريات، لكي أعطي معنى لحياتي في تلك الأيام (النموذج المتكرر المحايد لغرفة في فندق). كنت أشعر بالهدوء عندما أفكر أن هذا قد يصبح مخرجا، إن قامت الشرطة باكتشاف حجوزات فندق "حيات" سأقول لهم إنني كنت أذهب من وقت إلى آخر إلى الفندق وأنعزل للكتابة.

وهذا ما فعلت. وضعت المائدة أمام النافذة المطلة على الطريق، كنت أرى السيارات تمر، في الأسفل، مثل الخنافس المضيئة. كل شيء كان مرتبطًا بإيدا، بذكرى لياليّ معها وبحواراتنا، حتى إنني أتخيل أحيانا أنني أسمع صوتها وأرى جسدها العاري أمام المرآة؛ تلك هي الصور التي كانت تطاردني منذ أسابيع. أخذت أكتب حول المكالمة الأولى في ديسمبر، عندما عَثَرت عليّ في بوينس أيرس، بعد أيام لم تعرف خلالها أي شيء عني.

في الفجر عدت خفية إلى القرية، قائدًا عبر الطريق السريع حتى تفريعة ملف طريق واشنطن بالشعور نفسه بالغربة الذي كان ينتابني عندما أعود من لقاءاتي مع إيدا براون. يمكن للمرء أن ينسج حول نفسه خيوط عنكبوت محاولاً أن يبرر أفعاله، وهذه الخيوط هي التي قد تقوم بخنقه في النهاية.

في منتصف مارس عدنا إلى الكورس بعد أسبوع من دون محاضرات إجازة منتصف التيرم. كل شيء يبدو في حالة غريبة لا

Twitter: @alqareah

واقعية، كأن غياب إيدا يجبرنا على التظاهر بأن شيئا لم يحدث. مجموعة من طلاب الدراسات العليا بقيادة جون الثالث قاموا بالتوقيع على خطاب موجه إلى إدارة الجامعة، يطالب بتوضيحات حول قضية البروفيسورة براون، لكنهم ردوا بأن الأمر في يد العدالة، وأن الشرطة قامت بإغلاق القضية تحت عنوان (موت مثير للشكوك في حادث). هذا يعني، أنه في حالة وصول الشرطة لمعلومات جديدة، يمكن فتح التحقيق من جديد، لكنه كان أيضًا يلمح إلى إمكانية أن يتعلق الأمر بالانتحار. التصريح أثار غضب الطلاب والزملاء أيضا. كان من المستحيل تخيل إمكانية انتحار إيدا، وكنت أعرف جيدًا أن هذا التلميح لا علاقة له بحقيقة الأحداث. انتشرت أكثر من رواية في الطرقات، لكن اليوم، لدى إعادة قراءة ملاحظاتي عن تلك الفترة، يتأكد لي أن نينا كانت أول شخص تكهن بحقيقة ما حدث. بعض الأخبار المبعثرة في الصحف سمحت بتخيل سلسلة من الوقائع الغريبة، يمكن أن تضم موت إيدا بينها.

وفقًا لما قالت، منذ أسابيع قليلة، مات أستاذ من جامعة يال في ظروف مريبة، وكان مشهورا بأبحاثه حول البيولوجيا الجزيئية. (أي علاقة يمكن أن توجد بين تلك الوفاة وبين حادث أستاذة في الأدب الإنجليزي متخصصة في كونراد؟) .

ربما كان أساتذة الجامعات يقومون بقتل بعضهم بعضًا؟ كانت نينا تقول ساخرة. عندما كانت تعيش في روسيا تعلمت فضيلة السخرية. كانت نينا تعرف العالم الأكاديمي جيدًا، كانت تعتبره غابة أكثر خطورة من أدغال فيتنام. أناس في غاية الذكاء وشديدة التهذيب، تحلم ليلا بانتقامات رهيبة. قامت بالمرور على كل محطات ما يطلق عليه السلك الأكاديمي، وتعرف الأحقاد والكره

Twitter: @alqareah

المنتشرين في أقسام الجامعات حيث يتعايش الأساتذة خلال عقود. ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ يجب أن ننتظر، المعلومة الوحيدة الأكيدة المتاحة هي خطابات البروفيسورة براون، التي قامت باستلامها من صندوق البريد. هل يمكن الحصول على قائمة بالمخاطبات التي وصلت في ذلك اليوم إلى مكتب بريد الجامعة؟ إن حصلنا على هذه المعلومات، قالت نينا، يمكننا أن نعرف من كتب لها، من هم مرسلو الخطابات. هل كان هناك صندوق في يدها، هل كانت هناك لفافة؟ ألا أتذكر؟ ربما ظرف من (يو بي إس) أو (فيدكس)؟ كانت تتحمس وتصيغ تكهنات وفرضيات تدور حول الدقائق التي تلت خروجها من الاجتماع، دخولها مكتب القسم، حوراها مع سكرتيرة الدراسات العليا ولقائها معي. في أي ساعة؟ إذن، إن كان الحادث وقع في السابعة مساءً، فقد حدث كل شيء في عشرين دقيقة. كثيرا. كثيرا ما تنفجر القنابل الزمنية عند قطع الورق الذي يغلف العلبة أو الكتاب المجوف حيث تم تركيبها، قالت.

أحيانًا كانت تُحبط. ماذا يمكن أن يعرف شخص عادي، كانت نينا تقول، مهما كانت درجة ذكائه؟ الألغاز المتعددة في معلومات محورة عمدًا، الروايات والروايات المضادة، هي المكان المظلم حيث نتخيل ما لا يمكننا أن نفهم. لم تعد الآلهة هي من يحدد المصائر، إنها قوى أخرى التي تقوم بتدبير المكائد التي تحدد المصائر في الحياة، يا عزيزي. لكن لا تظن أن هناك سرًا مخفيًا، كل شيء واضح أمام أعيننا.

ـ ٣ ـ

كنت قد قطعت علاقتي بالأرجنتين كأنه لم يعد لي هناك أي شيء. من آن إلى آخر كنت أذهب إلى المكتبة وأقرأ عددًا قديمًا من

Twitter: @alqareah

الصحف لكي أعثر على الروح المفتقدة لأيامي في بوينس أيرس. كنت أنظر أي أفلام تُعرض، المعارض، أتابع حالة الطقس، تقلبات الوضع السياسي، لكن بلا مبالاة مطلقة، كأن ما أقرأ يحدث في ماض سحيق، وأنا أعيش في زمن مواز وبعيد. كنت قد تركت عملي في جريدة (الموندو) وأمضيت عامين منعزلا في شقة في شارع سارمينتو بينما أكتب رواية حققت نجاحا متواضعا (النجاح المتواضع المعتاد في بوينس أيرس)، لكن منذ ذلك الوقت توقفت حياتي. ذات مرة فكرت في قيادة السيارة على شاطئ مفتوح خال جنوب محافظة بوينس أيرس، وانغرست السيارة في الرمال الرطبة. كان من المستحيل إخراجها، لأنه لدي الحفر، كان الماء يطفر بجانب العجلات بينما البحر يأخذ في المد مهددًا بجرف السيارة. في النهاية أخرجني أحد أبناء المكان بحصاني جرًا، كأنني في مركب جانح وسط المحيط.

بل إنني أحيانًا كنت أتخيل ما كان سيحدث لحياتي إن بقيت في بوينس أيرس. ربما كنت سأتصالح مع زوجتي السابقة، ربما كنت سأحظى أخيرًا بعلاقة جنسية مع مارجريتا، جارتي في الطابق التالي، بالتأكيد كنت سأواصل التمشية، الكتابة في الملاحق الأدبية، الحديث مع أصدقائي في بار (لا باث).

من الممكن العثور على صلات، روابط ، تشابك وتواز بين حياة وأخرى، وذلك الرابط المزدوج هو الذي يحميني من الذكريات الحقيقية. أحيانًا كانت تعيدني إلى الواقع الرسائل التي أتلقاها من أصدقائي، رغم أنني لم أكن أرد عليهم مطلقًا. كانوا يكتبون لي رسائل إلكترونية أو يتركون رسالة صوتية مسجلة في تليفون مكتبي، من المرجح أن يكونوا قد عثروا عليه في موقع الجامعة.

Twitter: @alqareah

تشيه(*)، إيميليو؟ كيف حالك؟ كلمني، أنا جونيور. كان هذا غريبا، لماذا يريد أن يكلمني؟ اندهشت، لكنني لم أرد. بل أحيانًا كانت تصل خطابات من أصدقاء قدامي - من أنيتا، من خيراردو، من خيرمان - الذين كانوا يلجئون للطريقة القديمة بإرسال المخاطبات في البريد لعلهم يتلقون ردا. لكنني لم أكن أفتحها. كما تلقيت رسالتين من كلارا، زوجتي السابقة، لكنني كنت أرد عليها من دون فتح الرسائل، متخيلا ما تريد أن تقول بيقين تام، وعارفا بما تنتظر أن أقول، رغم أنه بعد كل ذلك الوقت، كنت غريبا عنها وهي غريبة عني (رغم السنوات التي عشناها معا).

كلمت أمي مرتين، كانت تعيش في كندا مع شقيقي وعائلته. وعدتها أن أسافر لزيارتها، رغم أن كلينا، هي وأنا، نعرف أن هذا لن يحدث، لكننا كنا نقوله مُتَبِعِينً طقسًا ينحصرِ في التعبير عن مشاعر كنا قد نسيناها. المرة الثانية عندما كلمتها قلت لها إنني عرفت فتاة تسمى مثلها. ضحكت أمي وأظن أنها ردت عليّ بنفس الإجابة التي قالتها إيدا: هذا مضحك، بين كل النساء في العالم. لا أحد يحب أن يسمى كشخص آخر، وأنا نفسي كنت أتوتر عندما ألتقي بأحد يدعى (رنزي)، بين معارفي. لا يمكن، قالت، ولا أحب هذا، وغَيَرَت الموضوع. شقيقك في خير حال، اشترى بيتا على الشاطئ، الأطفال يتعلمون الفلوت والكمان، وبدؤوا لعب كرة القدم في المدرسة ويسألون عنك دائمًا.

ـ ٤ ـ

عندما كنت أذهب لإعطاء المحاضرات وأسمع في الطرقات غمغمة الضحكات الخافتة وأصوات معتادة دائمًا عندما يكون المرء

(*) لقب يطلق في الأرجنتين للنداء أو لمخاطبة الأصدقاء والمعارف. رغم أن أشهر من حمله هو چيفارا، وأصبح (تشيه) لصيقًا باسم چيفارا. (المترجم).

Twitter: @alqareah

على وشك الدخول في الصالة، كنت أفكر أن الطلبة يعرفون كل أفكاري، وأن شبكة معلوماتهم واستنتاجاتهم كانت دقيقة. تلك الضحكات، هل هي موجهة لي؟ كنت أربط بين أحداث منفصلة، كأن الاعتقاد بأن كل الأمور متصلة دلالة على الذكاء. المجانين يظنون هذا، كنت أفكر بينما ضوء الظهيرة ينير ممرات المكتبة التي تلتقي فيها كل كتب العالم في مبنى لا نهاية له، كما يحدث في قصص بورخيس، كاتبٌ يرى أن كل شيء له علاقة بكل شيء، وأن العالم نتاج للمنطق الشيطاني لألوهية تهذي.

ولكي يصدق حدسي، كنت منغمساً في هذا ذات ظهيرة، عندما ظهر المفتش أوكونر، ويرافقه المحقق صاحب الوجه المتجهم، نظارات كليبر، وشعر ناعم، الذي رافقه المرة الماضية. كانا ينتظراني على باب القاعة، كأنهما يريدان أن يجعلاني أعرف أنني ما زلت مشتبها به محتملاً. ضايقني أن يظهرا أمام الطلاب الخارجين من المحاضرة، لكن هذا هو غرضهما. قضية البروفيسورة براون تم غلقها، قال لي أوكونر، يمكنني أن أتحرك بحرية، لكن يوجد أمران يريدان الكلام معي بشأنهما. وحينئذ قدم لي الرجل الذي يرتدي نظارة داكنة، جون منيندث، عميل خاص من (إف بي آي). أوكونر نظر في مفكرته وكشف عن أنهم كانوا بالفعل يقومون بالبحث في سلسلة من الاغتيالات في جامعات مختلفة. موت إيدا يبدو حادثًا، وهم لا يرون دلائل على أنه ينتمي لهذه السلسلة، لكن يوجد أمران يريدان إيضاحهما. كانا على علمٍ أن إيدا كانت تتردد على فندق حيات. أعرف ما تعني هذه التلميحات، لهذا لم أقل شيئًا وانتظرت. إيدا ذهبت إلى ذلك الفندق مرات عديدة في نهاية العام الماضي، وفي يناير أيضا. هل كنت على دراية بهذا؟ كنت في الأرجنتين في

Twitter: @alqareah

ذلك الوقت. نعم، هم يعرفون هذا، لكن هي، ألم تقم بالإشارة إلى تلك الاجتماعات أو تلك اللقاءات؟ على الأقل ليس لي. بقيت مترقبا، هل كانا يعرفان أننا التقينا ويكتمان هذا ليريا رد فعلي. نعتقد، قال أوكونر، إنها كانت تنزل في الفندق عندما تأخذ طائرة الصباح الباكر في مطار نيو أرك القريب. هل هذا هو كل شيء؟ لا، في ليلة الحادث، ألم تعط أي شيء للدكتورة براون عندما التقيتما في الطرقة؟ السكرتيرة رأتكما تتحدثان من مكتبها. لا شيء، قلت له، كنت في اجتماع، وعندما خرجتُ، كانت هي بالفعل في الطرقة، لكنها كانت تحمل الخطابات التي استلمتها من القسم. هل كانت لديهم قائمة الرسائل التي تلقتها؟ نحن نوجه الأسئلة، قال منيندث، بصوت خفيض، كالهمس تقريبا. حسنا، قلت، معذرة، لكن يجب أن أواصل العمل. نعم، بالطبع، قال أوكونر، وقبل أن يستودعاني أوصياني أن أنظر في أمر اضطراباتي، تحليل عادي يساعد دائما، قال. استودعاني وابتعدا عبر الممر مثل حفاري القبور. كان أمرًا غريبًا للغاية، شعرت أنهم يريدون تنبيهي إلى علمهم بزياراتي للفندق. هل هذا هو ما يريدون؟ ولماذا كانت تذهب إلى الفندق قبل أن أصل هنا؟ وحينئذ فهمت الطريقة التي تقوم بها الشرطة بزرع الشكوك والهلاوس في المشتبه بهم في إحدى القضايا. هل قامت فعلاً بالذهاب من قبل، ليلاً، بمفردها إلى فندق حيات؟ أم أنهم فقط كانوا يخبرونني أنهم على دراية بلقاءاتي معها؟ كنت متوترًا مرة أخرى، وقبل أن أعود إلى البيت قمت ببعض الجولات بالسيارة لكي أهدئ نفسي، القيادة تهدئني، وخرجت باتجاه فيلادلفيا، من دون الدخول في الطريق السريع. سرت عبر بعض الطرق الجانبية، بين غابات وبيوت ريفية. شغلت الراديو وسمعت الأخبار وحالة الطقس. بعد ذلك أذاعوا أغاني لبوب ديلان. في لورانسفيل، قرية

Twitter: @alqareah

على الطريق، نزلت لآكل شيئًا وبعدها خرجت ودرت للعودة إلى القرية عبر شارع ناساو، لدى الدوران في ماركهام روود رأيت أضواء بيتي مضاءة. تركت السيارة على باب الجراج ودخلت من الباب الجانبي. كان مغلقًا، والباب الرئيسي أيضا كان مغلقا. هل كان سهوًا وأنا نفسي تركت النور مشتعلا؟ هل دخلوا؟ كل شيء في مكانه، يبدو أنهم حركوا فقط بعض أوراق ملاحظات دروسي من مكانها. دفاتري كانت مفتوحة فوق المكتب.

لا يوجد أي شيء يمكن أن يورطني، الأسماء كانت حروفًا، والأماكن تم تبديلها. أكتب في هذه الدفاتر منذ سنوات، وأحاول دائمًا أن أكون الوحيد القادر على فك شفرتها، لكن، كيف يستطيع رجل شرطة قراءة تلك الصفحات؟ كان مضحكًا التفكير أن (إف بي آي) يكرس نفسه لقراءة ما بين السطور التي أكتبها. هل دخلوا؟ راجعت الغرف، كانت مرتبة. بالطبع يمكن أن يكون هذا دليلا على أنهم دخلوا خلسة. هل حملوا شيئا؟ في مكتبة هوبيرت، فوق مائدة واطئة يوجد عدد من مجلة (بارتيسان ريفيو) من ١٩٨٨، مفتوح على مقال لمارتين جاي، "الإرهابي روائيا". هل نسيته هناك؟ بدأت أقلق. كان يجب أن أعرف ما يحدث معي.

قررت مكالمة رالف باركر، المحقق الخاص، معرفة إليزابيث. ردت على سكرتيرة وكالة (أيه سي إي). أنا إيميلو رنزي، قلت لها، صديق للآنسة ستريم. كنت أريد استشارة السيد باركر في أحد الأمور. قالت لي الفتاة، إنه يتلقى ثلاثمائة دولار في الاستشارة، بغض النظر عن الاستمرار في القضية من عدمه. إن استمر العمل، سيتم خصم الثلاثمائة دولار من الأتعاب. الكلفة اليومية تعتمد على نوع البحث. وأعطتني موعدًا مع باركر للأسبوع التالي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل السادس

ـ ١ ـ

استقبلني باركر في مكتبه كأنه لا يعرفني أو كأنه نسيني؛ لكي يجعل اللقاء أكثر رسمية، كانت سكرتيرة شقراء تقوم بتدوين ملاحظات عما نقول. الفتاة كان اسمها جينجر، وتستخدم جهازًا لتقويم الأسنان الأمامية، وهكذا كانت تبدو كمراهقة، حديثة التخرج في الثانوية. قدموا لي فنجانًا من الشاي الأخضر وبعض قطع البسكويت بالجنزبيل لها طعم بول قط. على كمبيوتر جينجر كان يسمع سيتار(*) رافي شانكار العظيم، كنا في الهند رغم أننا كنا نسمع عبر النوافذ صافرات الشرطة وضجيج نيويورك العالي. عرضت عليهم ملخصًا للموقف؛ كنت قلقًا، زميلة في القسم، الدكتورة براون، ماتت في حادث غريب، وكنت مقتنعًا أن (إف بي آي) يراقبني.

ـ أعتقد أنهم دخلوا البيت عندما كنت في الخارج.

(*) آلة موسيقية هندية تشبه العود. (المترجم).

Twitter: @alqareah

-هذا طبيعي، لن يذهبوا أثناء وجودك - قال باركر، والسكرتيرة احتفت بنكتة رئيسها بسعلة جافة.

عادة يقوم (إف بي آي) بتفتيشات ليلية من دون إذن قضائي. لا داع للتوجس، يمكن أن يكون تفتيشًا روتينيًا في بيوت كل من كانت له علاقة بإيدا براون.

وحسب معلوماته، كان (إف بي آي) يحقق بالفعل في مجموعة من الاغتيالات في جامعات البلاد. بدأت منذ فترة طويلة، لكن منذ وقت قريب بدأ الربط بين حوادث مختلفة منفصلة. ما العلاقة بين تلك الوقائع؟ لا أحد يعرف. يمكن أن تكون إيدا ضمن هذه السلسلة، وربما ترك (إف بي آي) هذا الاحتمالية مفتوحة لربما وقع عصفور في الفخ. قد يفكرون أنه كان اغتيالا أو أنها ماتت بينما تُرَكِبَ قنبلة. لا توجد أي فرضية مستبعدة. طلب مني تفاصيل أكثر، أي شيء يمكن أن يفيده في بحثه، حتى أقل المعلومات أهمية. عندما بدأت في الكلام، طلب باركر من الفتاة أن تتركنا بمفردنا وأخذ يدّون ما أقول في دفتر صغير. عرضت عليه ملخصًا للوضع منذ وصولي في يناير وحكيت له أنني تلقيت، مثل كل أساتذة القسم، زيارة اعتيادية من الشرطة بحثا عن تفاصيل عن الحادث. لكن بعد ذلك، بالأمس، قام المفتش أوكونر من شرطة ترنتون، وعميل لاتيني من (إف بي آي) بانتظاري لدى خروجي من إحدى المحاضرات، وعندما وصلت إلى البيت وجدت آثارًا على أنهم قاموا بمراجعة أوراقي. كان يبدو مهتما فقط بالإشارة إلى العميل اللاتيني. طلب مني معلومات أكثر، قلت له إنه لم يتحدث تقريبًا، إنه كان يقوم فقط بالاستماع إلى حواري مع أوكونر. وفي النهاية

Twitter: @alqareah

أوضح لي أنهم من يقومون بتوجيه الأسئلة. دون باركر عبارتين في دفتره وعرض عليّ ملخصًا للموقف.

الشرطة كانت حائرة، لا تعرف إن كانت الاغتيالات مرتبطة، أم أنها مجرد مصادفة. عامة، كان من يتعرضون للاغتيال أكاديميين بارزين، علماء متخصصين في البيولوجيا أو في المنطق الرياضي. يبدو أن إيدا خارج هذا الإطار. لكن لا يمكن التأكد من هذا، قال مختتما، قد يكون مجنونا، أو مجرد مصادفة.

باركر سيقوم بطلب للاطلاع على ملفات (إف بي آي). كان يجب أن أقوم بالتوقيع على تصريح له. أوضح لي أنه من دون تعاون أجهزة الأمن، لن يمكنه القيام بعمله. توجد نسختان من الولايات المتحدة، قال باركر. الأولى مرئية، البلد الذي أقوم بالتصويت فيه كمواطن، الجمهورية الديمقراطية التي أنشأها الآباء المؤسسون. والأخرى خفية، بها سلطة مركزية غير محدودة، تقوم بتصفية كل من يعرض الأمن الوطني للخطر. كان عليه أن يقوم بمفاوضاته مع هذه السلطة الخفية والتعاون معها لكي لا يدهسوه كحشرة. كانوا يعرفون أنه يعمل في قضية الجنود الزنوج في العراق، لكن هذا لم يكن يهمهم: الجيش عالم آخر، هم الأولاد الذين يقومون بالعمل الداخلي. أنا من الأرجنتين، قلت له، أعرف كيف تدور هذه الأمور. نصف الشعب يعمل مع أجهزة المخابرات، والنصف الآخر هو الذي يخضع للمراقبة.

كان باركر سيحصل على تصريح لقراءة تفريغ المكالمات التليفونية والمعلومات الخاصة واستشارة أرشيف القضية، لكن كانّ علي أن أقول له لماذا أهتمُ بالأمر لهذه الدرجة، ولماذا قمت بالتعاقد معه.

Twitter: @alqareah

كان واضحًا بالنسبة لي أنني لا أستطيع شرح هذا له. أصبحت مهووسًا بهذه المرأة، وهوسي سبب لجوئي إلى محقق خاص. قلت له من دون الدخول في تفاصيل إن إيدا كانت صديقة، مثقفة مشهورة، سُمعَتِها كانت على المحك، إدارة الجامعة نفضت يدها، لكن بالنسبة لي، لم يكن الأمر سيان أن تكون قد ماتت في حادث سير غبي أو بطريقة أخرى.

- لم يكن الأمر سيان، لمَ؟ من أجل السيرة الذاتية للبروفيسورة؟ نظر لي بسخرية. يجب أن يوجد أمر آخر.

- كانت لي قصة معها، لكنني أخفيت هذا عن الشرطة.

آه، حسنا، قال، ودوّنَ شيئا في دفتره الصغير، وهم يعرفون هذا بالطبع. هل كانت متزوجة؟ لا، لم تكن متزوجة. هل عرف أحد الزملاء بهذه العلاقة؟ لا أعتقد. ولمَ أخفيت هذه الحكاية. لم تكن ترغب في أن تُعرف، واحترمت رغبتها.

-أو لا لا - قال ضاحكًا.

فجأة أدركت أن باركر هو رجل شرطة أمريكي سابق تقليدي، ساخر، وطني. هل توجد أمور أخرى يجب أن يعرفها؟، سأل، لهذا تكلمت بحذر بدون الإفراط في المعلومات ولا الفرضيات.

- تحدثوا مع طبيبي في بوينس أيرس، قلت له، وهذا أدهشه.

سيقوم بالبحث، سيرى أحد معارفه. يريد أن ينبهني إلى أنهم يسمحون له بالبحث في الملفات الميتة فقط، بمعنى، لا توجد معلومات حول شهود حاليين (بمعنى، حول أشخاص على قيد الحياة). لا يريدون أن تتحول المعلومات إلى وسيلة للابتزاز.

Twitter: @alqareah

كانوا جادين في البحث، حسب باركر. اللاتيني، جون منيندث، هو رئيس التحقيقات الخاصة، مدير وحدة تحليل السلوك في (إف بي آي). كان جوكر، كان أفضلهم، ومن الغريب أن يكون قد تحرك بنفسه. لا بد أنه يفكر في وجود خيط يربط بين إيدا وسلسلة الاغتيالات. في النهاية، سيتولى الأمر، سوف يطلعني على التطورات. لا حاجة لأن أترك مقدما، كان يفضل أن أدفع أسبوعيًا.

ـ ٢ ـ

خرجت من المكتب بعد منتصف النهار. كنت قد تواعدت مع إليزابيث في سنترال بارك وليس في بيتها، كأنني أفكر في أنهم يراقبونني وأتّبع إجراءات أمان. في إحدى الفترات في الأرجنتين كان الجميع، حتى أكثرنا لا مبالاة، يقومون بهذا، الخوف يجبر على تقليد المراقبين والتصرف بحذر. لقاءات متفق عليها في أماكن مفتوحة حيث يمكن للمرء أن يهرب، عدم انتظار أي شخص أكثر من ثلاث دقائق لأي سبب، القيام بدورة حول المربع السكني والتأكد من عدم مراقبتك، عدم تدوين أرقام تليفونات، توخي التنقل في المترو. لم يفد هذا بأي شيء. كبرى عمليات حرب العصابات في الأرجنتين -الهجوم على ترسانة للجيش في مونتي تشينجالو- كانت تحت قيادة عنصر مدسوس من أجهزة المخابرات، كان أصدقاؤه يطلقون عليه "الدب".

لم أعد أقيم في ليو هاوس، كأنني بتغيير المكان سوف أخدع الشرطة. كنت أراهم في كل مكان، كل من يتوقف على ناصية كان يجعلني أفكر أنه يتبعني. كانوا قد سألوا إليزابيث أيضًا عني. إجراءات عادية. تصرفت بدهاء عندما سألها موظف إف بي آي إن

Twitter: @alqareah

كنت قد سافرت إلى كوبا. بالطبع، قالت، لقد طبع أول كتبه في لاهابانا، لكن هذا منذ آلاف السنين. العميلان اللطيفان المتحفظان لم يقولا شيئًا، لكنهما دونا المعلومات. كانا يكتبان وقوفًا، قالت إليزابيث، لا بد أنها طرق في الكتابة، أو أنهما كانا يكتبان أي شيء تافه لكي يبدو أنهما يعملان بجد.

كانت امرأة لا تستسلم بسهولة. كانت لها طريقة في الكلام وفي الملابس توحي بطبقتها الاجتماعية، وبأنها تعيش في أحد أغلى أحياء المدينة. عائلتها بالتبني قامت بتنشئتها في بروكلين، لكنها دخلت جامعة كولومبيا بمنحة، وهذا ساعدها على اللحاق بالنخبة الثقافية في نيويورك. لا توجد رحلة أطول من الطريق من الأحياء الفقيرة في بروكلين إلى دوائر مانهاتن العليا، قالت لي يومًا.

جلست على مقعد في الحديقة لآكل سندوتش (هوت دوج) وبدأت في إلقاء فتات الخبز للطيور. كنا في مارس، يمكن الشعور بالربيع في الهواء. فتي ذو خمسة أعوام تقريبا توقف إلى جانب وبدأ ينظر لي. بعد ذلك سألني إن لم يكن الكاتشب يضر الطيور. لا أعتقد، قلت له. لقد اعتادوا على كل شيء. في الشتاء يأكلون القمامة اللاصقة بشبكات تهوية المترو. هذا جعله يضحك. مخاط؟ علكة؟ سأل. لا. العلكة لا. قد تلتصق بها. ضحكة. سألته إن كان يريد بعض الهوت دوج. شكرني بشكل رسمي وقال إنه لم يكن مسموحًا له قبول طعام من الغرباء. أبوه كان سيحمله إلى بيت جدته، وهي سوف تعطيه الكثير من الأشياء ليأكل. أنا أيضًا أقوم بإطعام الطيور أحيانًا، قال لي. كان يبدو شديد الخجل. بعد فترة صمت، نظر لي كأنه يراني من مسافة بعيدة. أنا أعرفك، قال، أنت صديق أمي.

Twitter: @alqareah

كان جيمي أرشر، ابن اليزابيث، لكنني لم أكن قد رأيته من قبل. أنا إيميليو، قلت له. نعم، أعرف هذا، قال. لم يعترض على إعطاء بعض فتات الخبز للطيور، ما دام لا يحمل كاتشب. قطعت له قطعة من الخبز وأخذ يرمي الفتات في دوائر يتزايد اتساعها. وسرعان ما بدأت طيور كثيرة في الاضطراب والتصارع على الفتات.

هل يتقاتلون؟ سأل بصوته المتوتر. لا، على الإطلاق، إنهم يلعبون. ولماذا تظهر صغار الطيور أحيانًا ميتة على الأرض؟ ينامون ويسقطون من الأشجار. نظر إلى الصراع متأملاً. كان يرى أن الغربان طيور قاتلة. الغربان؟ أكد برأسه. كان يفزع كثيرا من التفكير أن غرابًا قد يدخل غرفته ليلاً. لا يمكن أن تراه. بعد ذلك أخرَجَ في حركةٍ سحريةٍ كرةَ بيسبول من الجاكيت وعرض عليّ أن نلعب. يمكنني أن أظل جالسًا: هذا كان مكاني كمتلق للكرة. ابتعد وقذف الكرة نحوي بقوة كبيرة. أعدتها له، وعاد لاتخاذ وضع الرمي، بساق مرفوعة، واليدين مضمومتين على الكرة بجانب الخد قبل أن يقوم بالرمية.

في تلك اللحظة ظهر رجل قوي البنية، بوجه طويل، من أحد ممرات الحديقة. كان يبدو نسخة من جيمي، لكن بحجم ضخم ويحمل نفس التعبير المتوتر في نظرته. كان يدخن سيجارة بلون القهوة وشعره الأبيض مربوط خلف ظهره في خصلة بشريط مطاطي. كأنهم جميعا قد اتفقوا، في تلك اللحظة ظهرت إليزابيث. بدا أن الرجل لم يرها وتحدث مع الولد.

- لقد أخرني المرور يا جيمي، معذرة. قال، ولهجته بدت كتهديد.

Twitter: @alqareah

- حسنًا - قال الصغير بتردد خائف في إجابته القصيرة .

نظر الرجل صاحب الخصلة إلى إليزابيث.

-إنه يخاف مني ويتحدث مع غريب في الحديقة.

-ليس غريبًا. أوضحت، وابتعد الاثنان نحو الأشجار لكي يتحدثا بصوت غاضب.

نهضت وأعطيتهما ظهري لكي يحلا الأمر. الفتى كان ينظر للأرض بمظهر بائس، وبعد ذلك رأيته يتجه إلى الأب. من وقت إلى آخر كان يدير وجهه وينظر لي.

جلست إليزابيث إلى جانبي على المقعد. كان زوجها السابق، أبا الطفل. عاشت معه سنوات كثيرة، كان كاتبًا متواضعًا، لكن كثير النجاح. عندما عرفته كان شاربه على الطريقة المكسيكية، قالت. كان يجب أن أرتاب، كان يتصنع أنه رجل قوى، دائمًا كان يُمَثِل. عدنا مشيًا عبر الحديقة وحكيت لها عن لقائي مع باركر. لم تكن ترى أنني يجب أن أقلق. كل سكان نيويورك (باستثناء الزنوج) يتلقون مثل هذه الزيارات من (إف بي آي). الزنوج لا تتم زيارتهم، مباشرة يتم قتلهم أو سجنهم، قالت. إن قاموا بالتحري عنهم، سيشعرون بهدوء أكثر.

وصلنا إلى بيتها وبقيت هناك يومين. لحياتها مع الكاتب المتواضع، أصبحت إليزابيث خبيرة في الأشياء المعيبة. كان لديها مشروع لطبع مختارات من القصص الكلاسيكية لكُتاب كبار، بعد تحريرها ومراجعتها. قامت بعمل قائمة بالعيوب في أمهات الأعمال: "القتلة" لهيمنجواي (النهاية مع السويدي مباشرة أكثر من اللازم)؛ "يوم مثالي لسمك الموز" لسالينجر (يوجد تَغَيُّر غير مبرر

Twitter: @alqareah

في وجهة النظر)؛ "إشارات، رموز، علامات" لنابوكوف (المكالمة التليفونية الثانية مجرد تكرار)؛ "وسم السيف" لبورخيس (النهاية مع تفسير مون زائدة). بالنسبة للكتاب الذي نشرتَه، إن كان الأمر يرجع لها، لكانت قد حذفت كل القصص باستثناء "صانع المجوهرات" (وهذه القصة كانت ستكملها بحكاية الطفلة والأب الهاربين من الشرطة في طرق البلاد).

في الظهيرة، عندما كانت إليزابيث تذهب إلى المكتب، كنت أذهب للعمل في المكتبة العامة في شارع ٤٢، كنت أطلب كتبًا من القرن التاسع عشر ومجلات قديمة، أفتح دفاتري وأحاول أن أنسى همومي بينما الصمت والمصابيح الشبيهة بزهرة التيوليب الأخضر في القاعة تعزيني، وكما حدث في مرات كثيرة طوال حياتي - تقضي على مخاوف الحاضر.

في لا بامبا تعرف هدسون إلى رجل متجهم، كان يعيش بمفرده في كوخ وسط الوادي؛ كان إنجليزي الميلاد، لكنه سافر في شبابه إلى أمريكا الجنوبية (وعاش الحياة شبه الوحشية مثل الجاوتشو واكتسب كل معارفهم الخاصة، وأولها أن الحياة البشرية ليست أمرًا عظيمًا. "ماذا يهم؟"، كثيرا ما يهز أبناء المكان أكتافهم ويقولون، عندما يتم إخبارهم أن صديقًا قد مات: "الكثير من الجياد الجميلة تموت").

- ٣ -

بعد يومين - الجمعة في ذلك الأسبوع، حسب ملاحظاتي المدونة - كان لي لقاء آخر مع باركر. المعلومة المشتركة بين الحوادث هي وجود رسالة مفخخة موجهة إلى الأساتذة والباحثين في المجتمع

Twitter: @alqareah

العلمي والأكاديمي. طريقة الاغتيالات والأماكن التي وقعت فيها، تؤدي إلى التفكير بصعوبة أن يكون قد قام بها شخص واحد. (إف بي آي) يفترض وجود جماعة فوضوية، على الأرجح خلية من (الإرهابيين المدافعين عن البيئة). لا يعتقدون أن حادث إيدا ينتمي لهذه السلسة، رغم أن موتها مثير للشك. باستثناء، أضاف، أن تكون عضوة بالجماعة، وأن تكون قد ماتت لدى تفعيل القنبلة التي كانت تفكر في استخدامها (أو نقلها). كل القنابل كان عليها نقش معدني به حرفا إف سي FC بحثوا من دون نجاح عن أسماء أو علامات شبيهة في ورش، مصانع ومتاجر الآلات. كانت قنابل منزلية، مصنوعة من مواد معاد تدويرها، شديدة الصعوبة في التتبع، ولهذا بدأ إطلاق (مستر ريسكلر) على القاتل المفترض. لم يعثروا في أي اعتداء عن بصمات أصابع، أو بقايا تساعد في التعرف على شخصيته. اللفافات تربط دائما بدوبارة، يتم ختمها بالنيكل، لكن لم يتم الكشف عن مصدرها، ووصل التفكير أن (مستر ريسكلر) يقوم بتصنيعها بنفسه. كلها تحمل طابعًا لأويجين أونيل بدولار. هل يعني هذا شيئا بالنسبة لي؟ أونيل، حسنًا، كان نصف فوضوي، قام بقضاء فترة طويلة في الأرجنتين في بدايات القرن، حيث كان يعيش في بيرسو، حي عمالي بالقرب من نهر لا بلاتا. كل شيء يبدو شديد الغرابة. إنه أمر شديد الغرابة، قال باركر. الاغتيالات كانت متطابقة، رسالة مفخخة موجهة إلى شخصية من مجتمع العلماء، كلها كانت متفجرات منزلية مصنوعة من نفايات وبقايا مواد صناعية، وكلها تحمل طابع أوجين أونيل. فقط المستهدفون والطابع المكرر والبطاقة الغامضة بحرفي إف سي تؤدي إلى التفكير إلى أن الأمر يتعلق بسلسلة. منيندث كان يحاول أن يفسر الأدلة المادية التي

Twitter: @alqareah

عثر عليها في بقايا التفجيرات. لا توجد بصمات، لا توجد أدلة واضحة، وفي البداية استنتج أن المشتبه به كان ميكانيكي طائرات يعمل في ورشة منزلية سرية خلف بيته. مهارة استخدام بعض السبائك المعدنية الشبيهة بما يستخدم في الطيران جعلته يأمر في البحث في هناجر، مصانع الطائرات، ومقابر أدوات الطيران، لكن من دون نتيجة.

يتصورون أنها قد تكون خلية من خمسة أو ستة أعضاء؛ لم يقوموا بأي تصريح علني، وإيقاع الاغتيالات غير منتظم. كلهم يعتقدون أنها مجموعة، باستثناء منيندث، الذي يفكر أن الأمر يتعلق بشخص واحد فقط. لهذا بدأ في اللقاء مع مرتكبي جرائم قتل متعددة المحبوسين في سجون البلاد، لكي يحاول أن يجد أي منطق مشترك في الحوادث التي يحقق فيها. لم يستطع الخروج بالكثير من تلك الحوارات: أساسًا كانوا يتصرفون لدوافع لا يستطيعون التحكم فيها، والتي كانت تحملهم إلى القضاء على ضحاياهم في حدائق، في مدارس، في حمامات عمومية. عادة "التسلسليون" (كما يطلقون عليهم) معتادون على تسريع إيقاع قنصهم، وطلب مكافآت مبالغ فيها أو تافهة لكي يتوقفوا عن ارتكاب جرائمهم، وغالبًا كانوا يقعون، لأنهم يعودون دائمًا إلى مكان الجريمة، أي إنهم يكررون أفعالهم بتطابق شديد لدرجة تجعل من الممكن التنبؤ بمكان هجومهم التالي.

لم يكن يعتقد أنها جماعة أو خلية، لأنه، وفقًا لرأيه، أي مجموعة ينتهي بها الأمر إلى الحل آجلاً أم عاجلاً، وهذا يؤدي إلى وجود وشاة، بالإضافة إلى أن الجماعات السرية كانت مخترقة من

Twitter: @alqareah

الشرطة. منيندث نفسه كان عميلاً مزدوجًا في عصابة تهريب مخدرات مكسيكية في تيخوانا عندما كان طالبًا وشيك التخرج للعلوم السياسية في معهد هوفر للحروب والثورات بجامعة ستانفورد، كاليفورنيا. كان من أصل مكسيكي، ويعيش في عالمين، مكسيكي مثل والده وأمريكي مثل أمه، ويعرف طريقة العبور من واقع إلى آخر.

نزلت مع باركر لتناول شراب في بار مواجه لميدان واشنطن، المكان كان امتدادًا لمكتبه، ومعتادًا على استقبال زبائنه فيه. قام الجميع بتحيته عندما رأوه يدخل، وهو أخذ يتناقش مع البارمان حول نتيجة مراهنات المباريات الفاصلة في كرة السلة. كانا من مشجعي كينكس، لكنهما لم يكونا يعتدان بانتمائهما في ساعة الرهان. ذلك العام كان فريق بولز الذي ينتمي له مايكل جوردان يتصدر الدوري، لهذا كان الرهان عليه مثل معرفة رقم اليانصيب قبل الاقتراع عليه. مع هذا، قام باركر بالرهان بخمسمائة دولار لصالح فريق فيلادلفيا ٧٦ضد شيكاجو (كانوا يدفعون ٣٠ مقابل ١).

جلسنا إلى مائدة بالقرب من النافذة المطلة على ميدان واشنطن. كانت امرأة بمكبر صوت في قلب الميدان تحدث مجموعة صغيرة من المتشردين حول أهمية الإقلاع عن المخدرات والكحول وفي نفس الوقت كانت تروج لعقار مضاد للإدمان اسمه (سول كيك).

الرياضة كانت الصناعة الرئيسية في هذا البلد، قال باركر، جوردان، الذي عاد إلى دوري كرة السلة للمحترفين بعد اعتزال دام بضعة أشهر، كان أكثر سطوة من جنرال موتورز. لكن بالنسبة

Twitter: @alqareah

لباركر نجوم الرياضة الحقيقيون هم متسابقو السيارات. يربحون الكثير من المال لأنهم يعيشون في خطر دائم، والجمهور يذهب إلى أنديانا بوليس أو إلى دايتونا لكي يرى الحوادث. توقف مفكرًا، كأنه يتخيل أن هذه كان يجب أن تكون حياته. عندما تدخل إحدى تلك الماكينات، لا تعرف إن كنت ستخرج بعد ساعتين، حيًا أم مهروسًا.

جاءوا بعصير برتقال لباركر وويسكي لي؛ كما قدموا لنا الفول السوداني وبطاطس محمرة. حينئذ، كأنه يعطي معلومات لزوج أجّره لمراقبة زوجته الخائنة، بدأ باركر في سرد معلومات ملفات (إف بي آي) حول إيدا. لم تكن لها عادات ثابتة، وإن أراد شخص أن يقتلها، سوف يجد صعوبة بسبب عدم الانتظام هذا. كثيرًا ما كنت تمشي من بيتها عبر طريق بروسبيكت حتى الجامعة. أحيانًا كانت تقطع الطريق بالسيارة وأحيانا كانت تنتظر أتوبيس الجامعة المجاني على ناصية ناساو مع طريق هاريسون. دائمًا تحمل كيس القمامة حتى صندوق النفايات بجانب مكان الانتظار في بيتها في حي الأساتذة؛ أحيانا كانت تصعد إلى السيارة وتحمل القمامة، تتركها في الصناديق الموجودة بجانب ملعب كرة القدم. بالطبع كانوا يعرفون أن القمامة هي نقطة الانطلاق في التحقيقات، دائما توجد بقايا: أجندة، وصفات طبية، ملاحظات مكتوبة بخط اليد. إن كنت مهتما، لديه قائمة بالمخدرات التي كانت تتعاطاها، مقننة وغير مقننة. قائمة بمكالمتها التليفونية. مجموعة من أكثر الرسائل خصوصية في البريد الإلكتروني، الأماكن التي كانت تتردد عليها بانتظام. عندما كانت تذهب على قدميها كانت تسير حتى مدخل الجامعة في واشنطن روود، وبعدها تذهب إلى المكتبة (دائمًا كل صباح) وكانت تخصص ساعات كثيرة للبحث أو للعمل في

Twitter: @alqareah

محاضراتها. في الظهيرة توجد في مكتبها. استخدمت صندوق تقاعدها لشراء شقة في حي فيلاج. حضرت مؤتمرا في الصين واجتمعت سرًا مع أساتذة وطلاب فلسفة من جامعة بكين. (إف بي آي) لديه ملخص للحوار. كانت لها عادات جنسية غير مستحبة، كانت تتردد على غرف المتعة، أندية التبادل، وأندية السادية. وهكذا كانت لديهم خريطة كاملة بحياة إيدا، كأنها لوحة أشعة. هل لديهم هذه المعلومات عن جميع المواطنين؟ لم تكن معومات، إنها فقط العظام التي تظهر بأشعة إكس. لم تستطع السفر إلى كوبا لأن وزارة الخارجية رفضت منحها التصريح. أحيانًا كانت تأكل في مطعم الجامعة، سندوتش دجاج. لديهم قائمة بالأفلام التي استأجرتها خلال العامين الماضيين في نادي الفيديو، قائمة الكتب التي طلبتها في المكتبة، قائمة مشترياتها في السوبر ماركت، كشف البنك. قاموا بفحص مكالماتها الهاتفية إلى الخارج والفاكسات التي أرسلتها. قامت بالمشاركة في مظاهرات من أجل السلام، للدفاع عن الحق في الإجهاض، وللمساواة العنصرية، ولحق اللاتينيين في الحصول على إقامة شرعية، من أجل رفع الحصار عن كوبا. انضمت للجماعات التي تظاهرت ضد حرب العراق. في الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٤، تمت رؤيتها مرة أسبوعيًا في فندق حيات على الطريق رقم واحد مع دون دا - أماتو. هو نفسه كشف هذا للشرطة.

كنت قد أنهيت الويسكي وطلبت آخر. أي نوع من الغيرة هي تلك الغيرة بأثر رجعي على امرأة ميتة؟ ودا - أماتو بساقه الخشبية، بذوقه الفظ. سيترك الساق مستندة على الحائط ويستلقي على الفراش بالبتر مكشوف. لماذا كل هذه المعومات؟ أمر اعتيادي، قال باركر. يطلقون عليه بروفيل، لكن يصعب استنتاج الأفعال والقرارات

Twitter: @alqareah

من هذا، إنها الإطار، خريطة حياة. إيدا كانت طالبة كلاسيكية متمردة أثناء دراستها في بيركلي، كانت مقربة من الفهود السوداء، زارت مقاتلي الجيش الشعبي البورتوريكي(*) في السجن، لكن لم توجد دلائل على مشاركتها في أنشطة سرية. هذا بالنسبة لـ(إف بي آي) قد يكون دليلاً على أنها كانت عضوة بجماعة فوضوية تقوم بأمور غير قانونية، قال باركر. بالطبع، عدم وجود أدلة قد يكون دليلا، قلت له. الإرهابيون، قال باركر، يعيشون حياة أكثر طبيعية من كل الرجال العاديين الذين يرونهم وحوشًا دمويةً. تلخيصًا، أضاف، إيدا براون يمكن أن تكون مذنبة أو ضحية، و(إف بي آي) يفضل أن يتظاهر بأنه لم يحدث أي شيء لكي يفاجئ المعتدي أو الشريك. ربما تنتمي إلى جهاز المعاونة لمنظمة إرهابية مفترضة وماتت بينما تتعامل مع القنبلة التي كان يجب أن ترسلها (بل وقد لا تعرف أنها قنبلة). أيضا يمكن أن يكون حادثا، توجد قرائن على أنها أحيانًا كانت تحمل في السيارة جالون بنزين لأنها تخشى أن ينفد منها الوقود في منتصف الطريق، وقد يكون قد انفجر بسبب شرارة من النظام الكهربائي للسيارة. غريب، أليس كذلك؟، لكن توجد بقايا زجاج في أرضية السيارة، و(إف بي آي) يتمسك مبدئيا بفرضية الحادث. التحقيق حول إيدا كان معلقًا، ويعتمد على المعلومات التي يمكن التوصل لها بينما يتم تضييق الحصار على مستر ريسكلر. إن كان يتم تضييقه. (إف بي آي) أنفق مليوني دولار واستجوب أكثر من خمسة آلاف شخص. الخمسون أو الستون المشتبه بهم والذين تم اعتقالهم عشوائيًا، تم الإفراج عنهم بعد

(*) منظمة سرية كانت تسعى لاستقلال جزيرة بورتو ريكو عن الولايات المتحدة، وكانت لها خلايا ومتعاطفون داخل الأراضي الأمريكية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

استجوابات صارمة. البلاغات المُجهلة تم الكشف عن أصحابها لدى التحقق من البلاغات الخاطئة أو الكيدية. المكالمات التليفونية التي تتم في اليوم التالي لكل اعتداء بنية الإعلان عن المسئولية كانت تأتي من مختلين عقليا أو مهيّجين أو مازحين. والشابان أو الثلاثة الشاحبون - مشاهدون مدمنون لمسلسلات تليفزيونية حول علماء مختفين في ظروف غامضة (The big Secret) أو قتلة يروّعون قرى صغيرة في الريف (Twin Peaks) الذين تم اعتقالهم على الفور، لم يتلقوا عقابًا على جرائمهم المتخيلة، باستثناء الدخول للقسم النفسي في السجن الفيدرالي.

كان التحقيق في نقطة ميتة. كانوا ينتظرون تحركا من الإرهابيين. يبدو لهم مستحيلاً أن مجموعة - أو شخصًا واحداً بمفرده- تظل طوال هذه السنوات من دون دعم ومن دون علاقات على السطح. ربما حاولوا هذا مع إيدا. ربما قاموا بتجنيدها لكي تقوم بمهام ثانوية، بل ربما كانت لا تعلم عواقب هذه العلاقة. يطلبون منها أن تحمل لفافة إلى البريد وهي تقوم بهذا. منيندث متمسك بقرار التحكم في المعلومات إلى أقصى درجة. (إف بي آي) يريد إعلامًا موجهًا في هذا الأمر: توجد معلومات مضادة وتسريبات متعمدة، لأنهم لا يريدون أن يمنحوا الجناة الشهرة التي يبحثون عنها (إف بي آي لا يريد لفت الأنظار. يحتفظ سرًا بحقيقة أنهم يحققون في سلسلة اغتيالات، معللين هذا بأنه كلما عرف الجمهور معلومات أقل، أصبح عملهم أسهل)(*).

(*) هذه الفقرة وردت بالإنجليزية في النص. وهي تكرار للمعنى الذي تم ذكره في السطر السابق، لكن الشخصية الروائية تقوم بإعادة كتابتها مرة أخرى، كما حدث في مواقع أخرى من النص. (المترجم).

Twitter: @alqareah

عادة مثل هذه الأفعال تتم، ليس كهدف مباشر، وإنما لصداها في نشرات الأخبار. الإرهاب إعلام مسلح، وسيلة للانتشار مثل أي وسيلة أخرى، قال بصوت مرهق، منهيًا اللقاء. تواودعنا ودفعتُ لباركر - عدا ونقدا - ألفي دولار لكي يواصل التحقيق.

ـ ٤ ـ

في محطة بن صعدتُ إلى القطار الذي سيعود بي، بشعور بالخواء في الصدر، كأنني بطل لحكاية عاطفية. اشتريت زجاجة ويسكي للجيب ووضعتها في كيس من الورق المقوى البني، ومن وقت إلي آخر كنت أتناول جرعة. العربة كانت نصف فارغة، كانت الرابعة عصرًا تقريبًا، وفي تلك الساعة يبدو أن من يسافرون هم فقط العجائز المحتضرون والمراهقون الذين هربوا من المدرسة ويسافرون إلى ترينتون لقتل الوقت. أتذكر أنني حاولت أن أدون بعض المعلومات من اللقاء مع باركر، لكن حالتي النفسية وحركة عربة القطار جعلتا ملاحظاتي غير مقروءة تقريبًا، ولم أستطع فهم ما كتبته ذلك المساء وسط اهتزازات القطار والتراكم البطيء للكحول اللذين كانا يشوهان خطي وأفكاري. "الذكاء ليس أداة ثانوية في الجنس، كما يقول ممارسو الرياضة والمهرجون؛ على العكس تماما، الجنس خاضع لصفاء الذهن". صفاء الذهن؟ هذه هي التفاهات التي أكتب عندما أكون يائسا، وهذه هي الجملة الوحيدة التي أمكنني فهمها في صفحتين ونصف الصفحة من الكتابة العبثية بخط مرتعش. رغم هذا، على الجانب، توجد قائمة متقنة التنسيق. "شراء برتقال، مياه معدنية، لمبات، الذهاب إلى جراميرسي بارك. الساق الخشبية، الشعر المصبوغ بلون الفئران، الولايات المتحدة الأمريكية يو إس إيه يا خونة!"أعتقد أنني نعست. عندما استيقظت

Twitter: @alqareah

لم يتبق في العربة سوى شابين بقبعات على الرأس يسمعان الووكمان، ويتحدثان في التليفون المحمول، خاويين، متباهيين. ولماذا، بعد كل هذا، كانت تميل إلى دا- أماتو؟ هل كانت لها مغامرات مع زملائها فقط؟ كانت تستخدمهم مثل قطيع من الديوك. كنت أشتعل بالغضب عندما أتخيلها واقفة في غرفة النوم بأضواء خافتة، تنظر إلى جسد دا ـ أماتو العاري، مستلقيا على الفراش بالساق المبتورة والندوب. لم أستطع إخراج هذا من رأسي. كنت أراهما على الفراش، في واحد من أكثر أوضاعها انحطاطا، ودا-أماتو يلعب دور الجندي السابق الذي أصابته الحرب بالجنون، دور الأعرج الذي يدخل غرفة الفندق. أكثر ما كان يضايقني الشَدّة في لقبه، فاصلة لا فائدة منها ترفع من شخصيته المبالغ فيها، كأنه يظن نفسه دي- أرتجنان، بينما هو في الحقيقة بورتوس. ضخم، مسيطر، متحمس. كان قد حصل على ميدالية لشجاعته في كوريا، عمل في حملة والاس، مرشح اليسار الأمريكي في حقبة الخمسينيات، وعندما ضاقت عليه الأمور بسبب المكارثية لجأ للأكاديمية. بدأ في الجامعة الماركسية في مينسوتا، وهناك كتب عمله الاستثنائي حول ميلفيل. كان ابنا لإيطاليين. "كان قد حصل على ميدالية لشجاعته في كوريا." وماذا يعني هذا؟

كيف تكون خلية إرهابية في الولايات المتحدة؟ ربما تكون إيدا قد انساقت خلف معارضتها النظرية للرأسمالية وأقامت علاقة مع جماعة فوضوية. كنت أعرف حالات شبيهة في الأرجنتين، اتصالاً، اجتماعات، مهام معاونة بسيطة. خارج التنظيم، الأعضاء المنتسبين. إعارة البيت، التوقيع على ضمانات للإيجار أو إعطاء العنوان لتلقي المراسلات. مهام صغيرة، إخراج سلاح من بيت محاصر بالشرطة،

Twitter: @alqareah

خوليا، زوجتي الأولى، قامت بهذا عندما اغتالت الشرطة إيميليو خاوريجي في مظاهرة في بوينس أيرس. الدخول للبيت كأنها صديقة للعائلة والخروج بقنبلة في حقيبة اليد الجلدية. طلبوا منها أن تحمل لفافة إلى البريد. ومن المحتمل أن شخصا ما كان معها في السيارة.

ذات ليلة في لا بلاتا في ١٩٦٣ أو ١٩٦٧ عندما كنت أدرس في الجامعة، عدت إلى البنسيون، وفي حجرتي، وجدت ناتشو أوريبي الذي لم أكن أنتظره جالسًا في الظلام. زميل في الكلية. كان يدرس الفلسفة. كنا في رابطة الطلاب، وأسسنا (التجمع الإصلاحي المستقل)، حيث انضم من لم يكن ينتمي للحزب الشيوعي (لهذا كان يطلق علينا مستقلين) وكنا إصلاحيين بسبب الإصلاح الجامعي. اندهشت، ناتشو كان ينتظرني، كنت مارا من هنا، قال، وشعر برغبة في أن يراني. في الظلام؟ هذا غريب، لم تكن بيننا الثقة الكافية، كنا قد حضرنا معًا إحدى الجمعيات العمومية، درسنا معا الفلسفة القديمة، تبادلنا المذكرات، تعارفنا في محاضرات الدكتور أجوجليا حول علم ظواهر الروح لهيجيل. أحيانا كنا نتناول القهوة، نتبادل التحية في طابور مطعم الجامعة، هذا فقط، لكنه كان هنا الآن.

كان الوقت شتاءً، رأسه مخبأ في ياقة المعطف. دخل لأن الشرطة كانت تبحث عنه، قاموا بمظاهرة في بيرسو، عند مخرج مصنع الثلج وحاصرتهم الشرطة. هرب ووجد نفسه بالقرب من البيت. هل يمكنه قضاء الليلة؟ لم يكن يرغب في العودة إلى بيته ولا الظهور، وفكر أنه لم يكن يخطر على بال أحد أن يبحث عنه هنا. دخل من دون أن يراه أحد، باب الشارع كان مفتوحًا دائمًا، وغرفتي

Twitter: @alqareah

بعد أحد السلالم. جلس في الظلام، مرتديا بنطلونًا جينزًا وقميصًا كأنه شخص آخر، مختلف عن الشاب الأنيق الذي كان يذهب للمحاضرات بالبذلة ورابطة العنق. ظللنا طوال الليل نشرب (ماتيه)(*). كان قد قتل رجل شرطة. لماذا أخبرني؟ وضع مسدسًا بايستير مولينا فوق المائدة، ملفوفا في قماش أصفر. في محطة القطارات رأى رجال شرطة بملابس مدنية، أفرادًا من الأجهزة السرية. مشى بجوار ستاد جيمنازيا لكي يختلط بالناس، تلك الجمعة كان جيمنازيا يلعب مع ريفر، وفكر في الاختباء وسط الجماهير، لكن في الملعب أيضًا كانت هناك مراقبة كثيفة. كان بحاجة لأن أتصل برقم تليفون وأقول إن سانتياجيتو بحال جيدة، وخرج من المستشفى. من الأفضل أن أتصل من تليفون عمومي. نزلت وذهبت إلى محطة البنزين في شارع ١٢، وكلمت الرقم الذي قاله لي، لكن لم يرد عليّ أحد. اشتريت بعض السلامي والخبز وعدت إلى البنسيون. كانت يداه ترتعشان عندما يشعل السجائر. رجل الشرطة كان أسمر، من تشاكو أو من كورينتس، من يدر. جندي بسيط بقي بعيدًا عن الفرقة، وناتشو تعثر به في أحد المخابئ. لم يكن مسلحًا، كان من شرطة مكافحة التظاهر، رفع شارته الفضية. لكن ماذا كان يمكنني أن أفعل، كان ناتشو يقول لي، كان هو أو أنا. في الصباح التالي ذهب. كان يفكر في المشي حتى لوس أورنوس، والخروج من هناك. وطلب مني أن أحفظ له "الشيء"، الملفوف في قماش أصفر. كان يعتقد أنه في ضوء النهار لا يمكن أن يحدث له شيء. في الوقت نفسه، كانت فتاة متنكرة بالطبع، بباروكة شقراء ونظارات داكنة، تقول إنها أتت لتأخذ كتاب

(*) Mate شراب تقليدى في الأرجنتين وأوروجواي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

ناتشو وحملت السلاح. كان هذا على الهامش. جزء من الدعم اللوجيستيكي. تم إنشاء (إف إيه إل)، إحدى أولى الجماعات المسلحة، بعد وقت هاجموا فرقة ميدان مايو. لم أره ثانية، لكنني عرفت أن العسكر اعتقلوه واغتالوه بعد خمسة عشر عامًا.

Twitter: @alqareah

Twitter: @algareah

الفصل السابع

عندما كانت طالبة في الدراسات العليا في بيركلي وقعت المواجهة التاريخية بين إيدا وباول دي مان. بدقة قاتل مسلسل، تحدثت في محاضرة للأستاذ لكي تكشف له أن قراءته لكونراد كانت سطحية، وأن اقتباساته كانت مختارة بشكل سيئ. قاعة ويلر كانت مكتظة عندما نهضت الشابة الواثقة من نفسها وتحدثت مع (المُعَلِمِ) الأوربي بابتسامة واسعة واحتقار واضح. ساد صمت مرشح للانفجار. لا يوجد أمر أكثر عنفا ووحشية من الصدام بين النجوم التي تولد والأساتذة الراسخين: إنها مواجهات من دون قواعد ثابتة، لكنها دائما مواجهات حتى الموت. دي مان لم يتعاف من هذه المواجهة وتراجُعَ مكانته مكَّن أن يقوم مؤرخ مجهول للحرب العالمية الثانية بالكشف عن مقالاته المنشورة في جريدة بلجيكية في الأربعينيات والتي تكشف عن أنه كان معاديًا للسامية.

دكتور دي مان، قالت له، بلهجةٍ كأنها تقول دكتور الأمراض، فرضيتك حول السخرية في الرواية تعتبر من دون سياق ومرتجلة.

Twitter: @alqareah

كل هذا بابتسامة، وحسب البعض، كانت ترتدي ساريًا هنديًا يكشف عن عريها. دُكنة شعر العانة، الناعم المخملي، الكثيف بشكل لا يصدق، كانت تثير ربطًا فوريًا بعنوان رواية كونراد التي أثارت النقاش.

لقد أهانته ومجموعة الصفوة والأكاديميين الشبان المعجبين بدي مان ودريدا كانوا يكرهونها أكثر من الطاعون، ولم يغفروا لها هذا مطلقًا. بالفعل، عملها الأول بعد الدكتوراه كان في الجيتو الراديكالي في جماعة كاليفورنيا في سان دييجو، حيث كان ماركيوز ويقوم بالتدريس جو سوميرس وفيدريك جيمسون.

ربما ماتت إيدا بينما كانت تتعامل مع القنبلة. على الأرجح بينما كانت تنقلها. حسب باركر، كانوا قد تتبعوا رحلات إيدا في السنوات الثلاث الماضية. ذهبت إلى إيوا، وكولورادو. وسافرت إلى إداهو، وشيكاجو. منيندث كان يبحث ولديه يقين إن إرهابي واحد هو ما قام بسلسلة الاغتيالات الهستيرية، لكنه لم يستبعد أن شخصًا ما ساعده. هل استبعد أن تكون امرأة؟ نظر لي باركر وتناول رشفة من عصير البرتقال. المحقق الذي لا يتناول كحوليات. لا توجد أي قضية في تاريخ الإجرام، حيث كان القاتل المسلسل امرأة، قال لي. هل كنت أنا من يفكر فيها في إطار بلادي وذكريات النضال المسلح؟ فتيات يدخلن ويخرجن خفية، يتنقلن سرًا عبر المدن بأسلحة، وبعد ذلك يعدن إلى بيوتهن ويواصلن حياتهن اليومية العادية. في النهاية لم أكن أعرفها، لكن، لماذا كنت أشعر بها شديدة القرب؟ اخترعتها، ربما، كما فعلت مرات كثيرة، لكي أصاب بخيبة الأمل بعد ذلك. تلك هي الأسئلة التي كانت تشغلني بينما أسير بلا هدف في شوارع البلدة. كنت قد وصلت إلى منطقة مشجرة، على حافة الغابة، وفي

Twitter: @alqareah

الساحة الصغيرة رأيت امرأة تتحدث مع قط ينظر لها من فوق شجرة ويلعق سيقانه، من دون اكتراث. المرأة كانت تحاول أن تقنعه بالنزول. "لا أريد أن يعيش حياة تشرد مقززة"، قالت. كانت امرأة عجوزًا، عليها سمت الخرف الخفيف الذي تعاني منه السيدات اللائي يكرسن أنفسهن لرعاية القطط الضالة. حكت لي أن القطة أنجبت صغارها في تجويف هذا الفرع الذي يمكن رؤيته في أعلى الجذع، وأنها حملت القطط الأخرى الوليدة، لكن هذا، من دون أن يُعرف السبب، قامت الأم بهجره.

عندما مررت في عودتي لم تكن المرأة موجودة والقط ما زال هناك. رماديًا، به بقع، عينان صفراوان. في السوبر ماركت العضوي حصلت على بعض اللحم المفروم واللبن. نزل القط عندما رأى الطعام وحملته إلى البيت. وفي الحال، جلس تحت الشمس في المدخل وظل يراقب الطيور التي تحلق فوق تكعيبة العنب. كان ينظر إلى الهواء بثبات، وبشرود، كأنه يلتقط ما لا يستطيع أحد أن يرى. (تحقيقات قط). تكيف بسرعة، أصبح مجاله في الصالة ذات الواجهة الزجاجية في آخر البيت، كان يمشي في الغرف، يصعد إلى السطح، عندما أقرأ يأتي معي ويقرقر. كان يحب مشاهدة التليفزيون ويواصل النظر للجهاز حتى لو كان مطفأً، كأنه ينتظر أن تظهر الصور البعيدة من جديد. كان ينام في صندوق أحذية، لم يكن يحب النور الكهربائي. الطبيب البيطري قال لي إنه بصحة جيدة، وأنني سأكون برفقة قط لوقت طويل. كان حنونا، يتبعني في كل مكان، ينظر للسقف بتعبير خاص.

إن ذهبت إلى نيويورك سأطلب من نينا أن ترعاه. ارتبطت به. كأنه يتعرف إليّ عندما يراني أدخل. على الفور يجلس على المقعد

Twitter: @alqareah

الكبير، كأنه ينتظر أن أجلس لأقرأ. صديقة إنجليزية قالت لي إن القط يساعد على التركيز، يصعد إلى المائدة حيث أعمل، ويستلقي بهدوء ويتمدد ويغلق عينيه. من دون تحسب، يكتسب المرء الطابع الهادئ للحيوان. لم تكن هذه حالتي، على العكس، كنت أنقل للقط حالتي النفسية وكنت أراه أحيانًا يخرج مسرعًا كأنه رأى شبحًا، وبعد فترة أجده مقرفصًا تحت دولاب المطبخ.

عندما أستعيد تلك الأيام أراها بوضوح مقسمة إلى مساحة واسعة من النور وشريط ضيق من العتمة: النور ينتمي لهدوء المكتبة حيث أمضي أياما كاملة بين الكتب، مهملاً كل شيء، لكن ظِلُ إيدا، والهوس بها وبماضيها كانا يرفرفان في الجو، مثل بقايا روسيا المفقودة لنينا، بلحظاتها البطولية وآلامها.

عندما يهبط الليل كنت أخرج للتجول بالسيارة. آخذ بروسبيكت حتى شارع واشنطن وبعد ذلك آخذ الطريق السريع وأمر أمام حيات، لكنني لا أتوقف وأواصل حتى ترينتون، نحو الأحياء الخاوية في المدينة، بمتشرديها يطوفون بالشوارع، بين نيران للتدفئة ومبان خاوية. الأحياء الحقيرة كانت قريبة من المركز الإداري للمدينة وكانت كالكابوس بالنسبة له، منطقة واقعها بها من دون محسنات. أحياء فقيرة، مبان نصف مهجورة، مصانع مغلقة، طرق ملغمة بدوريات الشرطة التي كان رجالها يتحركون ببطء في شوارع مليئة بالقمامة بين رجال عجائز ونساء شابات جالسات على سلالم مداخل بيوتهن.

أحيانًا كنت أركن السيارة في شارع صغير، أبحث عن كافيتيريا مضاءة وأجلس على البار. في أعماقه، شابان أو ثلاثة، ملابسهم

Twitter: @alqareah

سوداء وبعُرفٍ أصفر على الرأس يلعبون البلياردو. أغنية (كومبيا) كانت تصدر عن ماكينة المقامرة. كلهم هنا يتحدثون الإسبانية، بلكنات مكسيكية وبورتريكية. فتاة ببلوزة حمراء صعدت لترقص مع شاب طويل، عنقه وجزء من الوجه بهما أوشام. كلما ساءت حالتي شعرت بالعزلة أكثر، كأنني استطعت الابتعاد عن كل شيء باستثناء ذكرياتها التي تدور في رأسي. هل كانت متورطة؟ توتر حياة مفتتة، مكونة من أفعال تتكرر في سلاسل غير متصلة. ماذا كانت تخفى عني؟ ماذا يوجد وراءها؟ منيندث كان على دراية بحياتها السرية، تنكرها ولقاءاتها الليلية، لكن، هل يعرف شيئًا آخر؟ إن لم يكن الأمر هكذا، كيف أفسر مجيئه بنفسه لكي يستجوبني. أخذ جانبًا، في الممر، ونظر في ملاحظاته وتحدث مع أوكونر. هل أشارت البروفيسورة براون إلى السنوات التي أمضتها في بيركلي كطالبة للدراسات العليا؟ اندهشت. لم تشر لهذا مطلقًا. ربما كان فخا، ضربة لكي يسقطني ويرى ما أعرف. باركر يعتقد أن سنوات إيدا في بيركلي كانت الحياة التقليدية لطالب راديكالي في تلك الفترة. مسيرات من أجل السلام، خطابات مشتعلة، ساعات طويلة من النقاش في اجتماعات لا نهاية لها. (إف بي آي) كان يتتبع علاقات إيدا في تلك الفترة. لديهم قائمة بالأفراد الذين كانت تتردد عليهم. كانت يسارية مثل كثيرين، مرتبطة بجماعات الثقافة المضادة لكن بالفهود السوداء أيضًا. لم تفعل شيئًا لم يقم به طلاب كثيرون آخرون في تلك الفترة.

إن قمت بمراجعة ملاحظاتي، صفحات الدفتر الباهتة قليلاً تذكرني بالأوراق القديمة المكتوبة بالإسبانية، والتي عثر عليها هدسون بعد سنوات كثيرة في صندوق في لندن وبها ملاحظات

Twitter: @alqareah

حول الحياة في الأرجنتين، ومنها تأكد أن تلك الأوراق تحتفظ بآثار العاصفة الكبيرة في ١٨٥١. في الصحراء، الغبار يحجب السماء بأزيز لا يبدو أنه يتوقف أمام أي شيء، السكان كانوا يسيرون برؤوسهم محنية، القبعة مربوطة بمنديل معقود تحت الذقن، الجياد بأعين مغماة لكي لا تفزع. كنت أكتب ملاحظاتي في كل مكان، أحيانًا كنت أوقف السيارة لكي أدون شيئا على جانب الطريق. كأنني أريد تخليد خبرة هشة سيمحوها النسيان سريعا: عندما نسافر نصبح مثل ركاب قطار ليلي يتأملون مرور قرى مضاءة في السهل. بل إنني في تلك الأشهر، التي انغمست خلالها في الحادث بشكل غريب، كنت أشعر أنني منفصل عن الوقائع بزجاج شفاف. كنت أدون ما أستطيع، لكي أتيقن من أنني عشته ويمكنني تذكره. كنت أعود من الجيمنازيوم قائدًا السيارة عبر طرق جانبية، مبتعدًا عن الطريق السريع، سامعًا الأخبار في الراديو، دائمًا بأمل أن ينكشف كل شيء.

كان الفصل الدراسي على وشك الانتهاء، والطلاب بدؤوا في عرض موضوعات أعمالهم النهائية التي توقعتها بحدس تعلمت بعد ذلك أن أقدره وأعتبره كالسحر تقريبًا. راشيل طورت فرضية حول المتشردين لدى هدسون. يوجد الكثيرون، أكثرهم حضورًا، الناسك، فارس نصف مجنون كان يسافر في الريف مكلمًا نفسه ومتسولاً.

هدسون كان يعشق هذه الحياة الحرة، التي كانت دليلاً على احتقار الأملاك والمال. الجاوتشو والهنود في كتب هدسون ينتمون لهذه الفئة، لكن المتشردين أو مهلهلي الملابس - كما يطلق عليهم في الريف - كانوا يجسدون تلك القيم بنصوع أكبر. شيء من هذا موجود لدى تولستوي، قالت راشيل، والنساك الروس الذين يجوبون

Twitter: @alqareah

الريف طلبا للإحسان. المتسولون كانوا موجودين دائما، قالت بعد ذلك. موجودون في الإنجيل. المزامير في معظمها هي أنشودات للمتسولين يعبرون عن معاناتهم. وفي الأوديسا أُجبر عوليس - المتنكر كمتشرد لكي لا يعرفه أحد - على الصراع مع إيرو، الشحاذ الذي يطرق أبواب القصور في إيتاكا.

المتشردون والشحاذون رأوا، أثناء جلوسهم على قارعة الطريق، قرونًا من التاريخ تمر أمامهم: الإمبراطوريات تسقط، تقع الحروب، تتغير الصيغ السياسية والأنظمة الاقتصادية، لكن دائمًا يوجد شخص ما يتسول ويهيم على وجهه مغطى بخرق. راشيل، ابنة لرجل أعمال من سيناسناتي، التي ذهبت إلى أفضل المدارس، كانت تستشهد بسيمون وايل، وتُقَدِرُ أسلوب الحياة، المرتبط بالفقر والتضامن.

بعد انتهاء المحاضرة، نزلت مع الطلاب واستودعتهم عند باب الحرم. على جانب، كالعادة في تلك الساعة، كان أوريون يستريح تحت الأشجار جالسًا على إحدى المصاطب المطلة على الشارع. يبدو تجسيداً لما ناقشنا في المحاضرة، لكن لم يعد أحد يراه. كما كان يحب أن يقول، من يرد أن ينظر إلى حالي؟ نقطة سوداء في الرمال. الاقتراب نعم، لكن عندما يرون الشخص حيًا، مشرداً وبملابس مهلهلة، كانوا يعطونه ظهورهم. كان هو الناجي من الغرق، وحملته العاصفة إلى الشاطئ. كان يتحدث طوال الوقت باستعارات، كأن الحياة في الشارع تؤثر على لغته وتدفعه إلى الترميز. مستلقيًا على المصطبة بوجهه على يده والجسد معتمد على كوعه، كان يستمع للراديو. لم يكن يصدق ما يسمع. هل فهمت جيداً؟ تلقت نيويورك تايمز رسالة من مجموعة فوضوية تدعى فريدوم كلوب.

Twitter: @alqareah

الاسم كان ينطبق على الأحرف الأولى FC التي تظهر على اللوحات المعدنية الموجودة في القنابل. من لا يرد تفجير العالم؟ قال أوريون، بينما كان يعبث بالراديو.

بالفعل، كانت المرة الأولى التي يقوم فيها (مستر ريسيكلر) بالاتصال. الرسالة تم إرسالها من مدينة إيليونز، وفي الساعة نفسها واليوم نفسه الذي قام فيه بإرسال اللفافات المتفجرة التي قتلت خبيرًا في الكمبيوترات في وادي السيليكون، وجرحت سكرتيرة عالم بيولوجيا في المعهد التكنولوجي في ماساشوستس. بالإضافة إلى هذا كانت الرسالة تحتوي على عبارة صعبة القراءة، تبدو كأنها رسالة متروكة عفوًا لدى الكتابة بالقلم الرصاص على ورق الرسالة. بتحليلها بالآشعة تحت الحمراء كان مكتوبًا (اتصل بناثان ر. الأربعاء السابعة مساء). بحث (إف بي آي) عن شخص بذلك الاسم وذلك الخط، لكنها كانت مرة أخرى مزحة من (ريسكلر) خفيف الظل. لا يوجد شخص بهذا الاسم يبدأ لقبه بحرف ر. كانت تتضمن شفرة للتحقق من تصريحاته المستقبلية. الكود كان رقم التأمين الاجتماعي لمحبوس في السجن الاحتياطي في سونورا، في كاليفورنيا. منيندث وأربعة من عملائه وصلوا إلى السجن ودخلوا إحدى الزنازين. المعتقل كان زنجيًا، متهمًا بالقتل، كان يعمل حارس غابات في مونتانا وقتل عدة سياح قاموا بنصب مخيمهم في الجبال وأشعلوا نيرانا تعرض المنطقة للخطر. قتلهم ودفنهم في كهوف تلال الشمال. لا يعرف شيئًا، لا يفهم عما يحدثونه. حملوه إلى صالة خاصة لاستجوابه، أشعلوا الأضواء، جعلوه يتعرى، وحينئذ، مندهشين، اكتشف العملاء أن صدر الرجل كان يحمل وشما يقول (خشب طبيعي). أيا من قام بإرسال الخطاب، فقد كان يسخر منهم.

Twitter: @alqareah

منذ تلك اللحظة، حسب باركر، حبس منيندث نفسه في مقره في العاصمة واشنطن مع مجموعة خاصة من (إف بي آي)، كأنه يلعب مباراة شيطانية للشطرنج مع عبقري، ويلجأ لأفضل المحللين الموجودين لكي يدرسوا المباراة ويتوقعوا الحركة التالية لـ(ريسكلر)، مع أزيز تكييف الهواء، تحت الضوء الأبيض لأنابيب الفلورسنت، شاربين القهوة، مدخنين، بدأت المجموعة في العمل في خرائط ومخططات بيانية ومعادلات رياضية. الآن أصبح منيندث يعرفه بشكل أفضل: غريمه حب للمزاح، فتى سيئ التربية يقوم بالقتل عشوائيا، لكن لا توجد عشوائية؛ يجب عليه أن يدخل في اتصال مع عقل القاتل، أن يفكر مثله، أن يعرف الاحتياطات التي يتخذها الإرهابي قبل أن يقوم بعملياته.

كل القنابل المرسلة كانت تحتوي على كلمة وود wood (غابة أو خشب): في العنوان (وود ستريت)، المرسل (دكتور هارولد وود)، المرسل إليه (جون وود). لكن قراءة الإشارات من دون شفرة متفق عليها يمكن أن تؤدي إلى الجنون. على سبيل المثال، في اللغة السكسونية القديمة، "وود" تعني "مجنون"، وأيضا كان معناها "عقل فائق". في كتابات تشوسر كلمة "وود" تعني " منتشٍ" و "منتصب".

منيندث كان يبحث عن نموذج، نظام، مؤشر يسمح له باتباع طريق. كأنه يقرأ الأفكار، أو لديه من يخبره، بدأ (ريسكلر) في جعل تلميحاته أكثر تعقيدا، وهو ما بدا كتحدٍ. ذات مرة عثر المتخصصون على إشارة لاستيقاظ فينينجز(*) لجويس. القنبلة التي قتلت باحثًا

(*) استيقاظ فينينجز، رواية لجيمس جويس، معروفة بأسلوبها التجريبي واشتهرت بكونها أحد أصعب الكتب في الأدب الإنجليزي . نشرت طبعتها الأولى عام ١٩٣٩، قبل عامين من رحيل جويس. (المترجم).

Twitter: @alqareah

في نقل الأعضاء في نيو جيرسي تم إرسالها باسم (H. C. Ear Wicker) في السكسونية القديمة، "ويكر" تعني "وود". لكن (H. C. EarWicker) هو بطل رواية جويس، شخصية كانت تنتحل اسم "نورس جود ودين"، الذي يوحي بعفاريت الغابات في الميثولوجيا الإسكندنافية. منيندث كان حانقًا. كان من المستحيل التكهن بما تريد أن تقول هذه العبقرية الحمقاء، باستثناء أن يفسروا كل الإشارات كرسالة. حينئذ قام فليم أرجاند، العميل الخجول ضعيف البنية المتخصص في الأدب، بتذكر أن علماء الفيزياء والرياضيين كانوا قراءً كبارًا لفينينجز، وأن كوراك، الجزيء غير المرئي في أصل الكون، كان اسمه تكريما لرواية جويس لأن العلماء استوحوا الاسم منها. علماء الرياضيات عقولهم فائقة ويشعرون بالملل لأنهم عادة يفقدون قدرتهم الإبداعية قبل الخامسة والعشرين، ويصبحون خارج اللعب، بعد أن يتفوق عليهم عباقرة جدد مراهقون يخترعون معادلات ويحلون ألغازًا، بينما القدامى يظلون كالديناصورات أو المحاربين المتقاعدين وأحيانا يعودون لإعطاء كورس، لكنهم يكرسون معظم وقتهم لقراءة جويس.

منيندث كان تائها. كانت أمامه خريطة للولايات المتحدة بأضواء حمراء على الأماكن التي تمت بها الاغتيالات: إيوا، كولورادو، كاليفورنيا، نيو جيرسي، تكساس، كارولينا الشمالية. من المستحيل أن يقوم رجل واحد بتغطية تلك المناطق. نعم، صعب، لكنه ليس مستحيل، رد عليهم منيندث، حسب ما قال باركر. كان مقتنعًا أنه يحارب شخصًا من فصيلة الدكتور موريارتي، الغريم الكبير لشرلوك هولمز الذي قضى على حياته. قرر تغيير بروفايل الإرهابي وأصبح يصفه بأنه رجل ذو ذكاء يفوق المتوسط، وحاصل على

Twitter: @alqareah

دراسة أكاديمية. كما أضاف لأول مرة توصيفًا سياسيًا عندما عَرَّفَه بأنه من أنصار البيئة و (نيو لادي)(*). مثل اللا ديين الذين كانوا يدمرون الماكينات خلال الثورة الصناعية، كان (ريسكلر) - بأهدافه وضحاياه - يبدو معارضًا للتقدم التكنولوجي، ومثل أنصار البيئة المتطرفين، كان يقوم بالإشارة دائمًا إلى الغابات والحفاظ عليها. منيندث أمر باختراق جماعات النشطاء الذين يعرقلون محاولات تحويل الحدائق الكبيرة إلى ضواحٍ والأشجار إلى ورق صحف.

وأيدت نينا على الفور فرضية الإرهابي الواحد. يجب تخيل رجل يبحث عنه أكثر أجهزة الشرطة فاعلية في العالم، ذئب يقنص بمفرده، وحيد، من دون اتصالات ، من دون علاقات. في روسيا، قبل البلشفيين، كان الثوار يعملون منفردين، لم يرغبوا في توريط أحد، أحيانا كثيرة كانوا يهجرون أصدقاءهم وأبناءهم. على سبيل المثال، فيرا زاسوليش، التي أطلقت النار على القيصر ووضعت قنبلة في مكاتب البوليس السري، كانت تتحرك بمفردها في المدينة، وكانت شجاعة وقوية. ماركس، في ١٨٨١، كتب لتلك المرأة الاستثنائية أن الإرهاب كان طريقة روسية خالصة، وتاريخيًا لا يمكن تفاديه، لهذا لا يوجد سبب للحكم الأخلاقي، سواء لصالحه أو ضده. القائد الشعبوي الروسي سيرجي نيشاييف نشر (تعاليم

(*) Luddism اللادية، حركة عمالية ظهرت في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر، ونشأت كاحتجاج على ميكنة العملية الصناعية وما تبعها من تخفيض للأجور وتسريح للعمال. كان العمال يقومون بتدمير الماكينات وتخريب المصانع احتجاجًا على ظروف العمل الجديدة. ويعود اسم الحركة إلى «نيد لود» الذي لم يتم التأكد من وجوده كشخصية حقيقية، لكن هذا الاسم اشتهر كقائد للحركة العمالية وأطلق عليه الجنرال نيد، وهذا يرجع لكونه شخصية خيالية اخترعتها القيادات العمالية لتشتيت جهود الشرطة والجيش في البحث عنه. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الثوري)، الذي كانت فقرته الأولى الشهيرة تقول: "الثوري رجل مفقود، لا توجد لديه مصالح شخصية، ولا قضايا خاصة، ولا مشاعر، ولا عادات ولا أملاك؛ إنه حتى لا يمتلك اسمًا. كل شيء فيه كان موجهًا لهدف واحد استثنائي، لشعور واحد، لعشق واحد: الثورة".

الاعتقاد المدمر بأن التاريخ يقوم على قوانينه الخاصة شرعن الجرائم السياسية. عندما رحلت نينا عن باريس، كان الجدال بين سارتر وكامو قد وصل إلى هذه القضية. كامو كان يرفض قبول سفسطة أن التاريخ (هذا المعنى المجرد) يبرر أي فعل. سارتر على العكس كان يعتقد أن العنف الرأسمالي كان يدافع عن نفسه، بينما كان يجب على من يواجهه أن يعثر على أسباب للدفاع عن نفسه.

ـ الرافض، المدمر، يسعى نحو تحويل العالم إلى رماد لكي تنهض من هذا الرماد عنقاء نقية ونبيلة. لكن، أين العنقاء بحق الشيطان؟ قالت نينا.

-لا حاجة لطائر العنقاء: الإرهابي لا يقتل بدافع شخصي، ولا للانتقام، يقتل لفكرة، على طريقة فيلسوف أفلاطوني.

– بمرور الوقت يزداد شحوبك يا عزيزي، وتبدو أكثر حيرة. من الأفضل أن تذهب لتنام، قالت نينا.

يبدو أنها كانت قلقة عليّ، أخذت ذراعي ورافقتني. توادعنا في حديقة بيتها تحت نسيم الربيع الذي يعلن عن نفسه.

دخلت لجلب المال وذهبت إلى محل كحوليات الباكستاني في شارع ناساو، واشتريت زجاجتين من النبيذ الأبيض وعدت في جولة عبر طريق بروسبكت. نينا كانت تعتقد أن موقف تولستوي من اللا

Twitter: @alqareah

عنف ولا مقاومة للشركان ردا مباشرا على الطريقة التي قام بها الإرهاب بفرض أساليبه على النضال ضد القيصرية.

مشيت بينما أقلب تلك الأفكار، لكن عندما دخلت البيت اندهشت لعدم ظهور القط لدى وصولي. وهكذا أخذت في النداء: ميتشي، ميتشي، ميتشي. عادة كان يقترب، يتمسح في ساقي بذيله المرفوع بأناقة، بينما أداعب رأسه لأسمعه يغمغم. لكن القط لم يكن موجودًا. خرجت للبحث عنه كغبي في الحديقة، مناديًا عليه بكل الطرق الممكنة، حتى عثرت عليه في شجرة شارع بروسبكت حيث التقطته. كان ينظر لي بشيء من السخرية. كان يفضل أن يكون قطًا متشردًا على الحياة طوال اليوم بين الكتب. شعرت بالغضب وأمسكت به لكي أنزله، خدشني وحاول أن يعضني، حينئذ حملته ووضعته داخل صندوق القمامة الكبير في الحديقة. وأغلقت الغطاء. كانوا سيرمونه بالرافعة الآلية في العربة التي تكبس القمامة. تخيلته متحولاً إلى قط مدهوس، مستو كورقة، إلا إن كانت لديه القدرة على الهرب، وحينئذ فهو يستحق الحياة. كنت أتسلى بفكرة أن القط يعرف ما يحدث. بينما أبتعد سمعته يموء ويضرب جدران الصندوق المعدني. في منتصف الطريق عدت وأخرجته وتركته في وسط الشارع. عندما رأى أنه حر انطلق جاريًا مثل البرق. شعرت أنني حائر، جريح، القط جعلني أنزف، كان ذراعاي مخدوشتين، جلست في الشارع بقبضتيّ مضمومتين على العينين وحينئذ أدركت أنني أبكي مرة أخرى.

قضيت الليلة نزيلاً في المركز الطبي للجامعة. طبيب شاب كان يتحدث كثيرًا من دون أن يقول شيئًا له معنى قام بتضميد يدي اليسرى، فحص حدقتي العينين بكشاف وبعد ذلك تجويف الأذن

Twitter: @alqareah

اليمنى. أنا أعسر وهو كان متأكدًا أن ميلي الخفيف إلى اليسار أثناء المشي كان بسبب قصور عصبي. قام بعمل بعض الفحوص، أراد أن يرى ردود أفعالي. أوصل أسلاكًا بجبهتي ووزع المجسات على أجزاء أخرى من الرأس. طلب مني الكلام وأخذ مؤشر في رسم خطوط على ورق مربعات. كان يوجه لي أسئلة ويعطيني أوامر. أين اليمين، أغلق عينيك، من فضلك ألمس طرف الأنف باليد اليسرى. الآن، من دون فتح العينين، قف على قدميك. أظن أنه كان ينتظر أن أسقط أو أصاب بالشلل. كنت على وشك أن أحقق أمنيته، لكن أعتقد أنني نمت أثناء الفحص.

في اليوم التالي، بينما كنت أنتظر التشخيص، جالسًا في صالة الطوارئ، رأيت رجلا غير قادر على الحركة تقريبا يدخل. كان مدمنًا سابقًا للكحول، وعاد مرة أخرى للشراب؛ قضى يومين متجولاً في بارات ترينتون. قبل أن يحولوه إلى مستشفى التأهيل كان يجب أن يخلصوا جسده من السموم. بعد قليل وصل ابنه، ذهب إلى الاستقبال ليملأ بعض الاستمارات. الرجل لم يتعرف إليه في البداية، لكنه في النهاية نهض، ووضع يده على كتفه وكلمه بصوت خفيض عن قرب شديد. الشاب كان يسمعه كأنه يشعر بالإهانة. في متاهة العبارات المعتادة في تلك الأماكن، ممرض بورتريكي شرح لحامل نقالة زنجي أن الرجل فقد نظارته ولا يرى. "الرجل العجوز فقد عدساته المكبرة"(*)، قال، "وهو لا يستطيع رؤية أي شيء". الكلمة الإسبانية المهجورة برقت مثل ضوء في الليل.

(*) العبارتان بين علامات التنصيص مذكورتان بالإنجليزية في النص، لكن كلمة (عدسات) مذكورة بالإسبانية، ولم تعد تستخدم في الإشارة للنظارات. (المترجم).

Twitter: @alqareah

في النهاية جعلوني أدخل، شرح لي الطبيب أن فقداني للاتزان وليالي أرقي كانا مرتبطين بالإفراط في العمل. يجب أن أهدئ الإيقاع وأرتاح، وصف لي مهدئات ونصحني بالعودة لبلدي. بالطبع لم أقل له شيئًا عن موت إيدا لأنه لم تكن له علاقة بالأمر. في ذلك المستشفى مات هيرمان بروش. وعندما سألته في أي صالة كان نزيلا، نظر لي كأنني أهذي.

عندما خرجت من المستشفى، مشيت باتجاه الشارع الذي تركت به السيارة، وهناك على جانب، وجدت مدمن الكحول السابق واقفًا بجانب عمود إضاءة. كان قد ارتدى قبعة جلدية، على طريقة لينين، عندما رآني أقترب وطلب مني بتهذيب أن أوصله إلى محطة القطار. ذهبنا معا وانتهى بنا الأمر في التافرن، بار على ألكسندر روود. كان سيتناول كأسا لكي يستعيد بهجته، لأنه لن يذوق بعد ذلك نقطة واحدة طوال حياته. كان يفكر في الذهاب إلى بيت أخته في بوسطن لكي يدخل مصحة بعد ذلك. قام بتدريس الاقتصاد في الجامعة، وبعد ذلك أصبح مديرًا لمكتب استشاري في وول ستريت. البورصة كانت تجارة كبيرة في تلك الأيام، لأن الأفراد أصبح بإمكانهم المضاربة، شراء وبيع الأسهم، عن طريق الإنترنت، من بيوتهم. الكثيرون كانوا يتركون عملهم لكي يتخصصوا في المضاربة المالية، وهو كان يقدم استشاراته لهم مقابل عمولة. كان يخاطر معهم لكن ليس بماله الخاص. كان يربح منذ وقت طويل ما يقرب من مليون دولار في العام، لكنه كان عملا بدوام كامل ولأعصاب فولاذية، عندما تبدأ بورصات طوكيو وسيول في العمل تغلق بورصة نيويورك، بينما تكون أخبار فرانكفورت وباريس قد انتشرت على المشاع. كان ضجرا بتلك الحياة، يستيقظ في السادسة صباحًا،

Twitter: @alqareah

يأخذ قطار أمتراك في جونكيشن، يسافر متصلا بكمبيوتر محمول، مدونًا طلبات وعاقدا الصفقات. في محطة بن تنتظره ليموزين وتحمله إلى مكتبه في وول ستريت، وهناك يظل حتى الخامسة، عندما يبدأ العودة. كان يصل إلى بيته في نحو السابعة، يشاهد الأخبار في التليفزيون لبعض الوقت ويذهب لينام. أحيانا كان يستيقظ بعد ساعتين ويعمل على الكمبيوتر. الكثير من المال، الكثير من الإثارة، وبدأ يشرب. أحيانًا كان يفقد رأسه، أحيانًا كان يفقد أعصابه، وكثيرًا ما كان ينسى ما حدث عندما كان ثملاً. ذات مساء وصل إلى بيته في تلك الساعة كالعادة ووجد اجتماعًا مفاجئًا تم إعداده لإنقاذه. أصدقاؤه لأعوام مضت وعائلته كانوا قلقين ويريدون أن يقولوا له إن الكحوليات أفقدتهم صديقًا محبوبًا ورجلاً مثاليًا. كل منهم قرأ الرسالة التي كتبها بصوت عال وكلها كانت تتحدث عن الصداقة وعن الحياة، ويذكرون مواقف طريفة من الماضي. كل شيء كان عاطفيًا، مليئًا بالنيات الطيبة والآمال الزائفة لدرجة أنه بدا كمشهد ساخر. زوجته أعدت حقيبته لأنهم كانوا سيدخلونه المصحة في تلك الليلة نفسها. لكنه هرب منها، والآن لم يكن يعرف جيدًا أين يذهب. كانوا قد جمدوا حسابه في البنك. ذهبنا إلى ماكينة الصرف في نهاية الرصيف وأعطيته مائتي دولار. اندهش وذهب هادئًا على الجسر، متجها إلى الجانب الآخر ليأخذ القطار المتجه إلى فيلادلفيا. تخيلته في كافيه إنترنت متصارعًا مع الوسطاء اليابانيين، مستخدمًا المائتي دولار لكي يربح شيئًا من المال في بورصة طوكيو وتأجير سيارة والهرب إلى الجنوب.

قرار منيندث بقمع الجماعات المناصرة للبيئة واعتقال زعمائها أدى إلى موجة من الاعتراضات في الدوائر الثقافية في نيويورك

Twitter: @alqareah

ولوس أنجلوس. وكُشِفَ عن الكثير من المضايقات والانتهاكات. في أواخر مايو، أرسل فريدم كلوب رسالة ثانية إلى نيويورك تايمز. ظرفًا أبيض، باسم (فرانسيس بن أمنيفرد)، والذي تشكل حروفه الأولى اختصار (إف بي آي)، وعنوان ٥٤٩ شارع وود، بحيرة وود سي أي ٩٢٣٦٨. بداخله ملاحظة قصيرة مكتوبة بخط اليد تطلب أولا أن يتم إيقاف القمع الموجه للجماعات البيئية، وثانيًا يعلن أنه سوف يقوم بإرسال نص حول "المجتمع الصناعي ومستقبله"؛ إن تم نشر النص في الصحف ستتوقف الاغتيالات.

بعد بعض المشاورات والنقاشات سمحت الوكالة الفيدرالية بنشر المانيفستو. وفقًا لباركر، وزع منيندث المانيفستو على مستشاري الوحدة، لمعرفة إن كان ممكنًا العثور على ملمح في أسلوبه يسمح بالتعرف إليه. تم نشر المانيفستو في الأسبوع التالي في نيويورك تايمز وواشنطن بوست.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل السادس

ـ ١ ـ

بخلاف كتيبات الدعاية السياسية المعهودة، كان (المانيفستو حول الرأسمالية التكنولوجية) مقالاً منهجيًا، مكونا من فقرات مرقمة في متتاليات مواضيعية على طريقة الفلسفة التحليلية. لا توجد فصاحة ولا شعارات عدائية، المؤلف كتبه كأكاديمي وليس كسياسي. "كمعلم أكثر منه كنبي"، قالت نينا في محاكاة لبرتراند راسل الذي يثير إعجابها. أرسطو، كما قال راسل، "كان أول من تكلم كمعلم وليس كنبي".

توجد رؤية واضحة حول طريقة نشر رسالة في الوقت الحالي (المتخم بالكلمات وبالضجيج). الاتجاه للشر، قرار القتل كان مرتبطًا بالرغبة في إيصال الصوت. (أنقل الفقرة ٩٦) حرية الصحافة في المانيفستو. "أي شخص معه شيء من المال يمكنه أن يطبع نصًا أو ينشره على الإنترنت، لكن ما يقال سوف يتوه في الكم الضخم الذي تنتجه وسائل الإعلام الجماهيرية ولن يكون له أي أثر عملي. إذن،

Twitter: @alqareah

جذب انتباه المجتمع بالكلمة يصبح مستحيلاً تقريبًا لمعظم الأفراد والجماعات. على سبيل المثال، نحن Fc فريدم كلوب، إن لم نكن قد قمنا ببعض الأفعال العنيفة وأرسلنا هذا النص إلى ناشر، على الأرجح لم يكن سينشره. إن كان قد قَبِلَ ونشره، على الأرجح لن يقرأه الكثيرون، لأن التسلية الشعبوية التي تقدمها وسائل الإعلام جاذبة أكثر من قراءة مقال جاد. حتى لو جذب هذا النص قراء كثيرين، فسوف ينساه معظمهم بسرعة في ظل كم المواد التي يُغرق بها الإعلام عقولنا. لكي ننشر رسالتنا بإمكانية أن يكون لها أثر مستدام اضطررنا إلى قتل بعض الأشخاص".

إنها المرة الأولى التي أسمع شيئًا كهذا، قالت نينا. قتل "بعض الأشخاص" للحصول على قُراء. إنها فقرة مرعبة. الإرهابي ككاتب معاصر، الفعل المباشر كاتفاق مع الشيطان. أفعلُ الشر الخالص لكي أطور أفكاري وأعبر عن آراء تضع المجتمع بأكمله على المحك. الضمان الحقيقي تم إعطاؤه لأن مؤلفه استطاع التلاعب بشبكات المراقبة والقمع الخاصة بالنظام، عبر القيام بعشرات الاغتيالات بقنابل منزلية الصنع من دون الوصول إليه خلال عشرين عامًا تقريبًا.

نقد الرأسمالية كان في قلب الأطروحة، باعتباره نظاما معقدا، لديه قدرة كبيرة على الانتشار والتجدد التقني. من دون الدخول في تفاصيل عاطفية عن غياب العدالة الاجتماعية، قام المانيفستو بتعريف الرأسمالية ككائن حي يتجدد من دون توقف، تطور دارويني، "لم يعد شبحًا"، يذكرُ بسخرية، وإنما "على الأدق من

Twitter: @alqareah

مسوخ أليين"(*). في تطوره التكنولوجي كان يعلن عن ظهور صيغ ثقافية لا تحترم حتى قواعد المجتمع الذي أنتجها.

المنجز الرأسمالي الأهم هو شيوع علاقات اجتماعية رأسمالية جديدة. لهذا، من المستحيل أن يتحسن هذا النظام أو يصلح نفسه، لأنه يسعى فقط إلى إعادة إنتاج العلاقة الرأسمالية المجددة على نطاق أوسع. الأسواق المصرفية تنهار، الاقتصادات تنفجر مثل فقاعات من الهواء وهذه هي الطريقة التي ينمو بها رأس المال. كان يحلل فشل الاتحاد السوفيتي وتجاربه والتحكم في رأس المال في الصين وفي المستعمرات القديمة في الشرق، كمرحلة جديدة في تطور الرأسمالية بحثًا عن أراض جديدة. هذا التوسع الجغرافي (الذي تطلق عليه وسائل الإعلام سقوط السور)، حرر طاقات جديدة، وأدى إلى تطور علمي وتكنولوجي مدهش: أقاليم شاسعة فُتِحَتْ ، جيش من المستهلكين ومن الأيدي العاملة الاحتياطية تم وضعها في خدمة السوق.

الرأسمالية، في توسعها التكنولوجي، لا تتوقف أمام أي حدود: لا بيئية، ولا أخلاقية، ولا اقتصادية ولا اجتماعية. التطور كان كبيرًا لدرجة أنه أثر جذريًا على اليقين الشعوري، واليوم يدافع المجتمع عن حدوده الأخيرة: حافته - معركة الأرض بلا صاحب - التي يطلق عليها ريسكلر "الحدود النفسية".

النظام الرأسمالي تبنى مقولة الإنسان الجديد لأرنستو جيفارا وماو تسي تونج. الأبحاث الجينية، التجارب في البيولوجية الجزيئية

(*) أليين Alien عنوان فيلم خيال علمي من إخراج ريدلي سكوت ١٩٧٩، ويعتبر من أوائل وأهم الأفلام التي تتناول فكرة المسخ الذي يصنعه البشر وينقلب عليهم. (المترجم).

Twitter: @alqareah

وعلوم الإدراك، إمكانية الاستنساخ والتخصيب الصناعي، تتقدم نحو عبور هذا الحد الأخير. العلماء هم "مهندسو الروح" الذين تكلم عنهم ستالين: الإنسان الجديد، المواطن المثالي، هو المدمن من دون قناعات ولا مبادئ والذي يتطلع فقط للحصول على جرعته من البضائع المبتغاة. المجتمع التكنولوجي يُشبِع الأفراد: يسليهم ويغرقهم في محيط من المعلومات السريعة الكثيفة.

لا توجد خيارات لمعارضة المؤسسة الرأسمالية. المانيفستو لم يقترح بديلا لكنه يلفت الانتباه إلى عالم بلا مستقبل. "رأس المال"، يختتم، "استطاع - مثل إله - أن يفرض الإيمان بسلطته المطلقة وديمومته؛ يمكننا قبول نهاية العالم لكن لا يوجد من يبدو قادرًا على قبول نهاية الرأسمالية. انتهى بنا الأمر إلى الخلط بين النظام الرأسمالي والنظام الشمسي. نحن، مثل بروميثيوس، مستعدون لقبول التحدي وغزو على الشمس".

بهذا المجاز الإغريقي انتهى المانيفستو الذي قدمت بالكاد عرضًا مختصرا له. لم يكن الأول الذي يتكلم بهذه الطريقة. نينا، التي درست أثر تولستوي على ويتنجشتاين تذكرت موقف مؤلف الأطروحات(*): "لم يعد من العبث، على سبيل المثال، الاعتقاد أن عصر العلم والتكنولوجيا هو بداية النهاية للبشرية"، كما كتب. "طريقتي في التفكير غير مستحبة في هذا الزمن، يجب أن أجاهد

(*) أطروحات منطقية ـ فلسفية Tractatus Logico - Philosophicus عنوان كتاب للفيلسوف الألماني النمساوي «لودفيج جوزيف يوهان ويتنجشتاين». صدر الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٢١، وبعد ذلك صدر بالإنجليزية لكنه كان يحمل العنوان باللغة اللاتينية. ويحتوي الكتاب على مقالات للكاتب، بالإضافة إلى مراسلاته مع فلاسفة من عصره منهم برتراند راسيل، أثناء مشاركته كجندي في الحرب العالمية الأولى ثم أثناء سجنه كأسير حرب. (المترجم).

Twitter: @alqareah

وأسبح ضد التيار. ربما بعد مائة عام يتقبل الناس تلك الأفكار".
"على سبيل المثال"، التي إستخدمها تبدو لي رائعة، قالت نينا.

إن كان ينتقد التكنولوجيا، مثل الكثير من الفلاسفة والمفكرين (من بينهم لويس مومفورد الذي يذكره)، فإن مقترحه للحل لا يلجأ ليوتوبيا العالم الأفضل، حسب الموديل الاشتراكي، وإنما يرجع للتقاليد الفوضوية حول "الحياة الجيدة" مثل تولستوي، ومثل الاشتراكيين الزراعيين [1] الروس، برأي نينا، المانيفستو يقترح الرجوع إلى التعاونية الريفية الصغيرة، ما قبل رأسمالية، بملكية جماعية للأرض، التي يعيش فيها الأفراد على العمل اليدوي. البديل يعتمد على تجارب المجتمعات التي لا تعرف الدولة - مثل قبائل الرحل في الغرب الأمريكي وباراجواي - وفي الأشكال الاجتماعية البدائية في طرق الإنتاج السابقة على الثورة الصناعية. لديه شيء من خبرة ثورو[2]، من جيل البيت، ومن هيبيز كاليفورنيا، لكنه حملها إلى مداها الأقصى وإلى الحرب. أفقه كان أمريكيا، لكن من دون أمل، وكان يطمح فقط إلى التحقق الفردي: يجب أن يعيش الحياة الشخصية حسب نموذج المجتمع الذي يسعى إليه.

---

(١) Narodniki هو اللقب الذي كان يطلق على الثوريين الروس خلال حقبتي ١٨٦٠ و ١٨٧٠. كانت هذه الحركة نوعًا من الاشتراكية الزراعية تقوم على إنشاء العديد من الهيئات الاقتصادية المستقلة التي تخدم بضع قرى فيما يشبه الاتحاد الفيدرالي الذي يحل محل الدولة. (المترجم).

(٢) هنري ديفيد ثورو Henry David Thoreau (١٨١٧ ـ ١٨٦٢) شاعر وروائي وفيلسوف أمريكي. يعتبر أحد الأدباء المؤسسين للأدب الأمريكي. أهم كتبه «والدن» أو «حياة الغابات» و «العصيان المدني». كان من دعاة القضاء على العبودية والتمرد على سلطة الدولة والامتناع عن دفع الضرائب. عاش خلال عامين في كوخ منعزلاً عن العالم، حيث قام بتجربة عملية للعودة إلى الحياة الطبيعية ورفض التقدم العلمي والصناعي. ومن خبرته خلال تلك الفترة كتب «والدن». (المترجم).

Twitter: @alqareah

بشيء من الإذعان كان يطرح الدفاع عن الطبيعة وعن طرق الحياة الطبيعية، لكن من دون أن يأخذ التجربة على محمل الجد على طريقة والت ديزني والجمعيات المدافعة عن البيئة(*). وكما كان ماركس يقول أيضًا، من الصعب الخروج من حالة روبنسون، لكن نموذج الإنسان الوحيد الذي يبني مجتمعًا مثاليًا على جزيرة منعزلة يبدو الإمكانية الوحيدة بعد كارثة الاشتراكية والنضال ضد الاستعمار. المانيفستو يمارس نقد النقد ولا يبدو مستعدا لتخيل بديل اشتراكي. في هذا كان تولوستويًا. لكن الفارق هو استخدام الفعل المباشر. كان يبرر الرغبة في التمرد بروح الحق في العصيان المدني لثورو (الذي استشهد به). لكن الاتجاه للشر، قرار القتل (أو الحق في القتل؟)، كان مرتبطا بالرغبة الشخصية في إيصال الكلمة. في حدوده القصوى، الإرهاب يضمن الوصول إلى مخاطبة الشعب.

ـ ٢ ـ

كما كان متوقعًا، كان للمانيفستو وقع كبير. على الفور طبعته دار نشر مستقلة في كاليفورنيا، وفي ظرف ساعات انتشر على الإنترنت بشكل واسع. النقاش أصبح عاما، وفي كل البلاد ظهرت تصريحات وبوادر دعم لمحتوى بيان بدا أنه كان يعبر عن أفكار الكثيرين. في ملاعب كرة السلة حيث كانت تقام المباريات الفاصلة لدور المحترفين، قامت جماعات من النشطاء بتوزيع نسخ من

(*) قمنا بالبحث عن أي علاقة لوالت ديزني بالدفاع عن البيئة أو الطبيعة ولم نعثر على مثل هذه المعلومة. وربما تكون لوالت ديزني في النص مجرد سخرية من الراوي في إشارة لبعض أفلام الرسوم المتحركة التي تتكون كل مجتمعاتها من الطيور والحيوانات. (المترجم).

Twitter: @alqareah

المانيفستو بين المشجعين واللاعبين. صورة للاري بيرد يقرأ المقال ضد التكنولوجيا الرأسمالية باهتمام ساخر على مقاعد البدلاء لفريق سيلتكس، انتشرت بشكل واسع.

عندما ذهبت إلى المحاضرة كان الطلاب يناقشون الوقائع؛ يوجد موقفان مختلفان، لكن عموما كانوا متفقين مع أطروحات المانيفستو (باستثناء جون الثالث، الذي كان يعتبرها غير واقعية)، ولم يدافع أحد عن الوسائل العنيفة وانتقدوا الإرهاب، باستثناء جون الثالث، الذي لم يكن يتفق مع الأحكام الأخلاقية في مجال السياسة. بهيئة متعبة كان يوجه أسئلة مفخخة. (كم عدد الموصوفين كإرهابيين الذين حصلوا بعد ذلك على جائزة نوبل للسلام؟"، سأل بأسلوب خطابي، وذكر الأسماء بنفسه بعد وقفة مسرحية: "مانديلا، بيجين، عرفات...") . لا للقتل، اختتم جون الثالث، هو شعار من يمتلكون السلطة، والضحايا هم من يجب أن يطيعوا هذه الوصية، أصحاب السلطة لا يؤمنون بالمساواة. مايك رد عليه بأن قتل الناس عشوائيًا لأسباب منطقية لا يجعل الجرائم منطقية. حسنًا، قال جون الثالث، لكن لا يبدو أنه يقتل عشوائيًا. على أي حال، اختيار من يُقتَل لا يبرر فعل القتل حتى لو كانت سلسلة الجرائم متسقة، قالت راشيل. يجب أولا أن نعرف من هو الفاعل، قالت الكورية. الرسالة ليست هي نفسها إن لم نعرف مرسلها. هل من قام بكتابة المانيفستو هو نفسه من قام بوضع القنابل؟ لكن هو نفسه قام بالاعتراف بهذا. هل اعترف؟ على الأدق كان يربطه شَرْطِيًا بما كتبه. في المانيفستو يتم قلب التفكير. كان العلماء، باسم التقدم التكنولوجي، هم من يضفون الشرعية على عنف النظام، التجارب البيولوجية والحربية. كان هؤلاء (تقنيو المعرفة العملية) هم من ينتهكون الأخلاق باسم التقدم والعلم.

Twitter: @alqareah

نينا كانت تعمل في المجلد الثالث من السيرة الذاتية لتولستوي، بالتحديد كانت تحاول أن تكشف كيف قام البلشفيون بمحو المواقف السياسية السلمية عن تولستوي لكي يمكنهم حصاره "-مع الاعتذار"، قالت، لمكانته كروائي كبير، يعتبر أبا للواقعية. رغم هذا، حاول تولستوي بناء بديل أمام العنف الثوري وأمام التخريب الرأسمالي. عدم مقاومة الشر.

الحكايات الاشتراكية الكبرى هي قصص المُغَامِر (الذي تنتظره كل مواقف الحركة) والعايق (الذي يعيش الحياة كتجربة فنية)؛ في القرن الحادي والعشرين الإرهابي سيصبح هو البطل، قالت نينا. إنه عايق ومغامر وفي أعماقه يعتبر نفسه شخصًا استثنائيًا.

كانت نينا ترى أن تولستوي هو أول من انتبه لقصص الصعود هذه، وحاول أن يواجهها بالصورة الروحانية للناسك، الرجل القديس، المتشرد الزاهد: التحقق العملي لتبشيره كان المهاتما غاندي، تلميذًا مباشرًا لتولستوي. لكن الهند لم تكن نهايتها جيدة، قلت لها. لا شيء ينتهي جيدًا في الروايات الجيدة يا إيميليو، قالت نينا. كنا في صالون بيتها، بين كتبها وأوراقها. هل تريد فنجان شاي؟ بعض البسكويت؟ إنه روسي.

- ٣ -

قام (إف بي آي) بتوزيع المانيفستو على أساتذة الأدب لمعرفة إن كان ممكننا العثور على ملمح أسلوبي يسمح بالتعرف إلى كاتبه. كانوا ينتظرون أن يتعرف أحدهم في الكتابة إلى المسئول عن الاغتيالات، أو على الأقل أن يقدم خيطًا للوصول إليه. ماري جولدمان، الخبيرة في النقد النفسي، تلميذة تشارلز ماورون، كانت تعمل على تحليل

Twitter: @alqareah

سيكولوجية مؤلف النص عبر استعاراته، صيغه الوصفية، التكرار وحقول الكلمات. آخرون كانوا يبحثون عن آثار من لكنات إقليمية، وخصائص لغوية لمناطق زراعية في الولايات المتحدة في محاولة لحصر مجال البحث.

لم يكن الأمر يتعلق باكتشافه، وإنما تخيله، قالت نينا. هل يمكن معرفة شكل شخص انطلاقًا من كتابته؟ أي محترف معتاد على القراءة بدقة - مترجم، مصحح أسلوبي - سيدرك بسرعة أن المؤلف رجل مثقف، معتاد على البُنَى المنطقية، في لغته غزارة كبيرة في المفردات وتمكن واضح من النحو. لغته الإنجليزية المكتوبة مصاغة بعناية مبالغ فيها، من دون آثار للغة الشفهية، رغم هذا تظهر أحيانا أخطاء بسيطة، تؤدي إلى افتراض نزعة للإتقان الشديد، المعتاد في متوسطي الثقافة؛ فيما عدا هذا، الصيغ النحوية غير المعتادة تثير الشك في أن لغته الأم ليست الإنجليزية وفي كل الأحوال، أمضى المؤلف طفولته في وسط حيث لم يكن أبواه من متحدثي الإنجليزية بالميلاد.

تناقشت حول بعض هذه الفرضيات مع نينا، لكن بعد قراءة المانيفستو انتبهنا إلى أن ما قمنا نحن بتحليله بعمق، كما يحدث كثيرًا في النقد الأدبي يمكن أن يدركه أي قارئ عادي على الفور. المؤلف كان أكاديميًا، ربما عالم رياضيات أو متخصص في المنطق، شديد الذكاء، رجل وحيد، معتاد على الكلام بمفرده وإلى الإشارة إلى نفسه بصيغة الجمع ("سنذهب الآن." أو "نؤكد أن ....."، "نقول"). وهي صيغة معتادة للكلام عن الذات لدى الأفراد (في الغالب ذكور) الذين أمضوا سنوات كثيرة في الجيش أو في جماعة ثورية أو مجتمع أكاديمي مغلق.

Twitter: @alqareah

في أواخر مايو انتهت المحاضرات: سَلَمَ طلاب السيمينار أبحاثهم، كلها كانت رائعة ومتوقعة، باستثناء بحث يهو - لين بالطبع، الذي كان مدهشًا وقاتمًا. لا أحب إصدار الأحكام ولا التقييم، لكنني وضعت ثلاثة Aو +B واحدة، واثنتين B تبعًا لاستخدام الأبجدية اليونانية القديمة (ألفا، بيتا... إلخ) في وضع الدرجات في الجامعات الأمريكية. كتب أغلبهم حول "سيرة ذاتية في الهواء الطلق" لهدسون، حول طريقته في الوصف وفي الحكي "أثناء الحركة"، من فوق حصان، وحول عدد الحيوانات الضخم في أعماله، فيما عدا يهو- لين التي قامت ببحث مدهش حول المراسلات بين كونستانس جارنيت وتولستوي بشأن التعاونيات الزراعية والفلاحين - المستوطنين - الانجليز في نيو إنجلند، مقارنةً بتجربة الحياة الطوباوية في الأرجنتين في "هناك بعيدا ومنذ زمن". من جانبه أظهر جون الثالث تفوقًا، وميلاً إلى الدراسات الجنسانية، حيث حلل العلاقة بين الحياة في لابامبا والمثلية الجنسية في أعمال هدسون ("أوه، هؤلاء الجاوتشوس أبناء المروج").

ذلك الاثنين، عندما انتهت المحاضرات، دعوتهم لتناول بيرة في البار المواجه لميدان البريد. جون، ومايك وراشيل قدموا سيرتهم الذاتية وطلباتهم لشغل المناصب الشاغرة المتاحة في بداية العام الدراسي، وكانوا ينتظرون الانتهاء من رسائلهم مع اجتماع نهاية العام لمجلس الجامعة. لم يعودوا طلابًا أو في طريقهم لهذا. وكانوا ينظرون إلى الوظيفة الأولى كواقع مرغوب فيه ومدمر في نفس الوقت. الدراسة كانت ساحة انتظار للشباب، والآن كان عليهم أن يبدلوا مكانهم ويتعلموا قواعد المرور القاسية. مناصب في أماكن بعيدة، التدريس لطلاب مهملين، مواجهة الصراعات بين الزملاء

Twitter: @alqareah

للحصول على مكان والاستمرار حتى التثبيت في العمل. ("الفنان الحقيقي الملعون في هذه الفترة هو المدرس المساعد الذي يراقبه زملاؤه الذين يمكنهم إصدار قرارات"، كان جون الثالث يقول هذا).

تودعنا لدى هبوط الليل، مقتنعين أننا ربما لن نلتقي مرة أخرى. اليوم، على دراية بمصائرهم، أعرف أن الكثيرين نجحوا وآخرين غرقوا، لكن لم ينس أحدهم سنواته كطالب للدراسات العليا، حيث تبدو لهم الحياة كأنها تسير مثل علامة تتصيص طويلة قبل وصول الشتاء القاسي للخبرة الواقعية.

أنا أيضًا كنت في مفترق طرق شبيه. لم أكن أرغب في العودة للأرجنتين وكنت أفكر مرارا في إمكانية التدريس هنا لوقت آخر. في كاليفورنيا يوجد مكان شاغر في برنامج الكتابة الإبداعية في بيركلي. (فولكنر وفيتزجيرالد كانا يغرقان في الكحول، وأنا سأغرق في الجامعة، كما كان يقول صديقي الشاعر الذي كان يقوم بالتدريس في فرنسا). في تلك الأيام قررت أن أعاود الاتصال ببوينس أيرس، خاصة بجونيور، الذي أعرفه منذ كنا نعمل معا في جريدة الموندو؛ هو ما زال هناك، أكثر نفاقًا وحنقًا مع مرور الوقت، لجأ للمنفى في المكسيك في فترة العسكر، لكنه عاد إلى بوينس أيرس كأنه لم يرحل قط وحكوا لي أنه دخل الجريدة بابتسامة واسعة وجلس إلى مكتبه كأنه غاب بضعة أيام فقط في إجازة. لاحظت أنه غريب عندما تكلمت معه، أكثر رسمية من المعتاد، كيف أحوالك يا رينزي، طلبتك من قبل لكي أخبرك بما جد من الأمور هنا، لكن لا توجِد مستجدات هنا أبدا، شائعات فقط، يا صديقي القديم، وأنت تعرف أن الوقت يطير في البلاد النامية، كم أنت محظوظ بالحياة في قلب الرأسمالية. تبادلنا مزحتين والحوار خَلّفَ لدّي شعورًا غريبًا.

Twitter: @alqareah

كما تحدثت عن هذه الأيام مع زوجتي السابقة، وصفٌ كان يثير حنقها بالطبع. كانت بحال جيدة، تعيش في شقة شارع كونجريسو حيث ما زالت كتبي هناك حتى الآن. مررنا ببعض المشاكل المعتادة، التي يمر بها كل من عاشوا معا سنوات طويلة، لكن الآن كان كلانا أكثر تفهما وربما لهذا حكيت لها ما كنت أعتبره عرضا من بيركلي لكي أقضى وقتا في كاليفورنيا. ساد صمت على الجانب الآخر. ألا تريدين أن تأتي وتبقي معي؟ قلت لها. سمعت ضحكة، ضحكتها عندما تكون غاضبة. لكن يا إيمليو، ماذا بك؟ ألا تعيش في هذا العالم أم أنك لا تعرف أنني أعيش مع جونيور؟ لكن كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لا أعرف شيئًا، مع هذا المعتوه، مع هذا المتخلف عقليًا. كنت آخر من يعلم، بالطبع.

هذا يعني أن كل شيء ما زال كما هو في بوينس أيرس، كنت أعرف جيدًا هذه الطبقة؛ زواج الأقارب هو السمة الوحيدة التي يتمتع بها الأدب الأرجنتيني. كلارا كانت متزوجة من بيبي سانز، الذي درس معي طوال سنوات الجامعة في العاصمة، والذي أصدرت معه مجلات عديدة في سنوات الستينيات: عندما انفصل عن كلارا، تزوج بيبي من زوجة جونيور السابقة، والآن جونيور أصبح يعيش معها. كانت أشعر أن ما فعلته كلارا يعتبر خيانة. جونيور ذهب ليعيش في بيتي؟ كان ينام في فراشي؟ يقرأ نسختي من موت فيرجيل؟

خرجت من المكتب ونزلت إلى الشارع. أوريون ما زال جالسًا على المصطبة تحت الأشجار واقتربت منه. كان يقوم برسم دوائر ومربعات أصغر فأصغر على ورقة. بينما كان يقوم بعمل رسومه، بدأت أحدثه عن أموري. لم أكن سعيدا بعلاقة جونيور معها، لكن

Twitter: @alqareah

أكثر ما ضايقني هو أن يقوم بالتفتيش في أوراقي. سيدي، قال أوريون، من الأفضل عدم امتلاك أي شيء.

في منتصف يونيو، عندما انتهى العام الأكاديمي، قام القسم بعقد الاجتماع التقليدي السابق على إجازة الصيف. اجتمعنا في بالمر هاوس، القصر الكبير على طريقة هنري جيمس المحاط بحدائق، بمدخله على الناصية حيث لقيت إيدا حتفها. عبرت الممرات المشجرة وسرعان ما حجب السور الحجري إشارة المرور والناصية التي تؤدي من شارع ناساو إلى بايارد لين. هناك تم العثور على سيارتها متوقفة؛ فكرت أنها رأت هذا السور قبل أن تموت؛ صدمة قلبية، كان هذا هو التشخيص؛ محاولة سرقة أو رأت شيئًا في الشارع فسَبَّبَ الانفعال العنيف الذي أدى إلى الإغماء. واليد المحروقة؟ ربما شرارة من النظام الكهربائي أو الوقود الساخن. لم يعثر على آثار لقنابل، قالوا هذا، رغم أن خطاباتها كانت في أرضية السيارة. لا يمكن معرفة إن كانت هناك رسالة أخرى دمرها الانفجار. لا توجد بقايا، ولا أي لوحة معدنية بحرفي .FC رواية الشرطة كانت طريقة أخرى لبناء تصور لموقف محتمل. الشهود، الإشارات، الأدلة تؤدي إلى فرضية الحادث. بالنسبة لاحتمالية القنبلة، لا توجد شواهد كافية تسمح بتوصيف الحادث كاغتيال.

عندما دخلت بالمر هاوس كانت هناك غمغمة أصوات وضحكات صادرة عن الاجتماع. صالون الطابق الأول كان شديد الإضاءة، ويؤدي إلى شرفة زجاجية أمام أشجار الحديقة. على المائدة الرئيسية توجد أوعية بها طعام، وإلى الجانب البار حيث تقدم المشروبات. كلهم كانوا يتحدثون في الوقت نفسه بينما يمسكون بالأطباق والكئوس ويحاولون تناول الطعام كيفما استطاعوا، وقوفًا،

Twitter: @alqareah

مستندين على الحوائط أو جالسين على المقاعد الواطئة الوبرية الحمراء التي تحيط بالصالون. صببت كأسًا من النبيذ الأبيض وطبقا به سلمون مدخن وأرز. كان زملائي وأيضا طلاب الدراسات العليا موجودين. رأيت راشيل ومايك، لكن ليس جون الثالث. خرجت إلى البلكون واقترب دا - أماتو ليتحدث معي كأنه ينتظرني. كان يرى أن من كتب المانيفستو ليس هو من وضع القنابل. إنهما شخصيتان متنافرتان، قال. صُنع قنبلة يعني عقلية آلية تتماهى مع دقة ماكينات الساعات. كان يعرف هذا جيدًا، لأنه في كوريا كان يقوم باختيار المجموعات المكلفة بتركيب وفك الألغام وقنابل صيد الأغبياء بعد العديد من التجارب النفسية والاختبارات الشعورية. من يتعاملون مع المتفجرات بشكل مستمر كانوا دائمًا أفرادًا صامتين، شبه فصاميين، بعقلية مدمني المقامرة وأصابع عازف البيانو. عرفت رقيبًا، حكى، كان يُركب ويفك قنبلة انتشارية(*) بعينين مغلقتين. كان يقبل المراهنات في ليالي الهدنة بين معركة ومعركة. كانوا يغطون عينيه، ويتسلل خارج موقع الحراسة حتى تخوم الغابة ويربح المراهنات عندما يفوز. إن انفجرت، كان يضحك، لم تكن لتصيب أحدا. يعود غالبًا كأن شيئًا لم يحدث، لكن شديد الهياج، راغب في العراك وتكرار اللعبة. على العكس، لكتابة نص مثل هذا لا بد من امتلاك ذكاء مسالم ومثابر، مثل ذكائنا. أنا، لأنني كنت أسير مفكرًا في الإيقاع الإيزابيلي في سرد ميلفيل، قال بعد ذلك، وضعت قدمي على لغم إطار بساقي. إنهما طريقتان في التركيز النفسي، نوعان من البشر. لا يمكن ممارسة الكتابة ووضع

(*) قنبلة ذات موجة تفجيرية واسعة. تختلف عن القنابل الانشطارية التي ظهرت بعد ذلك بسنوات. (المترجم).

Twitter: @alqareah

قنابل، كما لا يمكن أن يكون الشخص ملاكمًا جيدًا وأستاذًا في الشطرنج. تأملنا الليل في الحديقة مثل زميلين قديمين في العربدة قاما باقتسام امرأة. لا أعتقد أنه سيتم اكتشاف أي شيء، قال. مسكينة. أنت عرفتها كما عرفتها، كانت صريحة وعاقلة. دائمًا يموت الأفضل. إذن فقد قالت له إننا كنا نلتقي لنذهب للفراش؟ هل كانت تبوح بأسرارها لهذا المهرج ذي الساق الخشبية؟ أسئلتي كانت تجعلني أشرد ولم أسمع جيدًا الأسئلة التي كان النذل يغمغم بها بحماسه المعتاد.

ما خططي؟ هل سأبقى معهم (معنا) عاما آخر؟ لدي عرض من بيركلي، قلت له، ومن المحتمل أن أذهب لبعض الوقت إلى كاليفورنيا. حسنًا، كان يجب أن تستشيرنا. في القسم فكروا أنني ربما أريد البقاء بينما تبدأ التحضيرات البطيئة في البحث عن بديل لمنصب إيدا. عندما ذكرها ظهر بيننا تيار سري من التنافس والحميمية. كلانا يعرف كيف كان الوجود معها في غرفة محايدة في فندق. أنهيت هذا التواطؤ بسرعة. لم أكن متأكدًا مما سأفعل، قلت له. لكنني سأطلعهم على خططي.

اقتربت من الركن حيث كانا راشيل ومايك يتحدثان مع زميلين شابين في دراسات الفيلم. كانوا يتناقشون حول سائق التاكسي لسكورسيزي. تظهر فيه، وفقًا لرأيهم، شخصية المتمرد المثالي، العدمي العاشق لعاهرة، القادر على التصرف من دون الاهتمام بأحكام المجتمع. عاهرة دستويفسكي تحولت إلى الطفلة السيئة جودي فوستر. ابتعدت بينما كانوا قد انتقلوا للحديث عن القناص وقدرة روبرت دي نيرو على تمثيل شخصيات مريضة نفسيًا. ونيكلسون؟ أتخيل ريسكلر بوجه جاك نيكلسون، قال مايك.

Twitter: @alqareah

تنقلت في الصالون متحدثًا كيفما اتفق مع المعارف، وطلب دا-أماتو الصمت. كان سيلقي بعض الكلمات لتوديع العام الدراسي المنتهي. تحدث عن الفقد الحزين الذي تعرضنا له. القسم أنشأ جائزة باسم إيدا براون لأفضل مشروع تخرّج كل عام. تصفيق. نحن نعيش أوقاتًا صعبة في بلدنا، قال. نعرف ما الإرهاب، أليست مفارقة الآن، بينما يقوم البريد الإلكتروني بالقضاء على الوسائل القديمة للتراسل، أن تكون الرسائل المفخخة هي من تهاجم جامعاتنا. المخاطبات ملمح لثقافتنا، موجودة في الإنجيل وفي التاريخ السياسي والثقافي. الرسائل الفارسية، الرسائل المفتوحة، الخطابات الرومانية، الرسائل الموجهة للأب، الرسائل المُجهلة، رسائل الحب. هل ستختفي وسائلنا في التعبير بعد أن يجتاحها العنف؟ توقف لبرهة. هذه الأحداث الأخيرة المأساوية جعلتني أفكر، قال دون، في الرسائل من دون عنوان من الأموات التي حملت بارتليبي إلى الجنون واليأس. نحن، بمعارفنا القديمة، قراء أيضًا لكلمات ورسائل الأموات. بعد ذلك، كأنها خطاب تأبين (وكلنا فكرنا في أشخاص مختلفين يمكن أن تكون مكرسة لهم)، ذكر نهاية قصة ميلفيل:

بارتلبي، قال، كان موظفًا صغيرًا في مكتب بريد الأموات في واشنطن، وحينئذ لكي يختم قرأ فقرة من القصة.

"رسائل ميتة! ألا تشبه الرجال الميتين؟ يجب أن أحرقها لأن أحدًا لن يتلقاها... أحيانًا يخرج الموظف الشاحب من ثنيات الورق خاتمًا - ربما يتحلل الإصبع الذي كان موجهًا له في المقبرة -حوالة بنكية مرسلة كشفقة بالبريد العاجل، إلى من لم يعد يأكل ولا يمكن أن يشعر بالجوع". وبهذا الصوت المتأثر، أنهى دا - أماتو المنفعل

Twitter: @alqareah

خطابه بابتهال لراوي بارتلبي: "اعتذار لمن ماتوا غاضبين؛ أمل لمن ماتوا بلا أمل؛ أخبار جيدة لمن ماتوا رازحين تحت كوارث لا تحتمل". كان دا-أماتو مجنونا بعض الشيء، في أي موقف يقوم بقراءة فقرات من ميلفيل (في هذا كان مثل أي من المجتمعين هناك، مجموعة بائسة من القراء ما زلنا نؤمن بالطابع المبهج للنصوص الأدبية).

تلك الليلة، عندما غادرت الحفل في النهاية، وعبرت حديقة بالمر هاوس نحو الشارع، في المكان الذي وقع فيه حادث إيدا براون، مستندًا على باب الخروج، رأيت جون الثالث الذي كان واقفا كأنه ينتظرني، شديد الأناقة، تقريبا متنكرًا كطالب سابق في جامعات رابطة إيفي، مرتديا بذلة بيضاء وبابيون، بالثقة الشديدة في نفسه، التي أبداها طوال الكورس. حيّاني بإيماءة ودود لكي يكون واضحًا أن علاقتنا لم تعد علاقة المعلم - الطالب، وإنما علاقة الزملاء، وقبل أن يمكنني قول أي شيء، أعطاني الخبر الذي ينتظره كل العالم.

- ألقوا القبض عليه. كان طالبًا سابقًا في هارفارد.

Twitter: @alqareah

Twitter: @algareah

ـ ٣ ـ

باسم كونراد

Twitter: @algareah

Twitter: @algareah

الفصل التاسع

ـ ١ ـ

اسمه توماس مونك، عمره خمسون عامًا، وكان عالم رياضيات متخرجًا في هارفارد، ابنًا لعائلة ثرية من المهاجرين البولنديين. لا توجد له سوابق، لا تعرف عنه ميول سياسية. تم اعتقاله في منطقة غابات نائية في جبال مونتانا. كان يعيش منعزلاً، في كوخ بدائي من ستة أمتار مربعة قام هو نفسه ببنائه، من دون كهرباء، من دون مياه جارية ومن دون تليفون، على مبعدة ثلاثين ميلاً من أقرب قرية، بالقرب من الطريق٢٢٣ .

باركر أمضى عدة أيام في دراسة في الحكاية وكتابات مونك. بمكتبه المغلق بسبب صيف نيويورك المشتعل، والسكرتيرة الجديدة الكفء التي كانت تطلعه على المستجدات عن طريق الإنترنت وتتصل به بالمحمول (الإنترفون، كما يطلق عليه باركر)، استغل وقت الفراغ لكي يعد لي تقريرًا حول مونك ويغلق البحث.

Twitter: @alqareah

- نحن المحققين لم نعد نحل القضايا، لكن يمكننا أن نحكيها، قال بعد ذلك.

ابنا عائلة مونك ولدا في عامين متتاليين، في ١٩٤٢ توماس وفي ١٩٤٣، بيتر، عندما كان أبواهما قد استقرا في النهاية في شيكاغو. صورة الأخوين في ألبوم صور المدرسة الثانوية تكشف عن فتيين لهما وجه طائر، الشعر مقصوص على الطريقة الأمريكية، وابتسامة متعبة. مجتهدين، قوي الإرادة، قلباهما أبيضان، من دون آثار لأصلهما الأوربي، نشأ الأخوان في الخمسينيات عندما كانت الثقافة في هذا البلد رائعة ووحشية في الوقت نفسه، وفقًا لباركر. إنهما أبناء الحرب الباردة، انتشار السيارة، والتليفزيون والروك آند رول. توم كان عبقري العائلة وأخوه يعيش في ظله، رغم أنه كان كاتبًا معروفًا إلى حد كبير ونشر الكثير من القصص في المجلات الصغيرة التي كانت منتشرة في حي فيلاج تحت تأثير نجاح كيروك وجيل البيت.

قرر توماس مونك الالتحاق بهارفارد، ربما لأن أباه كان يعتقد أنها الجامعة الأمريكية الوحيدة التي يعرفها أصدقاؤه في وارسو. في ١٩٥٨في السادسة عشرة من عمره- انتقل إلى كامبردج في ماساشوستس، وبدأ دراسته الأكاديمية. بالفعل، في السنة الثانية كان الطالب الحاصل على أكبر منحة في تاريخ هارفارد.

كان جادًا إلى حد قاتل، انطوائيًا، وشابًا عنيدًا خجولاً لم يتأقلم مطلقًا مع القواعد الصارمة لجامعات رابطة إيفي. بينما كان أقرانه يذهبون للمحاضرات ببذلاتهم من بروكس بروثرز ورابطة عنق بالألوان الخاصة بنوادي (ألفا بيتا في) الجامعية، كان توم مونك من أوائل الطلاب الذين حضروا كورسات ما قبل الدراسات العليا في

Twitter: @alqareah

هارفارد بالجينز وقميص أسود وحذاء رياضي، كأنه من أبناء الطبقة العمالية الأمريكية في بنسلفانيا. في الشتاء كان يضيف إليها سترة زرقاء، كسترة البحارة، وقبعة من الصوف المغزول التي كانت يستخدمها في ذلك الوقت الزنوج فقط في أحياء بوسطن الفقيرة.

كان يذهب إلى الحفلات والرقص، لكنه كان يجلس بمفرده في أحد الجوانب متناولا البيرة وناظرا إلى فراشات برنارد[١] المحلقات بخصلاتهن الذهبية وتنوراتهن القصيرة، ويتبادلن القبل في الأركان مع فتيان الطبقة العليا الفظاظ من جامعتي برنستون ويال. يوجد جيل كامل من الفتيات الأمريكيات، بسيقان جميلة وأثداء ناهضة فقدن عذريتهن مبكرا وعمدا في الفترة بين نهاية حرب كوريا وبداية حرب فيتنام. كن يبدين كفرقة استطلاعية في الجيش الجديد للتحرير النسوي، والفتيان كانوا يطلقون عليهن (فيتكونجز)، قال باركر، الذي كان على الأرجح يفكر في حبيبته بيتي، حمراء الشعر التي كانت لا بد أيضا، محاربة قديمة في فاسار[٢].

أماندا، "عصفورة" جميلة من تلك السنوات، ذكرت أمام الصحافة إنها سافرت مع مونك في إجازة إلى كندا في صيف ١٩٦٣. كان أكثر ما يعجبه فيّ، صرحت الفتاة، طريقتي في القراءة بصوت عال للروايات والقصص "التي تقول شيئًا عن وضع الإنسان". ذات ليلة، متمددين على الأرضية المبلطة لغرفة الفندق لتخفيف الشعور بالحر، كانت تقرأ قصة حول راعٍ بغطاء أسود على

---

(١) برنارد كوليج Barnard College كلية خاصة للفتيات تم إنشاؤها عام ١٨٨٩ وانضمت لجامعة كولومبيا منذ ١٩٠٠. (المترجم).

(٢) فاسار كوليج Vassar College كلية خاصة في نيويورك، أنشأها ماثيو فاسار عام ١٨٦١ ككلية خاصة بالفتيات، لكنها أصبحت مختلطة منذ عام ١٩٦٩.

Twitter: @alqareah

وجهه وسقط توم نائمًا. أماندا واصلت القراءة لكنها أخذت تبتعد عن القصة وانتقلت إلى التفكير بصوت عال حول البنسيون الذي يعيشن فيه، بثلاجة مشتركة تغلق بقفل، وكل عبوة لبن مكتوب عليها اسم صاحبتها (جريت، ماريا)، وعندما تحركت في النهاية لتطفئ النور، فتح توم عينيه وظل ينظر إليها.

-ألا ترمش عيناك أبدًا؟ قالت له.

-لا، إن أمكنني تفادي هذا. قال هو.

لا يكذب؛ طوال حياته ظل مخلصًا لمعايير الحقيقة التي يقوم عليها المنطق الذي يكرس له جهوده. حسب حدسه الرياضي، المفاهيم الحقيقية كانت أشياء واقعية، وليست طرقًا في التفكير. هذا ما قاله في محاضرة في عامه الثاني في هارفارد والبروفيسور، جون ماكسيل، إحدى علامات عالم الفلسفة التحليلية في الولايات المتحدة، دعاه إلى أن يفكر في الافتراض التالي: "في هذه اللحظة لا يوجد قط في هذه الحجرة". عندما رفض مونك قبول هذا الصيغة، قام الأستاذ العجوز بالانحناء بصعوبة لينظر تحت كل واحد من مقاعد الخمسة عشر طالبًا المشاركين في السيمينار؛ كانت عظامه تصدر صريرًا، لكن المشقة كانت موجهة لتوضيح الجهد الذي يتكلفه العثور على قرائن. بينما كان ماكسيل يتحقق إن كان هناك حيوان في القاعة أم لا، ظل مونك لا مباليًا، واقفًا أمام السبورة في مقدمة القاعة. "لم أجد أي قط"، قال ماكسيل من آخر الصالة، متنفسًا بصعوبة، ورد عليه توم بأنه حسب ما تعلم في محاضراته حول ليبنز، هذا كان يكشف فقط أنه لم يكن من الممكن التحقق من وجود قط بناء على الخبرة في أحد العوالم الممكنة، (لكن ليس فيها كلها).

Twitter: @alqareah

عندما سمعه زملاؤه أخذوا يصفرون ويدقون الأرض استهجانًا، بينما كان توم مبتسمًا ويرسم على السبورة دوائر أكبر فأكبر لكي يكشف عن بدائل الحقيقة في ظروف مختلفة. ولأن الخبرة غير كافية، توجد حاجة لبناء تخيلات نظرية. نماذج متخيلة(*).

على سبيل المثال، إمكانية وجود قط غير مرئي في هذه القاعة تعتمد على الواقع الذي نفترضه.

وهذه كانت، عندما ننظر لها الآن، المقاربة الأولى للقرار الذي سيحمله إلى التحول إلى أكثر المجرمين الذين بُحِثَ عنهم في تاريخ الولايات المتحدة.

صحة توماس مونك كانت تبدو "ضعيفة"، دائمًا يوحي بالانطباع بأنه "في حالة حرجة". لم يكن يستمع لأحد، باستثناء شقيقه، الذي كان يأتي لزيارته كثيرًا، وكان يقضي معه أيامًا عديدة في النقاش داخل حجرته أو في البارات أو أثناء التمشية على ضفة نهر تشارلز.

من عرفوه في ذلك الوقت كانوا يدافعون عنه، وتلك الشهادات والحكايات عن فترة دراسته، كانت تدعم إحساسًا بعدم التصديق لدى الجميع إزاء أفعاله. كيف يمكن أن يتحول هذا الشاب إلى إرهابي؟ لم يكن فاشلاً راديكاليًا، كما سيصفه إنزيزبيرجير بعد سنوات، لم يكن حاقدًا على المجتمع ولا مهمشًا، كان شابًا أمريكيًا ناجحًا؛ لم يكن متطرفًا دينيًا، ولا ماركسيًا.

في سنوات دراسته في هارفارد بدأ توم في الاهتمام بالرياضة والموسيقى. كان يذهب مع شقيقه إلى مباريات البيسبول لفريق ريد

(*) باللاتينية فى الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

سوكس (الجوارب الحمراء) من بوسطن، وفي غرفته كان يستمع طوال اليوم إلى (Take this hummer) وأغان أخرى من موسيقى الكونتري للموسيقيين البروليتاريين من الساحل، خاصة وودي جوثري، الذي كان يعزف في بارات الطريق وفي صالونات عائلات قرى بنسلفانيا. كما كان يتردد على "زي بير"، بار ومعقل للبوهيميين في بوسطن، وكل هذا كان يبدو جزءًا من خبرته، كأنه غريب لا يعرف شيئًا عن ثقافة البلد، وعليه أن يتعلم كل شيء ناسخا طريقة حياة السكان الأصليين الذين يتردد عليهم. بالنسبة لشقيقه بيتر، كان طبيعيًا أن يواصل طريق الخبرة البروليتارية والحياة الحقيقية لجيله، لكن توم كان يبدو كمتلصص لأنه لم يغير أبدًا وجهه الجاد وابتسامته المتجهمة حتى لو كان يدق الأرض بقدميه على إيقاع موسيقى هانك ويليامز أو جوني كاش.

ذات مساء عرف فتاة في أحد محال الرقص في ميناء بوسطن. كانت فتاة شقراء نحيفة، من عائلة من المهنيين في نيويورك، كانت تدرس في فاسار وترتدي تنورة أسكتلندية، بدبوس تطريز كبير يثبتها من الأسفل وجوارب سوداء. كانا يذهبان إلى السينما المفتوحة، يلعبان السكرابل ويذهبان إلى الموتيلات لممارسة الحب في ساعة القيلولة. الفتاة كانت قانعة بحياتها وتحبه، رغم أنها لاحظت أنه غريب بعض الشيء، وكثير الشرود.

ذهبا للحياة في منزل ريفي في الصيف، وسافرت فجأة لزيارة أبويها لكن عندما عادت انتبهت إلى أن توم لم يلحظ غيابها. آه، لقد ذهبتِ، قال لها عندما رآها تصل في منتصف الليل بحقيبتها وقميص كهدية.

Twitter: @alqareah

في تلك اللحظة أدركت الفتاة أن توم لا يناسبها، حسب ما صرحت لوسائل الإعلام؛ فكرت دائمًا أنه فتى رائع، يستحق حظًا سعيدًا، رغم أنه كان منغلقا أكثر من اللازم على حياته الفكرية. افترقا بهدوء وهي، التي لم يُذكر اسمها في وسائل الإعلام، صرحت أنها كانت تتلقى أحيانا بطاقات بريدية من توم بها تحية وأسئلة محددة للغاية. أظهرت إحداها لصحفي من نيو صن: "عندما ذهبنا إلى حديقة الأسماك، في ماساشوستس، هل كنت ترتدين معطفًا بلاستيكيًا أصفرًا؟ من فضلك أجيبيني، إنها تفصيلة شديدة الأهمية، كتب لها. كان يقوم بالبحث في دقة الذكريات، وكما يبدو، كان يعمل على ما كان يطلق عليه ذاكرة عشوائية والصورة التي لا تنسى للأحداث التي عشناها.

كان منغمسًا في سلسلة من التجارب الرامية إلى صياغة نظرية حول القرارات. ما الشروط المطلوبة لاستنباط الحقيقة؟ وضع كمثال قضية عدد الأبناء الذين أنجبتهم ليدي ماكبث، المشكلة التي لم تحلها مسرحية شكسبير. كان يعتبر أن هذا الأمر حالة فرضية، تماما مثل أي حدث آخر لا يمكن التيقن منه في الحياة الواقعية. بعد أسبوعين من العمل في منطق المجموعات الضبابية، حلها بالتخمين، انطلاقًا مما كان يطلق عليه القرار غير الموثوق به "كان لديهما ثلاثة أبناء". بهذا العمل (أبناء ليدي ماكبث أو نظرية المتتاليات غير اليقينية)، أصبح أول طالب - بعد نعوم تشومسكي - يحصل على الاعتراف برسالته التمهيدية كإضافة للعلم، وتنشر في مجلة متخصصة ذات تصنيف عال أكاديميا. أصبح مرجعًا وطنيًا في العلم الواعد (برمجيات الهاردوير). كان عمره ثمانية عشر عامًا ونشر ورقته اعتبر كسبق كاف لالتحاقه مباشرة بالدكتوراه. بالفعل،

Twitter: @alqareah

أصبح طالبًا في الدراسات العليا في هارفارد قبل التخرج، وتقريبًا لم يدرك أن مكانته قد تغيرت حتى تمت دعوته للعيش في نُزُلْ الدراسات العليا في حرم هارفارد سكوير في كامبريدج.

التركيز في النظرية يعني ابتعادًا تامًا عن الأمور الدنيوية، وما يعنيه هذا من تجنب أي إلهاء أو علاقات اجتماعية. توماس مونك عمم هذا الزهد النظري على جميع أوجه حياته الأكاديمية: كان ينشر قليلا وإجمالا لم يكن يقبل دعوات لمحاضرات أو مؤتمرات.

مالكون أندرسون، المشرف على رسالته، كان يلح عليه ألا ينتظر حل كل المشاكل قبل أن يكتب أطروحته، لأن هذه اللحظة المثالية لن تصل مطلقا. تلك النصيحة فجرت في توم غضبًا عنيفًا لأنه كان يسعى إلى إنتاج عمل كامل أو لا شيء. شرحوا له أنه لن يستطع مطلقًا أن ينتهي من دراسته أو يكرس نفسه للتدريس إلا عندما يقرر كتابة أشياء غير مكتملة. هذا أخذ يثير غضبه أكثر وأكثر، وهرب من المكتب لكنه عاد بعد ساعتين نادما وطلب من أندرسون ألا يقطع علاقته معه حتى لو خذله.

في تلك الليلة، حكى أحد زملائه في ذلك الوقت، كان شديد الإحباط لدرجة أنه قرر أن يهاتف شقيقه ويطلب منه أن يأتي ليصحبه. بيتر حمله معه إلى نيويورك وفي الطريق بدءآ نقاشًا حادًا عنيفًا لدرجة أن شرطة المرور أوقفتهما للقيادة بأضواء السيارة الداخلية مشتعلة. كانا يبدوان كزوج مانيكان في واجهة عرض مضاءة. واضطرا أن يشرحا لرجل الشرطة، بالتفصيل، الأمر الذي كانا يتناقشان حوله (حول حرب فيتنام) لكي يتركهما يرحلان. "لا تتناقشا أثناء القيادة"، نصحهما الشرطى. بالفعل، هناك، في قسم

Twitter: @alqareah

الشرطة بقرية مظلمة على الطريق بين بوسطن ونيويورك، بدأ في صياغة نظريته حول التسلسل الضمائري. "أنا أفكر، لكن الآخر لا يصدقني". كانت هذه إحدى فرضياته. كل متتالية ضميرية (أنا/أنت/نحن/هم) تفترض واقعا مختلفا ونظاما آخر لليقين.

عندما نشر رسالته حصل على ميدالية فيلدز، أعلى تكريم يمكن أن يصبو إليه عالم رياضيات. كان عمره خمسة وعشرين عامًا.

"إنه عاطفي، عميق، متحمس ومسيطر. لديه نوع من النقاء لم يصل إليه أي شخص أعرفه. توماس مونك ربما يكون المثال الأكثر اكتمالاً على الشخص العبقري، كما يفهم من هذه الكلمة"، صرح المشرف على رسالته.

يعتقد الكثيرون أن أندرسون، المصنف الأول في مهنته، تم تجاوزه بهذه الطريقة عن طريق هذا الطالب الغامض من أصل بولندي، لدرجة أنه تقاعد في ذلك العام نفسه من الجامعة، وانغلق في بيته بجانب البحر في خليج بوسطن، ذلك البيت عالي الأسوار بأسلاك مكهربة، والذي خرج منه فقط ليتسلم جائزة نوبل للفيزياء وبعد ذلك لكي يتقدم بشهادته في المحاكمة التي يتم إعدادها لمونك في تلك الأيام.

-عندما يكون في حالة معنوية سيئة، يوجد فيه - قال أندرسون - شيء يجعله يبدو كمعتوه (أحمق)(*)، شاب حائر لطيف يتحدث باضطراب مغمغما كأنه يتوه بين أفكاره أو مصاب بخلل ما لكن عندما يكون في حال جيدة يصبح مبهرًا، متألقًا، عنيدا؛ كان الأرنب البري في التفكير، ولم يكن ليلحق به أي أخيل مجنح.

(*) مكروه بالإنجليزية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

هذا التصريح من أستاذه كان أحد مبررات عائلة توماس مونك لتبرهن على جنونه ومحاولة تغيير موضوع المحاكمة، وبالتالي تفادي الحكم بالإعدام. في ١٩٦٧ قَبِلَ مونك منصب بروفيسور في قسم الرياضيات في جامعة كاليفورنيا، في بيركلي، التي كانت في ذلك الوقت أكثر جامعة مرموقة في البلاد.

بعض المحللين يشيرون إلى أن مونك اكتشف الفلسفة المناهضة للتكنولوجيا في كاليفورنيا، وهناك بدأ في الحلم بالهرب إلى حياة البَرية(*). ربما قرر التدريس في بيركلي لكي يتعرف عن قرب على الحركات المناهضة للرأسمالية التي كانت في أوجها، ولكي يراقب أفعال المجموعات الفوضوية في خليج سان فرانسيسكو.

-كان استثنائيًا كبروفيسور - قال مايك أوبرمان، باحث بارز في إم أي تي - رغم أنه كان يغيب كثيرًا لإصابته بالصداع أو لمسيراته الليلية الإجبارية التي كان يضل طريقه فيها حتى الصباح، ولهذا لم يكن يأت للمحاضرات. نحن أيضًا كنا نعاني من الصداع، كأن عمق التفكير يصحبه صراع مع جدران الجمجمة.

في تلك الفترة تم تجنيد شقيقه بيتر وأمضى ثمانية عشر شهرًا في فيتنام وعاد من الحرب مدمنا للأفيون. تم إعفاء توم من الخدمة لأسباب طبية، وشقيقه ذهب إلى الحرب مقتنعًا بأنها أكبر خبرة يمكن أن يتطلع إليها كاتب، حتى هبط إلى ساحة الحرب. حينئذ غير رأيه، لكن بعد فوات الأوان.

عندما عاد بيتر، كان توم ينتظره في المطار ورآه يصل مرتديا الزي الرسمي البني الفاتح، بحقيبة زرقاء يحمل فيها متعلقاته، فتى

(*) بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

قوي البنية يحمل ندبة تعطيه تعبيرًا عدائيًا وقاسيًا. حينئذ، وفقًا لبيتر، بدأ شقيقه يتحدث عن قرار تغيير الحياة. لم يعد يحتمل العالم الأكاديمي، كان يشعر بالاختناق. ببطء أخذت تجربة بيتر في الحرب تنتقل إلى المقام الثاني، ودار الحوار حول نيات توم وحول قراره بالعيش منعزلا، مكرسًا نفسه لأبحاثه. كان يريد الابتعاد عن العالم خلال بضع سنوات، لكي يتعمق في أعماله في فلسفة الرياضيات وأيضا لكي تؤثر طريقته في الحياة على أفكاره مباشرة. "أدركت"، قال، يحكي شقيقه، "أن المثالية والمادية تتفقان فقط في أنه يمكن السيطرة على العالم بإدارة الظهر له". الحقيقة لا تتوافق كثيرا مع الواقع المعملي، قال بعد ذلك، إن الطريق الوحيدة للحفاظ على سلامة العقل هي الابتعاد عن كل شيء. كان يريد الانعزال لكي يختبر قدرته على تحقيق عمل مفيد بالفعل.

ذهبا إلى بار على جانب الطريق ليأكلا ويشربا بيرة. على الجدران المصنوعة من جذوع الأشجار توجد رؤوس لحيوانات كبيرة الحجم. توم لم يكن ضد موت الحيوانات، لم يكن نباتيًا ولا مؤيدًا للسلام، على العكس من بيتر، الذي عاد من فيتنام بميل قوي إلى الركون والزهد الشرقي، كأن أكل الخضروات فقط سوف يساعده على نسيان الأجساد الممزقة لزملائه الذين ماتوا في الحرب.

بعد فترة ترك توماس مونك عمله الأكاديمي، كأن القرارات المفاجئة تشكل جزءًا من برنامجه الشخصي. كتب إلى المدير معلنًا عن استقالته، رسالة قرأناها كلنا في الصحف. فكر بيتر أن شقيقه يحاول الجمع بين الثقافة والحياة، الفكر والتجربة. جيل كامل كان يحاول أن يفعل الشيء نفسه ويهجر طرق الحياة التقليدية كوسيلة للوصول إلى الحقيقة.

Twitter: @alqareah

بعد تَرْك الجامعة، قرر توم السفر بسيارة عبر الولايات المتحدة، وكل فترة كان يرسل لشقيقه بطاقة بريدية. كان يرسلها من نقاط مختلفة من الطريق، عادة في خدمة البريد في المتاجر الصغيرة. (صورة: موتيل في الصحراء، وخلفها مكتوب بخطه كقصير النظر: "عندما أصل إلى الموتيل يجب أن أقضي ثلاثين أو خمسًا وثلاثين دقيقة في إخراج الحشرات الميتة من الزجاج الأمامي ومن شبكة المحرك"). واصل سفره على الطريق ٢٢ وتوقف كيفما اتفق في قرى كانت خارج نطاق الطريق السريع. صورة: قصر. "في هذا المكان كلهم يعيشون على تربية النحل. فقط يمكن رؤية صناديق بيضاء بها خلايا العسل، وأشخاصًا يحملون أقنعة وحلى صفراء مثل رواد الفضاء". حتى إنه وصل إلى المكسيك وأخذ يسأل إن كان يمكنه شراء عزبة صغيرة أو مزرعة. (صورة: بيت القنصل في كوينكا باكا. "كلهم هنا يتحدثون عن مذبحة الطلاب في تلاتيلولكو التي وقعت قبل ثلاثة أعوام"). بعد ذلك عبر الحدود نحو كندا في الشمال وحاذى الطريق السريع ٦٨ حتى البحيرات الكبرى، وفي كل الأماكن كان يسأل أي أعمال متاحة وأين يمكنه الحصول على أرض منعزلة. صورة: حرباء في وسط الطريق. "سُرقت مني الحقيبة في محطة البنزين. لدي قطع صابون كثيرة في الموتيل، فوطة متسخة بالقطران، دفتران من كلير فونتين حمراوان، ماكينة حلاقة كهربائية تعمل على التيار المتردد، فرشاة أسنان". الأسباب الشخصية كشف عنها لأخيه وكتبها من أوكلاهوما، في فندق، في رسالة و(يحتفظ بنسخة كربونية منها في ملف)، يلاحظ فيها نبرة متوترة إلى حد ما. "في ليلتي ٣و ٤ نوفمبر، في الطريق إلى كولورادو، فندق به آلة كاتبة، استقبلوني بترحاب. وجدت أرضًا صالحة لأهدافي بالقرب

Twitter: @alqareah

من المحمية الكبيرة في ولاية قريبة". الصورة كانت لغابة تغطي سفح جبل وتمتد عبر الوادي حتى ضفة نهر كبير.

-٢-

غابات مونتانا تمتد عبر مئات الكيلومترات بين أودية، هضاب وجبال عالية. منطقة غير مسكونة شتاءاتها قاسية وأصيافها طويلة. قديمًا كانت أرضا لمهربي الجلود والباحثين عن الذهب الذين يتوغلون في الجبال ويتوهون خلال شهور كالوحوش.

وصل توماس مونك هناك في تاريخ غير محدد، في منتصف السبعينيات. ذات مساء ظهر في قرية جيفرسون، قال إنه مسّاح أراضٍ ويريد القيام ببعض الأبحاث طويلة المدى في الأرض. كان يبدو رجلاً مسالمًا، يريد أن يعيش منعزلاً، مثل كثيرين في هذا البلد.

"يوجد المئات من اليائسين الذين ينفصلون عن العالم ويعودون إلى الحياة الطبيعية"، برأي باركر؛ "وباء منتشر في البلاد، الذهاب إلى الحدود، البحث عن أودية خالية وسلام. أبناء بلدي ينقسمون إلى من يشيّدون المدن بحماس شديد، يصنعون سيارات ويمهدون آلاف الأميال، ومن يذهبون إلى البراري ويعيشون في اتصال مع الطبيعة. بينهم ستكون المعركة النهائية التي بدأت كحرب بين الهنود الحمر الذين يعيشون على الجبال وأصحاب الوجوه الشاحبة القادمين من المدن". بعد ذلك كانت تعاونيات الهيبيز، ثم أنصار البيئة هم من ابتعدوا عن الحضارة وعاشوا منعزلين. أبناء الطبيعة الغاضين هؤلاء كانوا يعتبرون أن حيواتهم منقوصة ومشوهة وأن

Twitter: @alqareah

خبراتهم الاجتماعية مرعبة، وكانوا مقتنعين أن ثقافة جديدة يمكنها أن تولد في العزلة ورفض التجمعات المدينية.

في البداية بنى كوخًا خشبيًا من ست أقدام، متبعا النموذج الذي بناه ثورو في والدن، وتأقلم بسرعة مع حياة الوحدة. قام بتمهيد منطقة خالية في الغابة وتخطيط أرض مساحتها خمسين في خمسين. بنى فرنًا من الطين وحماما خلف البيت، وحفر بئرًا لكي يستطيع إخراج الماء بمضخة يدوية. بنى مخزنًا للحطب وفي الخريف بدأ في جمع الخشب لقضاء الشتاء.

خلال اليوم كان يخرج للقنص وصيد السمك، وكان يعتني بمزروعاته وحيواناته ويحافظ على الكهف الذي يخزن فيه الأطعمة جافًا جيد التهوية. في الغروب يعود إلى كوخه وعند حلول المساء كان يقوم بالقراء والدراسة في ضوء شمس الليل الهادئة(*). الطريقة الوحيدة لحياة العزلة المطلقة هي اتباع عادات محددة ثابتة. قام بتقسيم حياته إلى متتاليات مستقلة، تتبعُ دعة وهدوء تغيرات الطبيعة. القضية لم تكن كيف يجب أن نفكر فيما يعاش، وإنما كيف نعيش لكي نستطيع التفكير.

في تلك الأيام بدأ في كتابة يومياته. لم يهجر أبدًا عمله وفرضياته في الرياضيات وفي المنطق، لكن قراءاته وكتاباته امتدت إلى مجالات أكثر تشعبًا مع مرور الوقت. إن نظر المرء إلى مكتبته لن يمكنه تخيل في أي اتجاه كان يقوم بأبحاثه (من بين كتبه كان يمتلك، على سبيل المثال، الأرجنتين، مجتمع جماهيري لتوركواتو دي تيا)، ولا العلاقة بين عمله واعتداءاته المسلحة.

(*) توجد بعض الأقاليم في أوربا وأمريكا الشمالية، تغيب عنها الشمس في العاشرة مساءً. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الأرض والشاحنة الصغيرة كانتا باسم أخيه، وهكذا لم يكن يدفع ضرائب ولا يستخدم الكهرباء ولا الغاز ولم يكن لديه تليفون؛ لم يرغب في تسوير أرضه، وأحيانًا كان يجد مسافرين ومجموعات من المصيّفين يخيمون في الجبال. كان يصنع فخاخًا مثل الصيادين القدامى ويقايض جلود الثعالب والأرانب في القرية. كان يخصص بعض الساعات لملاحظة الفرائس التي يريد قنصها، ويدون في يومياته الحركات والتغيرات في العادات لدى الحيوانات، وهكذا كان يمكنه الإيقاع بها من دون صعوبة. عندما كان يخرج للصيد في الغابة، لم يكن يبتعد أكثر من مسيرة ثلاث ساعات عن كوخه. كان يتحرك في دوائر يعرفها جيدا من عشرين كيلومترًا. يقيم في مأوى مسقوف بالأفرع بالقرب من البحيرة الرئيسية لكي يراقب الحيوانات التي تأتي لتشرب منها. أرانب برية، أرانب وحشية، بط، في بعض الأحيان ذئب أو قط وحشي.

ذات مساء رأى دبًا منتصبًا يدخل الماء ويقترب من خلية نحل معلقة على جذع شجرة، وقام بإدخال فرع ليأكل العسل. كان يغطس في الماء ليتخلص من النحل أو يقتله بيده الأخرى، لكن بينما يأكل كان يحتفظ بعينيه مغلقتين لكي لا تتركه اللدغات أعمى. ذهب فجأة كأنه يركض في الماء ويفتح طريقًا بين النباتات الكثيفة.

"محو البصمات أمر لا تعرفه الحيوانات". هذا كان أكبر الفروق بين الإنسان والوحوش. "نحن"، كتب في يومياته، "نعرف كيف نزيل الآثار، نصنع آثارًا مزيفة، نعرف التحول، أن نصبح آخرين. في هذا تنحصر الحضارة؛ القدرة على التصنع والخداع سمحت لنا ببناء الثقافة".

Twitter: @alqareah

عندما تهب رياح الشمال كان يخرج لصيد السمك في الصباح الباكر. ماء النهر الرائق، بالكاد تحركه الرياح الهابطة من الجبال، يمكن رؤية أسماك التروتة ثابتة أمام التيار؛ كان يصطاد بذبابة(*)، يهز العصا فوق السطح في جلدات قصيرة ويرى الأسماك تقفز لكي تمسك الخطاف في الهواء.

من وقت إلى آخر كان يذهب إلى القرية ويساعده السكان، وأحيانًا كان يطلب منهم معدات أو بذورًا في مقابل أعمال صغيرة يقوم بها لأجلهم؛ كان يعتبر أن هذه العمليات الاقتصادية نوعًا من المقايضة - وليس الاقتراض ولا البيع - طريقة للتضامن بين الجيران، بقيت على قيد الحياة رغم التغيرات التي فرضها المجتمع الصناعي.

أحيانًا كان رجل الشرطة العجوز في القرية يذهب إلى الكوخ لزيارته والحوار معه. كان أكثر الرجال الذين عرفتهم مسالمة، صرح المأمور. كان يدعوني لتناول أرنب وبطاطس مشويين، والحلوى عنب أحمر وعسل من الدرجة الأولى. كنا نتناول شيئًا من البيرة التي أحضرها في السيارة، ودائمًا أتذكر تلك الولائم كأفضل ما أكلت، رغم أنني ذهبت إلى غداءات وعشاءات مع سلطات القرية والولاية.

كانا يبدوان اثنين من رعاة البقر يأكلان في الهواء الطلق، يعدان القهوة على نار التدفئة ويسمعان الذئاب الأمريكية من بعيد. يوجد

(*) طريقة للصيد يرجح أنها استخدمت للمرة الأولى فى الصين قبل ألفي عام من الميلاد. لكن استخدامها بشكل موسع تم قبل قرنين من الميلاد في مقدونيا، ومنها انتشرت لبقية أنحاء أوربا. تستخدم فيها ذبابة أو حشرة حقيقية أو صناية. يتم تعليق الذبابة بخطاف في طرف العصا أو الخيط وتحريكها فوق ماء النهر أو البحيرة بضربات كجلدات السياط، حتي تخرج سمكة لأكل الحشرة. (المترجم).

Twitter: @alqareah

شيء شديد الذكورية في تلك الحياة في الهواء الطلق، شديد الأمريكية، يمكننا أن نقول، الرجل الذي يهجر التزاماته ويعيش وحيدا في البراري والغابات.

ذات مساء دهمه سيل بينما كان بعيدًا عن البيت، وقضى أسبوعًا يعاني من الحمى ولا يفعل شيئًا سوى النوم على الفراش، وشرب الشاي بالعسل. أحيانًا كان يذهب إلى المستشفى للكشف على لدغات الحشرات وحالة يديه التي كان يعتني بها باهتمام عازف بيانو.

"كنا نقوم بجولات طويلة"، حكى الشرطي، "نسير بجوار النهر ونصعد حتى قمة جبل وايت لنرى الوادي من الجانب الآخر، وبه الطرق السريعة التي تعبر الولاية المجاورة نحو المدن المكتظة في الشمال". لم يعرف أبدًا أنه عالم رياضيات شهير، لكن كان لديّ انطباع أن معارفه العلمية أكثر من أي شخص عرفه. "كان فوق كل شيء رجلاً هادئًا"، قال المأمور. "من المؤكد أنه ارتكب الجرائم التي يقولون إنه ارتكبها لكن يجب أن نسأله عن الأسباب، لأنه أكثر الأشخاص الذين عرفتهم طيبة في كل سنواتي كشرطي ريفي"، صرح للجريدة المحلية.

في جيفرسون بدأ في التردد على ماري آن، الجرسونة في بار عند تقاطع طريق ٦٦. قال لها إن اسمه سام سالينجر، إنه رحالة، كان متزوجًا لكن زوجته لم تعد تحبه. حدثها عن مشاريعه، وكانت أقرب شخص على وشك أن يكشف له عن حقيقة خططه. المجتمع غير عادل، قاس. كان يجعلها تتبع أفكاره وتصل الفتاة بمفردها إلى استنتاجات مدهشة. هذا كان، وفقًا لما دوّن مونك في يومياته،

Twitter: @alqareah

الدليل على أنه عشقَ الفتاة. ماري آن تقدمت للشهادة فور أن تعرفت إليه في الصور كالشاب الذي جمعتها معه علاقة حميمية خلال شهور، وأشارت مرات عديدة إلى ذلك المساء، عندما قام توم، مرتديًا معطفًا رماديًا على جسد عار، بالكشف عن نيته في ترك كل شيء والسفر إلى كندا لمكان بارد وبدء حياة جديدة. ما رأيها؟ هل تذهب لتعيش معه بالقرب من الجليد الدائم؟ الفتاة قالت له إنها يجب أن تفكر في الأمر، لكنها كانت قد قررت ألا تراه ثانية. تخيلت أنه هارب من الجيش، فقد كان هناك الكثيرون. بدا لها رجلا غريبا، شديد التهذب وحنونًا، يتصرف كأنه يريد أن ينسى جريمة أو أنه هارب من السجن.

أحيانًا، أثناء الصيف، كان توم يعمل في قطع الخشب أسبوعًا أو اثنين ليجمع شيئًا من المال النقدي ينفقه بعد ذلك في مشترياته الخاصة.

حتى إنه خلال شهور طويلة عمل كمعلم في مدرسة القرية. كان يقوم بتحضير الدروس بكثير من الاهتمام، كأنه يسعى إلى الابتعاد لفترة عن كوخه، وأحيانًا كان يبقى في نُزُلْ السيدة فيرجسون لكي يكون بالقرب من المدرسة. قام بترجمة قصة للطلاب - وهذه كانت مفاجأة لي- "خوان دارين" لأوراثيو كيروجا، الذي قام أيضًا بالانعزال وذهب ليعيش في الغابة وبنى بيته بنفسه، وعاش مع زوجته وأولاده في ظروف صعبة، بينما كان يكتب بعض أفضل القصص في الأدب المكتوب بالإسبانية. كان يستخدم قصة كيروجا ليكشف عن قسوة الحضارة، التي كان جذرها الإغريقي يعني، قال في الفصل، استئناسًا، تمرينًا وسيطرة.

Twitter: @alqareah

عثر على وعلٍ مجمد في منطقة خالية في الغابة. في البداية فكر أنه حي وراقبه من مخبئه بين الأعشاب. بعض الحيوانات المتوحشة تظل من دون حركة عندما لا يمكنها الهرب. على ما يبدو، كان قد ابتعد عن القطيع. الوعول تتجمع في الشتاء، لكن ربما يكون هذا قد ابتعد أو ضل طريقه. يبدو تمثالاً متقنًا لوعل شاب تم الإمساك به في اللحظة التي يرفع فيها رأسه ليحدد اتجاهه بالنظر للشمس.

فجأة تذكر كيف كانت أيامه السعيدة في الماضي: الاستيقاظ في فراشه، وضع قدميه الحافيتين على سجادة، الاستحمام، إعداد القهوة، الجلوس للعمل في مكتبه بالجامعة. لم يكن حنينًا، كانت طريقة لملاحظة حياته الماضية كأنه هو نفسه كان وعلاً متجمدًا تحت الجليد.

-٣-

بدأ تجاربه أخيرًا. الأولى كانت تمرينا، كان يطلق عليه تمرينًا، كمن يقوم بعمل تجربة في معمل قبل البدء في بحثه الرئيسي. قرر اختيار هدف مجهول تفاديًا للخطر. خرج من كوخه مع الغروب، لكن قبل ذلك أشعل المصباح وحَسَبَ الوقت الذي سيستغرقه احتراق الوقود. علق، تحسبًا، المصباح في وعاء من الصفيح فوق مائدة. إن مر كل شيء على خير سيتأخر ست ساعات، وإن مر أحد أمام بيته يمكن أن يتخيل أنه يعمل وأنه، مثل مرات أخرى كثيرة لم يرغب في فتح الباب لكي لا يقطع عمله.

لن يره أحد يصعد للشاحنة القديمة ويقطع المسافة نحو الطريق السريع، والاتجاه بعد ذلك حتى الطريق الذي يحمله إلى دورانجو. لم يكن يشغله شيء سوى هدفه "لا أفكر في شيء سوى الخيط

Twitter: @alqareah

الأبيض على الطريق والأشجار التي أمر عليها". غير لوحة الأرقام، وضع نعلا إضافيًا لحذائه لكي لا يتم التعرف على آثاره. في ذلك الوقت كان يذهب متنكرًا إلى الجنوب. لكن حالته النفسية لم تكن البرود والهدوء وإنما الحماس، الذي كان التوتر يحوله إلى نشوة. كيف سيتصرف؟ كان قد أمضى سنوات منعزلا، والآن كان يريد أن يعرض نفسه للاختبار: "ليست الجريمة هي ما تعزلنا، لكن أولاً يجب أن نعزل أنفسنا لكي يمكننا ارتكاب جريمة".

دخل المدينة من الطريق السريع الشمالي، في تلك الساعة توجد حركة كثيرة في الشوارع. بعد شهور كثيرة من الوحدة، الزحام كان يضايقه. صعد على الجسر الذي يعبر الطريق ويؤدي إلى ساحة الانتظار الرئيسية للمركز التجاري الكبير. أوقف الشاحنة في المنطقة المخصصة للموظفين ونزل هادئًا بظرف في يده، وانحنى ليفحص عجلات البيك آب، وبالحركة نفسها ترك القنبلة مخبأة تحت محرك هوندا حمراء. بعد ذلك خرج هادئا من ساحة الانتظار وذهب إلى طرف طريق الخروج، وعاد للدخول في ساحة الانتظار من الناحية الأخرى للمركز التجاري.

كانت هناك سيارات واقفة، عربات سوبر ماركت، خطوط بيضاء ولافتات وطائر نورس ينقر بقعًا دهنية. يبدو أنه ضل طريقه. اختلط عليها لمعان الإسفلت الرمادي مع سطح الماء. يمكنه أن يطير كيلومترات وكيلومترات فوق البحر، لكنه لم يكن ليبتعد إلى هذا الحد عن الساحل، باستثناء أن يصاب بالجنون إن فقد اتجاهه. كان يراه يسير في قفزات، الجناحان مفتوحان، العينان حمراوان، المنقار نصف مفتوح بلسان صغير خارجه. لا يبدو أن أحدا رآه، وكان يتحرك بارتباك بين السيارات المركونة وبرك الزيوت وبقايا الجليد

Twitter: @alqareah

الموحل على الإسمنت، حتى بدأ الطيران في النهاية وابتعد نحو الأضواء العالية للمباني القريبة.

حسب ما اطّلع في (بست كمبيوتر كوم) في دورانجو، كان الباب الجانبي مخرجًا إجباريًا للتقنيين ومهندسي الكمبيوتر. كل المؤسسات الكبيرة تكرر نفس التصميم ووظائف العاملين بها، وبهذه الطريقة، إن قام شخص بمعرفة مبنى بشكل جيد، سيعرف باقي المباني. كان هذا دليلاً على الوهن الداخلي في النظام: لتقليل التكاليف كانوا يقومون بتكرار النموذج وترتيب طوابقه. الحمامات، الكاشير، موظفو خدمة العملاء ومراجعو الحسابات ومن يقومون بالتغليف، المكاتب، الباب الرئيسي، كانت متشابهة في كل مباني الشركة في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية. الأمر نفسه كان يحدث مع الفنادق والسوبر ماركت والبارات من نفس السلسلة، وصالات السينما الصغيرة وساحات الانتظار الضخمة، وأيضا مع شرائط العزل الخاصة بالشرطة والتنظيم الداخلي للسجون. التكرار الثابت في الأماكن ودوال المتسلسلات(*) تسمح بتقليل التحركات: كأن تنظيم المساحات يُصَمَمُ لكي تتحرك أعداد كبيرة من الموظفين والزبائن ورجال الأمن بأريحية، في وقت متزامن وباتساق، وبهذا يسهل تخمين ما يفعله من لا يخضعون لهذه الترتيبات ويمكن تحديد مكانهم في الحال عبر كاميرات المراقبة.

كان لدى توم سجل بالتقنيين الذين يعملون في المعمل تحت الطابق الأرضي. مجموعة من المهندسين وطلاب دراسات عليا سابقين متخصصين في علوم الحاسبات، هبطوا في الدرجة

(*) دوال المتسلسلات هي نوع من المتسلسلات الرياضية، حيث لا يكون ناتج الجملة مجرد أرقام وإنما دال. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الاجتماعية ويعملون الآن موظفين عاديين في سلسلة كبيرة، حيث يقدمون شروحًا للزبائن حول الماكينات الجديدة المتطورة التي تباع في متاجر بست كومبيوتر كوم.

تبقت عدة أيام على أعياد الميلاد، وهكذا كان المكان يمتلئ بعائلات تتحرك في جماعات في مناطق التسوق. الهواء الجليدي في الليل كان يدخل في البهو كلما فُتِح الباب الزجاجي؛ السيارات كانت تخرج وتدخل في ساحة الانتظار. النورس جاء طائرا من علُوٍ وهبط مرة أخرى على الأرض الإسمنتية لساحة الانتظار.

المرأة ذات المنديل الأخضر اقتربت من الهوندا الحمراء بحقيبة في يدها. تبدو شابة وتستخدم نظارات سوداء رغم العتمة؛ كانت ترتدي معطفًا بيج وقبعة من الجلد تغطي أذنيها. فتحت باب السيارة، تركت الحقيبة على المقعد الخلفي، خلعت المعطف؛ تحت الضوء كانت تبدو دمية في صندوق؛ عندما جلست خلف المقود وأدارت المحرك، حدثت هزة، دويّ صغير مصحوب بضوء خفيف ثم صوت انفجار.

عجوز بمعطف رمادي طويل كان يدفع عربية مشتروات توقف للحظة أمام السيارة ثم واصل طريقه مسرعًا خطاه. امرأة كانت تمسك بيد طفل استدارت وسارت على جانب بينما تجذب الابن، لكنها لم تتوقف أيضًا. النورس ارتفع طائرًا برفرفة سريعة وابتعد في الظلام نحو الطريق السريع. بعد دقيقة أخرى عاد كل شيء كما كان.

أكثر ما أعجبه الخروج من المركز التجاري، أن يصعد للسيارة ويسير ببطء في شوارع المدينة المضاءة ولم يعرف أحد أنه قاتل تلك المرأة.

Twitter: @alqareah

حكى جيدل في محاضرة بهارفارد أنه، بعد صياغة النظرية التي ستخلده، قضى ليلته مسافرًا في مترو الأنفاق ومفكرًا أن حياة الموجودين هناك ستتغير بسببه، من دون أن يعرف أحد.

ذكر في يومياته هذه التجربة الأولى. شعور بالسلطة المطلقة، بعبور الخط المقدس. كان يتحرك بين الناس بإحساس أنه غير مرئي وفريد.

الاعتداء التالي كان يسعى لمنع - أو تأجيل - دمج النظامين الرقمي والبيولوجي الذي سيسمح بالتدخل بأثر رجعي في ملايين (دي إن إيه). هانز فيرنكلي من معهد علم الأحياء في مينيسوتا، ألماني طويل، بوجه محمر وشارب كبير، رجل لطيف، بالغ الود، خرج حيا من معسكر اعتقال روسي خلال الحرب الثانية، ومن هنا شاربه (على طريقة ستالين)، كما كان يقول. "أنظرُ للمرآة وتَذَكُر أنني بقيت حيا بعد الجورجي(*) يجعلني أشعر أنني أكثر شبابًا"، كان يقول هذا. كان أرملا ويريد أن يعيد بناء حياته؛ يجري في الصيف في الغابات وفي الشتاء كان يركض في الأنفاق المضاءة بأنوار صناعية، التي تعبر الحرم الجامعي.

في ذلك الصباح تركت له السكرتيرة مظروفًا على مائدة مراسلات اليوم. من الأفضل فتحها في وقت آخر لكنه لم يستطع مقاومة إغراء معرفة إن كانوا قد كتبوا له حول مقاله الأخير، غير العادي، الذي نشر في المجلة المرموقة ساينس. عندما فتح المظروف

(*) إشارة إلى جوزيف ستالين الذي كان أصلا من جورجيا، ورحل عام ١٩٥٣. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الذي يفترض أن يكون قد أرسله زميل في إم آي تي، انفجرت قنبلة سببت له جروحا خطيرة.

الإصابات سببت له ضررًا في المخ، ومنذ ذلك الوقت يعيش نزيلاً في مركز تأهيل بالقرب من الجامعة. من النوافذ كان يمكنه رؤية الشباب الذي يعبر الحديقة أثناء ذهابهم إلى المحاضرات، لكن هذا المشهد كان يبدو له فوق احتماله لدرجة أنه قرر البقاء في غرفته بالباب مفتوح على الممر، حيث كان مرضى آخرون يعبرون مستندين على عكازات أو زاحفين على مقاعدهم المتحركة.

عالم الرياضيات جون بريدلوف، الذي كان يشرف على كرسي بانو في جامعة شيكاجو، نزل في الصباح الباكر بعد الإفطار بواق على الأنف، لكي لا يستنشق الهواء الملوث لأنه كان يحاول ألا يسقط مريضا في الربيع كما كان يحدث له بوتيرة أكثر بسبب ما يطلق عليه حساسية، والتي كانت تجبره على الدخول في مستشفى ميموريال في شهر أبريل من كل عام. كان على وشك إنهاء عمله حول المنطق غير المستقر للمعلومات في المتسلسلات المفتوحة، وفيما يشبه الخرافة المثيرة للضحك إلى حد ما، كان يخشى أن يمنعه السقوط مريضًا من إنهاء معادلاته. لم يكن قد أوفى بأي من الواجبات الاجتماعية البسيطة التي تنتظر من رجل في عمره ومكانته أن يقوم بها: لم يكن قد تزوج، لم ينجب أبناء، كرس حياته لعمله ويشعر بالتقدير من جانب زملائه. الخطاب المرسل زيفا من عالم رياضيات شهير في كاليفورنيا، والذي وصل إليه في توزيع بريد الحادية عشرة صباحًا، انفجر في وجهه وقتله في الحال.

Twitter: @alqareah

طالب الهندسة، أوهين هاوسير، عثر على لفافة تحت مقعد في صالة البرمجة في كوريي هال في معمل الكمبيوتر بجامعة كاليفورنيا، ومات عندما أمسك بها. كان عمره اثنين وعشرين عامًا، كان متزوجًا، لديه طفلة، كان ناشطًا متحمسًا ضد حرب الخليج. منيندث تولى مسئولية إخبار زوجة الفتى المقتول، الشابة الأفرو أمريكية. كان يعيش في بيت له شرفة مفتوحة، في المنطقة السكنية الراقية في الجيتو، وعندما رأوا وصول السيارة الرسمية تأخروا في فتح الباب، رغم أنهم كانوا يتلصصون عبر فتحات النوافذ. في النهاية، عندما فتحت المرأة ودعته للدخول، أعطاها منيندث الخبر وسلمها صليبا فضيا كان الشاب يحمله في صدره. الفتاة، النحيفة وبعينين متقدتين، بدأت في الارتعاش وكانت تنظر له بجمود، من دون أن تقول شيئًا. منيندث بقي لبرهة ثابتا حتى انفعلت المرأة وأخذت تسبه كأنه هو القاتل.

كما وقع اعتداء على آلان هنتر، عالم بارز في يال، أتم دراسته في المعهد العالي للدراسات في برينستون وكان يعمل في مشروع سري، تحت حماية الدولة. غير مهندم، بعيدًا عن أي تقاليد أكاديمية، متزوجًا ومطلقًا عدة مرات، كان يعيش في مخبأ محصن، تحت حماية عدة أجهزة وطنية للأمن. أحد طلابه صرح أنه أوصل هنتر في ذلك المساء بالسيارة حتى بيته ورآه يصل إلى باب منزله، الذي يحرسه رجل من الخدمة السرية، والذي مات على الفور عندما انفجرت قنبلتان من البلاستيك في مدخل البيت. الموجة التفجيرية أطاحت بهنتر حتى شجرة البلوط الكبيرة في الحديقة وغرسته في الأفرع المنخفضة الخشنة للشجرة العجوز، والتي مزقته مثل أذرع طاحونة. مات بعد ساعتين، متأثرا بالمضاعفات العديدة ونزيف داخلي.

Twitter: @alqareah

كان يُرَقِم الاغتيالات، منتظرا أن تصل إلى المائة. مونك لم يرغب في الاقتراب بشكل شخصي من ضحاياه، كان يقتلهم عن بُعدٍ، من دون أن يلمسهم، كان يعتبرهم أدوات للنظام، أفرادًا يعملون في مشروع يسعى لتدمير كل ما هو إنساني في المجتمع. كان يستخدم المعلومات المتاحة في أي مكتبة عامة معتبرة إلى حد ما، وكان يقرأ في الإنترنت تقارير الأبحاث المتاحة، وانطلاقًا من هذا كان يختار أهدافه.

ـ ٤ ـ

في ذلك الوقت تلقى أخوه رسالة يطلب فيها توم منه أن يأتي لزيارته قبل أن يعود الجليد لتجميد الطريق المؤدي لبيته في الغابة.

سافر بيتر ليومين حتى وصل إلى مونتانا، وشعر بالسعادة عندما اتجه إلى المحمية عبر طريق ضيق منحدر مليء بالحصى بين الأشجار، يصب في مساحة خالية ورأى توم، في أحد الجوانب، يزيل الطين عن حد جاروف بسكين.

كان يرتدي بنطلونًا جينزًا ممزقًا وحذاء بنصف رقبة، وقميصًا كاروهات خفيفًا، ويبدو كفلاح أو حطاب من المنطقة. تبادلا النظر تحت الضوء الخافت للمساء وشعرا بالانفعال وأيضًا بالبهجة كأن كل ما عاشاه معا يُستَعَاد كلما التقيا من جديد.

المفاجأة لبيتر أن توم لديه الآن ببغاء. أنثى ببغاء في الحقيقة. طائر أصفر، سليط، ينظر إلى الجانب بعين واحدة من داخل قفص خشبي. نعم، قال مونك، إنها ديزي. لكي لا تقول إنني لا أتحدث مع أحد مطلقًا.

Twitter: @alqareah

وعندما سمعته يتحدث عنها، فلنقل هذا، قفزت الببغاء بعصبية فوق السلك، وصرخت بغضب: مَن أتى يا توم؟ من هنا؟ وكما أن مونك وشقيقه أخذا في الابتعاد، قفزت الببغاء من جديد وعادت للصراخ بصوتها الذي يشبه صوت عجوز حانقة، بنبرة مبحوحة كمجنونة: "أريد أن أذهب للفندق، يا توم، فلنذهب الآن للفندق يا توم".

شقيقه تحول إلى صياد وجامع للفواكه وفيلسوف على مذهب ديوجين، كان بيتر يقول. أقرب جار على مسافة خمسة أميال، وفي البحيرة القريبة كان مونك يسبح عاريًا في مساءات الصيف.

عندما نشرت الصحف مانيفستو مونك كل البلاد قامت بقراءته، باستثناء شقيقه. "لأنه كاتب، فهو لا يقرأ"، قال باركر، "يكتب فقط!". بعد أسبوعين، ذات مساء، في ورشة قصصية في كولومبيا، بينما كانوا يناقشون قصص الحرب لتيم أوبرايان، قام أحد الطلاب بالتأكيد على أن أسلوب ريسكلر أفضل بكثير من كل كتّاب الحرب الذين قرأوهم في الكورس.

في تلك الليلة، بعد العشاء، في بيته، جلس توم أمام شاشة الكمبيوتر ليقرأ النص على الإنترنت. بدا له أنه يقول أشياء حقيقية، وأخرى غير قابلة للتحقيق إلى حد ما، لكن في وسط القراءة توقف أمام جملة، مثل (لا يمكنك أن تأكل كعكتك وتمتلكها في الوقت نفسه)(*)، مكررة مرتين، طريقة قديمة في الكلام كان شقيقه يستخدمها كثيرًا.

(*) بالإنجليزية في النص. (المترجم).

Twitter: @alqareah

اتصل بصديقته، باتريشيا كونولي، التي كانت تعرفهما، وكرر لها العبارة. توماس، قالت هي لكي تهدئه، لا يمكن. بالطبع لا يمكن، قال، وفي تلك اللحظة تيقن أن أخاه هو مؤلف المانيفستو.

حينئذ صعد إلى سندرة البيت، وتحت السقف المائل في "غرفة الثمائن(*)، (هكذا أطلق على المخزن في قصته شقيقي وأنا، المنشورة في نيويوركر)، التي توجد بها المقتنيات القديمة من زمن الطفولة، متراكمة في المكان - العقل السحري، ميكانو، قفاز بيسبول بتوقيع بيلي سوليفان، علم فريق يانكيز، صف من الأحذية القديمة مرتبة تاريخيًا - ووجد في أحد الصناديق، إلى جانب نسخ مستندات وصور فوتوغرافية، الأصل المكتوب على الآلة الكاتبة من مقال حول الطبيعة المختلة الذي أرسله توماس إلى هاربيرز في ١٩٧٥، وردته له المجلة من دون أن تنشره. فقرتين من المقال مكررتين حرفيا في المانيفستو.

جالسًا بين مقتنيات العائلة، فكر بيتر أنه يجب أن يفعل شيئًا. لم يكن هناك ضوء تقريبًا، والنوافذ تعكس ظلال الأشجار، وفي تلك العتمة عاد ليفكر إن كان توم هو الإرهابي، فإن حياته قد دُمِرَت.

كان يحب أخاه أكثر من أي شخص في العالم، لكن لإيقاف الموجة المجنونة من الجرائم كان يجب أن يضحي به، وسيقوم بهذا.

عندما قام بيتر، بهيئة كالأموات بإطلاع أمه على الموقف، اقتربت من زوجها، الذي كان مُقعدًا وأمسكت بيده، لا تنشغل يا جيرزي، قالت له، وبعد ذلك نظرت إلى ابنها، وبالبولندية قالت له، بصوت جليدي:

(*) بالفرنسية في النص. (المترجم).

Twitter: @alqareah

-أُفَضِلُ أن أراك ميتًا قبل أن أعرف أنك وشيت بأخيك.

المتحولون، الشيوعيون السابقون، من خاب أملهم في قناعاتهم القديمة هم (الأطفال الطائشون) الحقيقيون في السياسة المعاصرة، كان منيندث يقول، وعندما رأى بيتر أدرك أنه ينتمي لهذه الفصيلة.

إن كان يهوذا قد نجح، لما كانت هناك مشاكل كثيرة في فلسطين، صرح منيندث. كان يرى أن يهوذا أدرك أن المسيح تحول إلى متطرف متشدد عنيد، وأن العنف هو عاقبة الأفكار الهدامة لمن يطلق على نفسه راعي البشر.

أخذ رجال منيندث يصلون إلى القرية في مجموعات، بحجج مختلفة، أقاموا في فنادق المنطقة أو في بيت الشرطة في الإقليم. لم يقولوا لشخص عما يبحثون، لكن في الفجر كانوا يدخلون الغابة ويمشطون المنطقة القريبة من الوادي.

كان توم يواصل حياته المعتادة ولم يتوقف أمام التحركات الغريبة. ديزي فقط، الببغاء، بدت مفزوعة ولم تتوقف عن الصراخ "فلنذهب إلى الفندق، فلنذهب إلى الفندق يا توم" وكانت تتحرك بعصبية. في النهاية غطاها توم بقماش أسود، لكن الببغاء ازداد غضبها، واضطر أن يكشفها لأن صراخها كان أقوى تحت القماش، وبكلمات غير مفهومة لكنها غاضبة.

في النهاية، في ليلة ١٨ يونيو، حاصر عملاء (إف بي آي) البيت كأنهم يواجهم عصابة مسلحة. كانوا يعملون هكذا دائمًا، لا يتحركون حتى يكون تفوقهم عشرة مقابل واحد، ودائما يتصرفون كأن المشكوك فيهم أو الأهداف تحت المراقبة مذنبين مستعدين

Twitter: @alqareah

لجعل كلفة هزيمتهم غالية (كانوا يستخدمون هذه المصطلحات). تسللوا بين الأشجار مراقبين الضوء المرتعش في الكوخ؛ لم يكن الظلام كاملا، وبينما كانوا ينتظرون الاقتحام في صمت، أخذت الببغاء تصرخ من فوق فرع الشجرة حيث كان قفصها. من أتى ياتوم؟ ما أتي يا توم؟ مونك أطل من النافذة وظل ثابتًا لبرهة بينما يصوب عليه القناصة الخاصون من الشرطة بنادقهم من خلال المنظار. لكن مونك عاد للدخول.

اقترب المأمور من الكوخ ودق على الباب بخبطتين هادئتين، كما كان يفعل دائمًا. عندما فتح توماس مونك الباب هجمت الفرقة وقيدت حركته، بينما كان منيندث يدخل منتصرًا. من فوق الأرض، حيث ألقاه الفيدراليون الذين يمسكون به، رفع توم رأسه:

- كيف عثرتم عليّ؟ سأل.

- إنه شقيقك. قال منيندث ليثبطه.

-إذن لم تكن أنت.

الطيور على أشكالها تقع، قال باركر. كل منهم هو الأفضل على طريقته.

الكوخ كان نظيفًا، مرتبًا، الكتب أمام الحيطان وقوارير المتفجرات على الأرفف العالية. لا توجد أسلحة أمامهم. فتشوا الصناديق، ألقوا كل شيء على الأرض، هل كنتم تبحثون عني؟ أثناء ذلك جلس توم إلى مائدة عمله وباليدين والقدمين مصفدتين كان يقرأ كتابًا في التحليل الرياضي.

عندما أنهوا التفتيش، مندهشين أن ذلك الرجل، في ذلك المكان، كان قادرا على القيام بما فعل، أجبروه على الوقوف. الإجبار مجرد

Twitter: @alqareah

كلمة تقال. أشاروا له ونهض توماس مونك بكبرياء وتعال سجين سياسي.

ـ ٥ ـ

ما انتشر في وسائل الإعلام وتحول إلى محور النقاش هو السؤال: كيف يمكن هذا؟ كيف حدث؟ لم يعد الأمر يتعلق بالتقليد الأمريكي الخاص بالقاتل الواحد الذي يدخل فجأة في بار ويقتل كل الزبائن لأنهم رفضوا أن يقدموا له قهوة إيرلندية في الليلة السابقة، أو الصبي في الثانوية الذي يقتل من يقف في طريقه لأنهم أطلقوا عليه بدينا خلال ثلاثة أسابيع ولا يفيده الذهاب للجيمانزيوم. ولا حتى موظفًا في السوبر ماركت تم تسريحه ولا يستطيع اللجوء لنقابة أو منظمة للتضامن معه، يصعد إلى المبنى ويقتل الجميع في نوع من العنف السياسي الفردي. تلك الوقائع كثيرة في تاريخ مجتمع جعل من الفردانية وعدم التسييس شعارًا له. في هذه الحالة يتعلق الأمر برجل من النخبة قام خلال سنوات، وبشكل ممنهج، بالقيام بأفعال عنف وتضليل ماكينة الملاحقة الوطنية (إف بي آي) لأسباب لم تكن شخصية وإنما سياسية وأيديولوجية.

كان يعمل بمفرده، كان رجلاً عصاميًا، يعبر عن قيم ثقافته، كان أمريكيًا حقيقيًا، لكن حياته الشخصية لم تعبر عن نجاح النظام، وإنما فشله. عدم معرفة أحد سواه بسر أفعاله، ألا يمتلك الثقة خلال سنوات وسنوات في أي شخص كان أكثر شيء يثير الدهشة، لكنه أعمق ما هو أمريكي في كل الحكاية. مَن عرفوه كانوا مفاجئين ومنزعجين، وبعضهم كان لا يصدق إمكانية أن يكون نفس الرجل المسالم الذي عرفوه قد تحول إلى إرهابي وقاتل.

Twitter: @alqareah

نينا، ذات ليلة، عادت لنقر زجاج النافذة وجلست معي لنشاهد الأخبار في التليفزيون. عندما رأينا توم مونك للمرة الأولى في (أي بي سي نيوز) كان الوقت متأخرًا، بسبب اختلاف التوقيت. نقلوه من السجن إلى المحكمة ونزل من شاحنة الشرطة، مرتديًا الأوفرول البرتقالي، الوجه مغطى بالشعر بسبب اللحية الحمراء المشعثة، لكن بابتسامة على الشفتين. بدا متوحشًا، إنسان الغابة، وعندما رأى الكاميرات رفع يديه المصفدتين بقبضتين مغلقتين كأنها تحية نصر. كان كعباه مقيدين بالسلاسل، ويتحرك بصعوبة بينما يدخل محكمة جيفرسون، حيث بدأت الجلسات التحضيرية للقضية قبل نقلها إلى المحاكم الفيدرالية في ساكرامينتو بكاليفورنيا.

المُتخفي، قالت نينا، المنعزل عن العالم، الذي يحارب بمفرده. من الصعب العثور على شيء مشابه في التاريخ السياسي. عاش عشرين عامًا مثل روبنسون مشنا حربه المنفردة ضد الرأسمالية العالمية. عثروا في الكوخ على يومياته، المكتوبة في جزء منها بالإسبانية والجزء الآخر مشفر، حيث كان يرصد حياته ويدون تفاصيل اعتداءاته.

الادعاء طالب بالإعدام، ورفض توم اتباع نصيحة محاميي مكتب شهير في نيويورك قام شقيقه بالتعاقد معهم، وكانوا يريدون أن يدعيَ الجنون، وأن ينتهزّ الإجراءات القانونية المتعلقة بهذا لتفادي الإعدام. مونك على العكس رفض هذه الإمكانية، وطلب الدفاع عن نفسه.

كونه يرفض حماية نفسه بادعاء الجنون كان دليلاً على اختلال قواه العقلية كما يرى المحامون. المجانين فقط يقولون إنهم غير

Twitter: @alqareah

مجانين، لأن شخصًا في كامل قواه العقلية لن يصر على أنه عاقل. بالنسبة لمونك، على العكس، النقاش حول جنونه لم يكن شرطا للمحاكمة، وإنما نتيجتها. الأمور الجوهرية هي ما يجب أن تخضع للتحليل"، قال هذا. لهذا كان يطلب أن تكون كتاباته وأفعاله هي محور النقاش القانوني، وليس شخصه. لأنه لا يوجد شخص قاتل فقط أو مجنون فقط، لكن عدة أشياء أخرى، متزامنة أو متتالية، لكن فعلاً معينًا يمكن أن يوصف بناء على طبيعته الخاصة، بأهدافه ونتائجه. الدولة كانت تريد أن تعلنه مختلاً عقليًا لكي يتم التعامل مع أفكاره السياسية كهذيان، قال. أفكاره وأسبابه لم تكونا في الحسبان، وهو المعتاد في الولايات المتحدة، حيث يتم النظر للأفكار السياسية الراديكالية كانحراف في الشخصية. حسب مونك، اعتباره مجنونًا وعدم تركه يدافع عن نفسه كان استخدامًا للأساليب النفسية السوفيتية، التي أكدت دائمًا على أن المنشقين كانوا مجانين، لأنه لا يوجد شخص سليم العقل يمكن أن يعارض النظام السوفيتي، الذي كان جنة، ويعبر عن تطور التاريخ. الولايات المتحدة الأمريكية، الآن، بعد أن انتصرت في الحرب الباردة، تفكر أنها هي العالم المثالي الذي بشر به ليبنيز، وأن معارضيه يفتقدون للعقل. لست أنا من اخترع العنف، كان موجودًا من قبل، وسوف يظل موجودًا. أم أن الحالات التي يستهدف فيها العنف أهدافًا سياسية يجب اعتبارها فعلا جنونيا؟ في النهاية، فقط من يعارضون النظام هم المجانين، الآخرون مجرومون فقط، قال.

النقاش العام كان يتركز على الأخص في "كيف" (كيف تدبر مونك أمره لينفذ ما قام به). وليس "لماذا" قام به. تلك الأسئلة لا تقال أبدًا عندما يتعلق الأمر بشأن سياسي (لماذا قام أوسوالد بقتل

Twitter: @alqareah

كيندي؟)، فقط يهتمون بالطريقة (كان فوق مبنى إداري ومعه بندقية شديدة الدقة)، لكن في النهاية عندما كان يوجه السؤال حول الأسباب، كانت الإجابة دائمًا هي الخلل العقلي.

رفض توم الحديث مع شقيقه ومع أبيه وقَبِلَ استقبال أمه فقط، عازفة البيانو البولندية، كما كانت تطلق عليها وسائل الإعلام. كانت امرأة قوية وشجاعة، تثير استهجان كل الصحفيين الذين علقوا على القضية، لأنها لم تكن تشكو، وتنطق بما تفكر. ابني ليس مجنونًا، حتى لو كانت أفعاله غير مفهومة. أريد أن يحاكموه وأن يسمعوه قبل إدانة أفعاله. كان يبدو أنها الوحيدة التي تفهمه وتقف في صفه، وهذا كان الدليل على وجود عطب ما، ولهذا لمحوا كلهم إلى أن المسئولة الحقيقية عن حالة ابنها هي عازفة البيانو البولندية تلك، غريبة الأطوار والتي لا يمكن توقع أفعالها. عندما كانت تخرج من الزيارات لم تكن الأم تتوقف، ومرة واحدة واجهت مراسلاً من قناة (إن بي سي) أطلق على مونك وحش الغابة.

- هل تعرفه؟ هل تكلمت معه؟

- تكفيني أفعاله.

وإجابتها لم تسمع بسبب الصيحات العدائية للفضوليين الذين كانوا يسبونها ببغض.

زارته كل يوم، لكن في النهاية استسلمت، وخشية أن يتم الحكم على ابنها بالإعدام، وقعت أيضًا على بيان بجنونه. منذ تلك اللحظة لم يرغب ابنها في الكلام معها ولا استقبالها مجددًا. مونك لم يرغب في خيانة مبادئه لينقذ حياته. كان من حقه دستوريا أن يقوم بالدفاع عن نفسه، باستثناء أن يكون مجنونًا، وشقيقه كان يجاهد لكي يتم اعتباره غير قادر على الدفاع عن نفسه.

Twitter: @alqareah

في الخلفية، بعيدًا عن دائرة الصحفيين والمحامين والفضوليين المستعدين لسبه وتحية الكاميرات، توجد مجموعة صغيرة من النشطاء يقومون بمسيرة ضد عقوبة الإعدام أمام المحكمة. كانوا يطلبون محاكمة سياسية لمونك وليس محاكمة جنائية. كانوا يرفعون لافتات عليه صورته شابًا جامعيًا، كتبوا عليها «بوش هو المجرم». متظاهر وحيد، منعزل عن الباقين، كان يرفع لافتة كتب عليها «مونك يرسم الطريق». كان أول من حملته الشرطة سحلا حتى الشاحنات.

في بدايات أغسطس سينقلون مونك إلى سكرامينتو وستبدأ تحضيرات المحاكمة. الادعاء بدأ النظر في الطعون والرأي العام اتفق مع الاتهامات، لكن شبح عقوبة الإعدام الذي كان يحوم في الجو جعل النقاش أكثر حدة.

في (ذي نايشن)، قال أحد المحللين النفسيين الذين طلبت المحكمة رأيهم عن توماس مونك وأفكاره: "هذا ليس مدهشًا فقط، لكنه أيضًا ألمعي ومقنع. الإرهابيون يستخدمون الأفكار لتبرير ارتكابهم للعنف، لكن الأفكار بمفردها لا تخلق إرهابيين. مونك لا يبدو شخصًا مصابًا بمرض عقلي، لكن رجل مخادع ماهر، مضلل، غاضب ورجل شرير. المتخصص يمكنه أن يكشف كيف أن المجتمع التكنولوجي جزئيًا ، لكن ليس كليا، مسئول عن خلق مونك(*)". قامة قضائية، الدكتور هاميلتون جونيور، الذي التقته جريدة (ذي فيلاج فويس)، أكد أن أفكار مونك كانت قائمة على أسس صلبة. "الأمر يتعلق بأفكار منطقية، واضحة ومتماسكة. عرفت الرجل شخصيًا في تلك الأيام، وفي كل لقاءاتنا وفي أي من خطواتنا الإجرائية لم

(*) بالإنجليزية في النص. (المترجم).

Twitter: @alqareah

يُبدِ بوادر للمرض العقلي. إنه شخص ذكي، عقلاني ولطيف. الآن، بالقطع لا تتوافق أفكاره مع الاغتيالات التي قام بها، لكن من المهم أن ندرك أن هناك الكثير من الحالات التي يمكن أن يقول الشخص فيها: "نعم، توجد قاعدة أخلاقية لتبرير القتل". الحكومات، بالفعل، تقول إن الاغتيال له مبرره في حالة الحرب. في المانيفستو وفي شروحاته، يفعل السيد مونك الشيء نفسه. لكن، هل يمكن لشخص أن يعلن الحرب على الدولة؟".

- الدولة، نعم، الدولة - قالت نينا- لم يكونوا ليكتشفوه إن لم يكن بسبب وشاية أخيه. هذا لا يصدق، أليس كذلك؟

كنا جالسين ذلك المساء في صالون بيتها، حر خانق في الخارج وكانت قد شغلت تكييف الهواء. الأسماك كانت تسبح في حركات دائرية، ونظرت لي بعينيها الزرقاوين الهادئتين.

هل يمكن مدح الخيانة؟ أفضّلُ رؤيتك ميتًا قبل أن أعرف أنك وشيت بأخيك، قالت الأم. حسنا. لا شيء يبرر الوشاية؟ ألا يبرر أي شيء الوشاية؟ سألت نينا، وبعد ذلك قرأت بصوت خفيض أشعارًا لآنا أخماتوفا:

العدو يُعذب. "هيا، قُم بالعد"

لكن ولا كلمة، ولا آهة، ولا صرخة

هذا ما سمعه العدو منها.

مثل ضحاياه، استطاع مونك استبدال مشاعره بأفكاره، شفقته بقناعاته. مثلهم، لم يكن يسرق، لا يخطف، لا يطلب مالاً. كان يعتبرهم أدوات للنظام، أفرادًا قائمين على مهمة تدمير كل ما هو

Twitter: @alqareah

إنساني في المجتمع. مثلهم، كان ينتظر أن يصبح للأشياء غير المفهومة معنى في المستقبل. هل يوجد معنى؟ نعم، لأن هناك نظاماً، لكن يجب أن يكون المرء خاليًا من المشاعر لكي يكتشفه وسط الفوضى السائدة.

- لفهمه، يجب الحوار معه، قالت نينا. الحوار، قالت هذه الكلمة، كأنه صديق سنطلب منه إيضاحًا. الكلام مع ذلك الرجل. قالت بعد ذلك.

نهضت لأرحل. نينا كانت تفكر في قضاء الصيف في أوربا، حيث تعيش بناتها.

- سوف أفتقدك يا عزيزي. قالت.

تواد عنا في حديقة بيتها، المتاخمة لحديقة بيتي، وهكذا عبرت السور وصعدت إلى المكتب، ومن النافذة، رأيتها مرة أخرى تتنقل بين زهورها اليانعة (تيوليب، زهور الأزالية، النرجس، اللبلاب الأزرق) التي احتملت الشتاء بفضلها.

يجب علي أن ألتق بمونك، هل هذا ممكن؟ أمضيت أسبوعين مفكرًا في الموضوع، حتى عثرت ذات يوم، في منتصف يوليو، على سبب يبرر زيارتي للسجن.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل العاشر

الحر حَوّلَ البلدة إلى صحراء؛ الطلاب اختفوا، السكرتيرات كن يعملن في الصباح فقط، المكتبة لم تكن تفتح في الليل. نينا كانت قد بدأت رحلتها إلى أرض أكثر طراوة. كنت أعتني ببيتها. أروي النباتات، أفتح النوافذ في الليل لكي أهوّي الغرف وكنت أقدم الطعام للأسماك التي تسبح بغباء في الحوض الدائري.

كان أوريون يواصل مسيراته الدائرية (محطة بوينت بلو، مدخل شحن البضائع في دافيدسون ماركت، الدكة الخشبية تحت الأشجار، صالة الانتظار القديمة في دينكي)؛ كان يسير بالراديو المسجل، مرتديًا معطفًا أبيض واقيًا من المطر وشالاً لأن الحر لم يكن كافيًا أبدًا لعظامه الباردة. كان يحييني من بعيد كلما عبرت الحرم في طريقي إلى المكتب.

أصبحت وحيدًا وفي تلك الوحدة كان عليّ أن أتخذ بضعة قرارات: في نهاية الشهر كان يجب أن أترك بيت البروفيسور هوبرت، جمْع أشيائي، تقرير إن كنت سأعود لبوينس أيرس أم سأقبل العرض لقضاء فصل دراسي في بيركلي. كنت قد تحدثت

Twitter: @alqareah

مرتين معهم في التليفون وأعددت محاضرة، في الحقيقة، ورقة بحثية حول برنامجي، حول استخدام الافتراض الشرطي في الصيغ القصيرة، وكنت أعد نفسي للسفر إلى كاليفورنيا من دون أن أعرف بدقة ماذا سأفعل بعد ذلك. وأثناء هذا كنت أترك الوقت يمر، كنت أخرج للتمشية وأبحث عن أماكن رطبة في الحدائق المشجرة في الحي أو أذهب لأماكن أكثر حيادية. السوبر ماركت كان شديد البرودة وخاويًا، ويمكن للإنسان أن يتحرك بسلاسة في الممرات شديدة الإضاءة، يملأ عربة المشتروات وينتظر أمام نقاط الدفع حتى يظهر الموظف الوحيد، غالبًا دومينيكاني او باكستاني، يخرج من نهاية المتجر، من خلف ستارة من شرائط بلاستيكية شفافة. من آن إلى آخر كنت أستعير فيلمًا في المكتبة العامة أو أجلس لتناول قهوة في سمول وورلد. إليزابيث كانت تأتي من حين إلى آخر لزيارتي لأنني لم أعد أذهب إلى نيويورك، المدينة كانت توترني بشوارعها المكتظة بالسيارات والقطط المتشردة.

كنت أشعر بالقلق وأمضي معظم الوقت خارج البيت. هكذا كنت أتجول في الشوارع وأحبس نفسي في مكتب الجامعة بالنوافذ مغلقة. كنت أحب السير في المبنى الخاوي، بالأضواء التي تعمل تلقائيا عندما أعبر الممرات تحت البرودة الشديدة للهواء المكيف. كنت أذهب هناك في منتصف النهار وأظل حتى الليل، من دون فعل شيء، تاركًا الوقت يمر، كنت أذهب حتى المطبخ الصغير في القاعة لأعد قهوة وآكل الجوز واللوز اللذين فاضا من الحفلة. خلال أيام كثيرة تغذيت على القهوة والجوز.

المكتب كان خاليًا تقريبًا لأنني أرجعت الكتب للمكتبة، وعلى الأرفف لا توجد سوى إعلانات قديمة بمؤتمرات وموائد مستديرة،

Twitter: @alqareah

كتيبات من جمعية اللغات الحديثة، كتالوجات من دور النشر الجامعية، مجلة (نيو جيرمان كريتيك)، التي كان مشتركًا فيها من شغل المكان في الماضي. ثلاثة أو أربعة كتب عن الأدب الألماني وقواميس عديدة. كما كانت يوجد ملفات مليئة بأوراق امتحان قديمة، مشاريع رسائل، تقارير، صور لمقالات لا يقرأها أحد، ملخصات للكورس. سنوات وسنوات من العمل المتراكم في ذلك المكتب الذي شغلته قبلي أجيال عديدة من أساتذة الأدب. وذات مساء، عندما كنت على وشك الذهاب، عندما أطفأت النور الكبير، انعكس ضوء مصباح الممر على الغلاف الأحمر والعلامة البيضاوية الصفراء لطبعة بنجوين كلاسيك من رواية كونراد "العميل السري". ظلت هناك غير مرئية من فرط بروزها على رف واطئ، ولم أكن لأراها إن لم يكن بسبب المصادفة اللحظية التي سمحت بانعكاس الضوء على الغلاف اللامع. إيدا استخدمته في محاضرتها وتركته لي في تلك الليلة المنكوبة.

لماذا تركت لِيَ الكتاب؟ كنت أقلب الأمر بينما آكل بعصبية بعض المكسرات، وفجأة تذكرت المرة التي اشترت فيها إيدا من متجر عضوي مائتي جرام من (كاريبيان ميكس)، خليط من البندق واللوز والفواكه المجففة والزبيب.

لا يوجد ترتيب للذكريات. مرات كثيرة تصل لكي تصرف انتباهنا عما نريد التفكير فيه. الذكرى المفاجئة لا تشغلني كثيرًا، أعتبرها عيبًا في التصنيع، خطأ في التصميم. التدفق العشوائي للذكريات المنسية يعكر الروح ويشتت انتباهنا عن اهتماماتنا الحقيقية. نعم، أكلنا جوزًا ولوزًا بينما كنا في الفراش في عطلة نهاية الأسبوع في نيويورك. لكنني كنت أريد استعادة اللحظة التي

Twitter: @alqareah

كانت فيها إيدا، في منتصف الطرقة، بالمراسلات في اليد اليسرى، حقيبتها على كتفها وأوراق كثيرة في اليد اليمنى، واستدارت عندما رأتني بتعبير غريب من البهجة وأيضًا الضيق.

ربما كانت تريد أن تقول لي شيئًا حول الكتاب، لكنني قاطعتها بالكلام حول اللقاء القريب في الليلة التالية في (فندق حيات). أوه، إلحاح الشوق، الذي يعاش دائمًا في الحاضر. طلبت مني أن أمسك بالاوراق بينما تبحث عن قلم. لماذا؟ لا أتذكر، فقط أتذكر فعل البحث في الحقيبة، وبعد ذلك ابتسمت وقالت لي نعم، بالطبع، لكنها كان يجب أن تذهب على الفور. ولماذا خرجت أنا من الاجتماع؟ سَأَلَتْ. (من أجل أن أعطيها رقم الغرفة التي حجزتها في الفندق، أتذكر الآن). سارت في الممر حتى المصعد وبقيت هناك بكتاب كونراد وبعض الكتيبات في يدي. لم يبد أن هناك تعمدًا، لكن الأحداث المأساوية تمنح أي تفصيلة مغزى. على ظهر الكتاب يوجد رقم الكورس الذي تدرسه ذلك الفصل الدراسي (كومب٥٥٥٥) والأوراق كانت إخطارات تافهة من عميد الكلية أو توصيات من الكشافة حول مخاطر التحرش الجنسي (لم تكن تغلق باب مكتبها على الإطلاق عندما تستقبل طلاب أو طالبات. لا تستدعي طلابًا أو طالبات لأسباب شخصية. لا تناديهم بأسمائهم الأولى") إيدا كانت تُدَرِسَ العميل السري في النصف الأول من مارس، الخميس ٧ قبل أسبوع من اليوم الرهيب المرعب. كانت علامة، كانت إشارة، كل فرد يجد نبوءته في مفترق الطريق المكتوب عليه.

كنت قد قرأت تلك الرواية قبل سنوات كثيرة، لكن الآن كانت إشارات إيدا ما حملتني إلى قراءتها بوَلِه، مثل من يتبع طرقًا جديدة في خريطة مدينة يعرفها. بدت رواية أخرى بالإشارات التي

Twitter: @alqareah

حددتها إيدا ، وبدت أيضًا رسالة شخصية. إيدا كان تقوم بالتحديد بدقة ومهارة فوق الأجزاء التي تبدو مهمة لها في الكتاب. لم يكن هذا غريبًا، كانت تستخدم إشارات خاصة، علامات صغيرة، رموز بسيطة، على سبيل المثل كانت تستخدم V مائلة، أقواسًا أو علامة تعجب. وفي حالة الأهمية الشديدة كانت تكتب "انتباه" بخط صغير وخطوط عمودية عديدة بجانب الفقرة التي لا ترغب في نسيانها. علامات تحيط بجُمَلٍ، أسهم، خطوط متموجة أو خطوط شديدة الاستقامة (كأنها ترسمها بالمسطرة)، كانت إشارات، وعلامات، وأخذت أتابع التحديدات كأنني أقرأ معها.

أحيانًا كنت أتيه وأفقد الاتجاه، أضيع في وسط الصفحة بذكريات تقاطعني وتشتتني، أو بخيالات أتصور أنني عشتها. في غرفة النوم في بيتي، في حي كونجرس، تخيلت جونيور مستلقيًا على الفراش، عاريًا (لكن بالنظارة)، يراجع باستمتاع التحديدات في كتبي (أو تحديداتي في الكتب). "لكن انظري هذا التافه وما يحدد، انتظري، سأقرأه لك"، كان يقول بينما كلارا منحنية كقوس إغريقي جميل وتطلي أظافر القدمين، قطع من القطن بين الأصابع، رائحة أسيتون... شعرت بهذه الرائحة الحميمية، مجدلية ملعونة تصرف انتباهي عن خطوط القلم الرصاص (لا يمكن تحديد كتاب بالحبر مطلقا) الذي تركته لي، أرياندتي(*) . بناء الجملة هو أول ما يأسف

(*) أرياندا في الميثولوجيا اليونانية القديمة هي ابنة مينوس وباسيفاي، ملكي كريت اللذين قاما بالهجوم علي أثينا بعد موت ابنهما أندروجيو. ومقابل السلام كان على الأثينيين أن يرسلوا كل عام سبعة شبان وسبع فتيات. وذات عام قرر يثسيوس، ابن ملك أثينا التطوع بالذهاب مع الشباب لكي يخلص الشعب من عقابه، وعشقت أرياندا ثيسيوس وساعدته بإعطائه سيفًا مسحورًا ولفة خيط لكي يخرج من المتاهة بعد أن يقتل المسخ مينوتور. (المترجم).

Twitter: @alqareah

عليه المرء عندما يقوم بالتذكر، وكنت أقرأ - من دون روابط - القفزات التي تُكَوُنُ رسالة إيدا. لكن، هل كانت رسالة؟ توجد صفحات من دون علامات. كلنا نفعل نفس الشيء عندما ندون ملاحظات في كتاب، لكي نتبع الإشارات عندما نعيد قراءته بعد ذلك: وهذا هو ما فعلتُ! اتبعتُ إشارات إيدا مثل اللافتات العاكسة على طريق سريعة (المخرج الأخير لنفق هولندا)، حتى أدركت شيئًا فشيئًا أن التحديدات تشير لأمر ما.

لم تكن من الذين يقومون بالتحديد من دون وعي، بخطوط سميكة، على أي شيء كانت تتمنى أن تكتبه، بل كانت تقوم بالنسج بإشاراتها، لقصة سرية، بصوت خفيض، علامات صغيرة، مثل همس خفيف يصاحب الأحرف البكماء، وكنت أعود لسماع صوتها الأجش الخليع في أذني، وجهها المضيء على الوسادة، هذا النوع من الذكريات. أحيانا كانت تحدد كلمة، (ديناميت) على سبيل المثال، وبعد صفحات كلمة (لطيف). من السهل التعرف على روح امرأة من طريقتها في تحديد كتاب (منتبهة، دقيقة، حميمية، مثيرة)، لأنه إن أحب امرؤ شخصًا، حتى العلامات الخفية التي يتركها في كتاب يجد أنها تشبهه.

مسترشدًا إيدا، كانت رواية كونراد تكشف عن حبكة واضحة وفي الوقت نفسه غامضة. فوضوي في لندن يقرر تفجير ساعة جرينتش لجذب انتباه أصحاب السلطة، وتنبيه المستغلين والمهمشين (في كومونة باريس، قام العمال المتمردون بتدمير ساعات المدينة

Twitter: @alqareah

رميًا بالرصاص.) الهجوم فشل لكن الرواية تتجه إلى المعلم، الشخصية المركزية (رغم أنها ثانوية في الكتاب). ثوري قديم هجر عملاً أكاديميًا لامعًا لكي ينضم إلى جماعة فوضوية ويشارك في عملياتها. إيدا حولته إلى مركز الاهتمام: الإيمان (كتبتها بخطها الدقيق في المساحة الخالية أعلى الصفحة).

البروفيسور كانت تنقصه فضيلة الإذعان: لم يكن يخضع لسلطة الموروث (هذا حددته أنا)، كان متمردًا، في خدمة الفكرة والقضية. كان يعيش وسط تدهور للقيم، كالزاهد الذي يعيش في رؤاه الصوفية، وجعل من عزلته شرطًا لفاعليته السياسية. "لديّ الشجاعة للعمل بمفردي، شديد الوحدة، وحيدًا تمامًا. قمت بالعمل وحيدا خلال سنوات". تلك الكلمات كانت محددة بخط متموج (كأنها قامت بتجاوزها لدى قراءتها أو كانت تقوم بالتحديد في عربة مهتزة في قطار نيو جيرسي ترانزيت.

بعد ذلك، بعد عدة صفحات، طريقة التحديد نفسها كانت تكشف عن النظرية التي يقوم عليها الفعل المباشر؛ لا يجب السعي إلى مجتمع مثالي مستقبلي، لا يجب التسويف في تطلعات الأرواح النقية؛ الفقراء، المضطهدين والبؤساء ليسوا سببا لأفعال من يريدون أن يتم سماعهم - وقبولهم - من قبل النظام؛ لا يوجد شيء يمكن طلبه، يجب الهجوم مباشرة على مركز السلطة برسالة واضحة وملغزة. "لا يوجد من يمكنه أن يقول أي شكل سيصبح عليه مستقبل التنظيم الاجتماعي. لماذا خداع النفس إذن بخيالات نبوئية؟"

Twitter: @alqareah

these institutions which must be swept away before the F.P. comes along?'

Mr Verloc said nothing. He was afraid to open his lips lest a groan should escape him.

'This is what you should try for. An attempt upon a crowned head or on a president is sensational enough in a way, but not so much as it used to be. It has entered into the general conception of the existence of all chiefs of state. It's almost conventional – especially since so many presidents have been assassinated. Now let us take an outrage upon – say, a church. Horrible enough at first sight, no doubt, and yet not so effective as a person of an ordinary mind might think. No matter how revolutionary and anarchist in inception, there would be fools enough to give such an outrage the character of a religious manifestation. And that would detract from the especial alarming significance we wish to give to the act. A murderous attempt on a restaurant or a theatre would suffer in the same way from the suggestion of non-political passion; the exasperation of a hungry man, an act of social revenge. All this is used up; it is no longer instructive as an object lesson in revolutionary anarchism. Every newspaper has ready made phrases to explain such manifestations away. I am about to give you the philosophy of bomb throwing from my point of view; from the point of view you pretend to have been serving for the last eleven years. I will try not to talk above your head. The sensibilities of the class you are attacking are soon blunted. Property seems to them an indestructible thing. You can't count upon their emotions either of pity or fear for very long. A bomb outrage to have any influence on public opinion now must go beyond the intention of vengeance or terrorism. It must be purely destructive. It must be that, and only that, beyond the faintest suspicion of any other object. You anarchists should make it clear that you are perfectly determined to make a clean sweep of the whole social creation. But how to get that appallingly absurd notion into the heads of the middle classes so that there should be no mistake? That's the question. By directing your blows at something outside the ordinary passions of humanity is the answer. Of course, there is art. A bomb in the National Gallery would make some noise. But it

Twitter: @alqareah

أتذكر أنني نحيت الكتاب جانبًا وخرجت للمشي في ممرات المبنى الخاوية، كمَن يمشي في نومه. الأجزاء المنفصلة التي قامت إيدا بالربط بينها في الرواية، كانت تشكل نسيجًا يسمح برؤية شخصية مونك عبر انعكاس الضوء. ليست الحقيقة، فقط العلاقة بين لغزين، بوضع أحدهما بجانب الآخر، ينتج عنهما كشف. لقد أعطتني الكتاب قبل اغتيالها! هل كان تحذيرا؟ هل كانت تعرف إذن؟ هل كانت في خطر.

لم يتبق جوز، هكذا عدت لتناول البسكويت الجاف، دنماركي، مربع، يبدو مصنوعًا من الكارتون. أدركت ما كانت إيدا تشير إليه: كانت خيوط عنكبوت، شبكة، خيط أرياندا؛ حينئذ أخذت في فصل العبارات المُحَدَدَة.

اغتيال الشخصيات السياسية أمر متوقع، ويشكل جزءًا من الأهداف التقليدية للعنف الثوري. لم يعد هذا يدهش أحدًا، إنها قواعد اللعبة، أصبحت أفعالاً عادية تقريبًا، على الأخص بعد الموت المدوي للعديد من الزعماء والأمراء والقضاة.

الآن فلننظر إلى نوع آخر من الاعتداءات، على سبيل المثال، على معبد أو كنيسة. سواء كان الغرض منها تخريبيًا أم سياسيًا، سوف توصم على الفور كتعبير صريح عن الكره الديني. وهذا التفسير سوف يخفف الدلالة التحذيرية غير المُسببة التي نريد أن نضفيها على أفعالنا.

اعتداء إجرامي على مطعم أو مسرح سوف يتم تفسيره أيضًا بأسباب غير سياسية؛ سوف يتم تقديمه كحقد رجل من دون عمل أو فعل ساخط من شخص مشرد يريد الانتقام لظلم وقع عليه.

Twitter: @alqareah

المجتمع سوف يهدأ على الفور: "أوه، إنه الحقد الطبقي" أو سيقولون :"أوه إنها نتيجة للتعصب الديني". يجب تفادي العثور على مغزى لهجماتنا.

الماضي أصبح مستهلكا، لم يعد يفيد، لا يمكن البناء عليه. المجتمع به قائمة من المصادفات الحاقدة لكي تفسر الأفعال الثورية. نحن على العكس يجب أن نبحث عن الفعل المجرد، الذي لا يُفهم ولا يُشرح ويسبب الذهول والفوضى.

يجب أن نقوم بأفعالٍ تحرك الحس الجمعي وتتجاوز التفسيرات المسبقة للصحف. يجب أن نتفادى أن يستطيع المجتمع شرح ما نفعل. يجب أن نقوم بعمل غامضٍ، لا يمكن شرحه، تقريبًا لا يخطر على البال. أفعالنا يجب أن تكون غير مفهومة وفي الوقت نفسه منطقية.

أيها السادة، هدفنا السياسي يجب أن يكونِ المعرفة العلمية؛ على هذه المعرفة تستند بنية السلطة.

وهكذا، في هذه الفترة الوحشية الصاخبة، سيمكننا أخيرا أن نكون مسموعين.

الكل يؤمن اليوم بالعلم؛ بشكل غامض يؤمنون أن الرياضيات والصناعة هما مصدر الرخاء والازدهار الماديين. هذا هو الدين الحديث.

الهجوم علىِ أسس العقيدة الاجتماعية العامة هو السياسة الثورية لعصرنا. سنصبح متمردين مثل بروميثيوس ورجال حقيقيين للأفعال عندما نكون قادرين على إلقاء قنابلنا الحارقة على الرياضيات والعلم.

Twitter: @alqareah

توماس مونك هو من نَفَذَ هذه العقيدة. ألا يلفت النظر أن سلسلة من الأحداث وملامح شخصية فرد محدد يمكن وصفهما بنسخ جزء من عمل أدبي؟ لم يكن الواقع هو ما يسمح بفهم رواية، كانت الرواية هي التي تشرح واقعا ظل خلال سنوات عصيًا على الفهم.

يوجد شيء فريد ومريض في القراءة المجردة للكتب، وفي هذه الحالة تحولت إلى أسلوب للحياة.

كان هذا يجعلني أتذكر قراء (أي تشينج)[1] الذين يحددون أفعالهم انطلاقًا من الكتاب. كأن مونك قد وجد في الأدب طريقًا وشخصية لكي يخطط لعملياته السرية. قارئ روايات يبحث عن المغزى في الأدب ويحققه في حياته الشخصية. البوفارية هو المصطلح الذي يطلق على قدرة الإنسان على خلق شخص مختلف عنه ويخترع شخصية متخيلة. المصطلح مشتق من إيما بوفاري، شخصية رواية فلوبير. جولي دو جولتيي قام بتوسيع الدلالة في كتابه (البوفارية ١٩٠٦) [2] وطبقها على الأوهام التي يخلقها الأفراد حول أنفسهم. في مجتمع يتحكم في المتخيل ويفرض معيار الواقع كقاعدة، البوفارية يجب أن تنتشر لتعضيد الإنسان والحفاظ على أحلامه.

---

(١) كتاب التغيرات هو أحد أبرز وأهم خمسة كتب في التراث الفلسفي الصيني. كان يعتمده الصينيون في الأزمنة الغابرة في قراءة الطالع. يُرجع أن نصوصه الأول كتبت نحو ١٢٠٠ عام قبل الميلاد. (المترجم).

(٢) كتاب للفيلسوف الفرنسي جول دو جولتيي (١٨٥٨ ـ ١٩٤٢). عنوان الكتاب هو (البوفارية) حسب الطبعة الأصلية، التي يرجع أن تعود إلى ١٩٠٢ وليس ١٩٠٦ كما هو مذكور في النص. وبعد ذلك أصبح عنوان الكتاب يرفق بعبارة كاشفة عن محتواه (البوفارية، السيكولوجية في أعمال فلوبير).

Twitter: @alqareah

أصدقائي القدامي في بوينس أيرس فعلوا الشيء نفسه: يقرؤون حرب العصابات، لإرنستو تشي جيفارا، ويصعدون إلى الجبل للقتال. لينين، ما العمل؟ ثم يقومون بإنشاء حزب البروليتاريا؛ كانوا يقرأون دفاتر السجن لجرامشي ويتحولون إلى بيرونيين. كانوا يقرؤون أعمال ماو تسي- تونج وعلى الفور يعلنون بدء الحرب الشعبية طويلة المدى.

لكن مونك كان أكثر راديكالية. في قحولة العالم المعاصر، من دون أحلام ولا آمال، حيث لم تعد هناك طموحات اجتماعية كبيرة أو بديلة للأمر الواقع، قرر- مثل ألونسو كيخانو(*) - أن يؤمن بالحكايات. كان شبيهًا بدون كيخوته»، في البداية يقرأ الروايات بغضب كالمنوم مغناطيسيًا وبعد ذلك يخرج ليعيشها. لكنه كان أكثر راديكاليًا من هذا، لأن أفعاله لم تكن فقط كلمات، مثلما كان الأمر في دون كيخوته (بالإضافة إلى أن ثربانتس راعى ألا يقتل أحدًا، القديس المسكين)، وإنما تحولت إلى أحداث حقيقية.

في تحت عيون غربية لكونراد، قام رازوموف، العميل المزدوج، شخصية كافكاوية حقيقية، بالاستماع إلى بطلة ثورية روسية منفية، التي كانت تقول له: "تذكر يا رازوموف أن النساء، والأطفال والثوريين يكرهون السخرية، فهي ضد أي فطرة سوية، أي إيمان، أي ورع، أي فعل جاد". هل كان يأخذ الروايات على محمل الجد؟

قرار تغيير الحياة: هذا هو الموضوع الأكبر لدى كونراد. في لورد جيم، البطل الذي قفز في لحظة جُبن من مركب على وشك الغرق، قرر تغيير الماضي والتحول إلى رجل شجاع، تمامًا مثل جاي

(*) اسم دون كيخوته. (المترجم).

Twitter: @alqareah

جاتسبي، الذي يشتري قصرا في الخليج أمام البحر ويقيم حفلات لغواية الفتاة التي هجرته قبل سنوات. تغيير الماضي، التحول إلى آخر، هجران الجامعة والتحول إلى رجل أفعال. مثل كيرتز في قلب الظلمات، المثقف، قارئ نيتشه، الذي يبني برغبة استبدادية خالصة إمبراطورية من لا شيء في أجواء الكونغو الغامضة: إمبراطورية الشر.

خرجت إلى الشارع متوترًا لدرجة أنني اقتربت من أوريون وبدأت أحكي له ما اكتشفت. كنا على الدكة، تحت الأشجار. كان يتحرك من دون توقف، ربما كانت البراغيث تلدغه، ربما كان لديه أيضًا قلق كونرادي. من يكون في النهاية؟ صديقي الوحيد في المنفى. استمع لي صاغرا باهتمام (رغم أنه من آن إلى آخر كان يشعل الراديو، الذي كان صوته عاليًا للغاية بالأخبار وحالة الجو)، وفجأة، قال لي، بصوت خفيض، في عبارات مرتبة جيدًا، إلى جانب كلمات أخرى غامضة مبعثرة: "يجب تشتيت انتباه الشرطة".

أمضيت عدة أيام بين كتب كونراد، لكن بدلاً من كتابة مقال قررت التحرك والتحدث مع باركر. بالفعل، قال لي، إن مونك أخبر عائلته في ١٩٨٤ بقراءة رواية كونراد دستة من المرات طوال سنوات. (إف بي آي) من جانبه، تحقق من أن مونك سجل نفسه عدة مرات في الفنادق التي كان يستخدمها كقاعدة لاعتداءاته باسم Konrad أو Conrad ، وأيضًا استخدم اسم كيرتز، وفي ميسوري أعطى اسم مارلو. من جانب آخر تم التأكد أن الأحرف الأولى في القنابل FC تشبه شركة FP المصنعة للقنابل في الرواية.

Twitter: @alqareah

الدكتور دافيد هورن، أستاذ الأدب في هارفارد، والمتخصص في الأدب الجرائمي، عندما فحص المستندات من أجل إعداد المحاكمة أكد على "استخدامه الواضح للأدب لمساعدته في العثور على معزى لحياته(*)". وحسب هورن، يبدو أنه كان يتخيل نفسه شخصية روائية في حكاية كبيرة. "الكلمات المطبوعة كانت عالمه".

قام بأعماله متخيلاً أن أحدًا لن يلحظ الروابط بين ذلك الكتاب وحياته. لهذا، بالنسبة لي، التفسير أن إيدا اكتشفته عندما قرأت كونراد لأنها كانت تعرف مونك من قبل. أي علاقة جمعتهما؟ هل كانت تعرف؟ هل خمنت هذا؟ فقط إن كانت تعرف مونك وتابعت مسيرته، يمكنها أن تكتشف في الرواية آثارًا لتوم. هل عرفا بعضهما خلال دراستهما في بيركلي، هي كطالبة في الدراسات العليا وهو كأستاذ؟ محتمل جدا، قال باركر. لا توجد معلومات واضحة في ملفات (إف بي آي)، فقط المصادفة في الزمن. ولماذا لم يقوموا بطرح فرضية حول موت إيدا؟ إن كنت أرغب في العثور على إجابة، يجب أن أذهب إلى كاليفورنيا وألتقي توماس مونك.

كنا في أغسطس، وفي سبتمبر كان يجب أن ألقي محاضرة في بيركلي. تم نقل مونك إلى ساكرامينتو أثناء نظر القضية، وكان زائروه من الأصدقاء، معجبين أو أشخاصًا يتعاونون مع دفاعه. باركر عرض مساعدته، يمكنه أن يعطيني بطاقة هوية من الوكالة وخطابًا يذكر أنني أقوم بالتحقيق في موت إيدا بناء على طلب أقاربها. لم يكن هذا صعبًا، بطاقة باسمي وصورتي، عنوان وكالة أيه سي إي ورقم تأميني الاجتماعي.

(*) بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

– IV –

اليدين فى النار

Twitter: @algareah

Twitter: @alqareah

الفصل الحادي عشر

ـ ١ ـ

بعد يومين أخذت طائرة (تي دابليو إيه) من نيو أرك إلى سان فرانسيسكو؛ وصلت في الصباح الباكر وأجّرتُ سيارة في المطار. اتجهت إلى الشمال عبر طريق ١٠١ مررت على بعض التلال المصفرة، وعبرت حيا من بيوت متطابقة مبنية من مواد سابقة التصنيع؛ مطربة الفولك الأسطورية مالفينا رينولدز كانت تغني حول تلك الشقق ذات الملكية المشتركة [١] في الضواحي: "صناديق صغيرة، من ألوان مختلفة، كلها مصنوعة من مواد رخيصة[٢]، وكلها

(١) Condominium إحدى صيغ الملكية في أمريكا اللاتينية وأوربا والولايات المتحدة. والملكية المشتركة في القانون الدولي هي اشتراك أكثر من طرف (أشخاص أو هيئات) في ملكية شيء. وفي أوربا يطلق عليه (الملكية الأفقية) وتعني المشاركة في ملكية المناطق ذات المنفعة العامة، مثل المدخل والسلالم والأسطح. (المترجم).

(٢) بالإنجليزية في النص Ticku - tacky مواد بناء رخيصة ورديئة الجودة. تستخدم غالبًا في تشييد البيوت موحدة التصميم في ضواحي المدن في الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

متشابهة". أوه، كلارا، كانت تحب هذه الموسيقى، جوان بايث، بيتر سيجير ومالفينا رينولدز. ولابد أن النذل جونيور يستمع إلى أسطواناتي الآن. مرت شاحنتان إلى جانبي بأقصى سرعة، مدهونتين بألوان مستوحاة من فن الهلوسة[1] والموسيقى بأعلى صوت. كانتا فرقتا روك جراج[2] بالمعجبين والشارات واللوحات تعلن عن الحفلات. المرور كان سريعًا ومتوسط الكثافة لكن عشوائي. كان يوم ثلاثاء، ويبدو أن الجميع يتجه إلى الشاطئ، كانوا يحملون قوارب صغيرة ولوحات تزلق على الماء فوق السقف أو يجرون زوارق بمحركات خلف السيارة.

على جانب توجد بيوت أكثر فخامة والسور الطويل مجمع شركة كبيرة في الحاسبات. لم يكن مصنعًا، كان معملاً من الزجاج مصممًا كلوحة دائرية للتزلق على الماء. كان مثل وادي السيليكون، حيث يتم عقد صفقات بملايين الدولارات والمديرون يرتدون بنطلونات قصيرة وصنادل بإصبع. بينما كنت أسافر بسيارة شيفروليه مؤجرة، وسط الضباب الخفيف في الخليج، مهدرًا المال القليل الذي استطعت جمعه بعد عامي الأكاديمي. ألقيت به من النافذة رغم أنني كنت قد قررت أن الاستعانة به لكي أحبس نفسي في فندق خلال شهور، وأنهي الكتاب الذي كنت أكتبه. أي كتاب

---

(١) Psychedelic art تيار فني قائم على خبرة تناول المخدرات وعقاقير الهلوسة. ومصطلح Psychedelic قام بصكه عالم النفس البريطاني همفري أوسموند ويعني «التعبير عن الروح . (المترجم).

(٢) Garage rock صيغة بسيطة وبدائية من الروك آند رول، اتبعتها فرق عديدة في الولايات المتحدة وكندا في منتصف الستينيات، ومصطلح روك الجراج يعود إلى أن معظم ممارسيه من الشباب قليلي الإعداد والدراسة كموسيقيين، وكانوا يقومون بالتمرين في جراجات البيوت، ومنتجهم الموسيقي بسيط للغاية لعدم إتقانهم العزف على الآلات الموسيقية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

كان؟ لم أكن أتذكر، كما أنني لم أكن أعرف أن الكتاب الذي سأكتبه هو ذلك الذي كنت أعيشه حينئذ.

عبرت باي بريدج من الطريق ٨٠، وبعد أميال قليلة، بعد الاتجاه نحو الشمال أصبحت في بيركلي. شمس، فتيات في الشارع، صخب في الموائد على الأرصفة، هيبيز عجائز بجدائل شعر يبيعون حلوى على عربات متجولة؟ أوشام كثيرة، مخنثون كثيرون، وسياح كثيرون.

باركر أعطاني عنواني شخصين في حالة وقوعي في مشاكل أو احتياجي للمساعدة. أحدهما كان سام كاررينجتون، بائع سيارات متخصص في دفع الكفالة للأشرار الذين لا يمتلكون المال للحصول على الإفراج المؤقت؛ بعد ذلك كان المطلق سراحهم يساعدونه في بعض الأعمال التي لم يرغب باركر في ذكرها لي. العنوان الآخر كان لبار وومان (أطلق عليها هذا) في بار صغير في طريق تيليجراف، امرأة بدينة عالية الصوت، اسمها فاتي فلاناجان، كانت تعرف كل شيء عن بيركلي ومحيطها. كانت ممثلة معروفة في الخمسينيات، أو هذا ما تقوله الصور والأفيشات التي تزين المحل ويمكن رؤيتها في غداءات رومانسية لدوريس داي وأودري هيبورن. كانت هي مَن دلني على كيفية الوصول إلى ساكرامنتو وأعطتني الكثير من المعلومات المفيدة ("لا تتحدث بالإسبانية إن أردت أن يأخذوك على محمل الجد؛ لا تقترب من البيض ولا من الشرطة؛ لا تسحب أموالاً من الماكينات ولا تحمل نقدًا في جيوبك").

على مبعدة بضعة مربعات سكنية من البار، في طريق شاتوك يوجد الفندق الفرنسي: في الاستقبال قلت إنني من طرف فاتي، بالاجتماع وصوروا رخصة القيادة.

Twitter: @alqareah

كان معي عنوان آخر بيت أقامت فيه إيدا، في شارع بمبان واطئة كثيرة بالقرب من طريق سان بابلو، على بعد ناصية من السوق القديم حيث يباع كل شيء، وفيما يبدو، يتم بيع الكراك(*) ونباتات أخرى محظورة.

مرت سنوات طويلة منذ لم تعد إيدا تعيش هناك، لهذا أخذت أتجول في المنطقة من دون التجرؤ على السؤال عنها، حتى فكرت أنه من الأفضل البحث في مكتب بريد الولايات المتحدة في الحي، مبنى رقم ٢٠٠٠ طريق ألستون (بين طريق هارولد وشارع ميلفيا) بأقواس على الطراز الإسباني القديم، يطل على ميدان حيث شباب كثيرون ببنطلونات قصيرة ومعاطف مطر بغطاء للرأس يتحدثون في حلقات. نوافذ البريد لم تكن تعمل، باستثناء واحدة في النهاية، وهناك تعامل معي رجل له وجه قرد وقبعة خضراء صلبة الحافة مثل الذي يرتديه العاملون في الكازينوهات، وواق للذراع من نسيج أبيض فوق أكمام الجاكيت. قلت له إنني محقق خاص وتعاقد معي أقارب الدكتورة إيدا براون التي ماتت في حادث في نيو جيرسي؛ كانت قد عاشت هنا أثناء فترة الدراسات العليا. استمع لي من دون أن ينطق وذهب ليبحث عن شخص آخر يشبهه، يرتدي أيضًا القبعة وواقي الأكمام، لكنه كان زنجيًا هذه المرة، بلكنة هاييتي. سألته إن كانت إيدا تركت عنوانًا لكي يتم إعادة إرسال البريد لها. الرجل كتب اسم إيدا وعاد بعد فترة ليقول إنها بالفعل أجّرَتَ صندوقًا بريديًا لكي يتم إعادة إرسال المخاطبات التي يمكن أن تصل إلى عنوانها القديم. منحت توكيلاً لشخص لكي يتسلم الخطابات. بعد تردد خفيف – وخمسين دولارًا وضعتها تحت أوراقه – وافق على

(*) الكوكايين الصلب. (المترجم).

Twitter: @alqareah

إعطائي عنوان صاحبة التوكيل التي اختارتها إيدا، البروفيسورة إيلين مكجريجور. لم أقل لك شيئًا، يا رجل I didn't sculpt off you(*) man لم أنحت لك شيئًا، يا رجل، هكذا بدا ما قال.

عبرت الحرم الجامعي من جهة الشمال وصعدت حتى التلال وخرجت إلى حي بيوته كبيرة، واجهاتها من الجبس الأبيض والخشب، بشرفات كبيرة مليئة بالزهور. جبت عدة شوارع ملتوية تامالبايس، روز، لا كروث، حتى وصلت إلى جريزلي بيك في أعلى التبة. البروفيسورة مكجريجور، حسب ما تحققت من صندوق البريد في المدخل، كانت تعيش في الطابق السفلي من بيت ذي طابقين، مطلي بالأزرق في تقليد رديء للأسلوب المكسيسي. كانت امرأة نحيفة، شعرها أبيض وعيناها سماويتين، ترتدي فستانًا صيفيًا مزهرًا بحمالات وصندل جلدي. لم يبد أن لديها ما يشغلها، لهذا استقبلتني بترحاب وتركتني أدخل بعد أن نظرت إلى بطاقة هويتي بشيء من السخرية. أنت أول محقق ألتقي به، قالت، كنت أظن أنه لم يعد لهم وجود. في الروايات يكونون عادة أطول منك، أضافت. لم تعد لنا أهمية، قلت لها، المجال لم يعد كما كان.

أستاذة متقاعدة للأدب المقارن، كانت مكجريجور العضوة الثانية في مناقشة رسالة إيدا. كانت تتذكرها وتحبها وأتت بإيماءة بمنديل ورقي، كأنها تجفف دمعة في عينها اليمنى. جلسنا في كراسي الشرفة لتناول ماء مثلج بالنعناع، ورَغِبَتْ في معرفة المزيد حول الموضوع. ماتت في حادث شديد الغرابة، قلت لها، يعتقد البعض أنه

(*) بالإنجليزية في النص. وتم استخدام فعل sculpt الذي يعني حرفيًا النحت أو حفر قبر، والراوي يسخر من الاستخدام الخاطئ للفعل الذي يعني البص بالإسبانية escupir. (المترجم).

قد يكون اغتيالاً. ربما نعثر على شيء يساعدنا على حل القضية. بالفعل، كانت تتسلم مراسلات إيدا، لكن منذ سنوات لم تعد تتلقى شيئا، باستثناء كتيبات من (إم إل إيه) ودوريات من جامعات المنطقة. أعتقد أنها أدركت بسرعة أن اهتمامي كان شخصيا. هل تعتقد أنها قُتِلَت؟ سألت. ماذا يمكن أن أعرف، قلت أنا، توجد العديد من الفرضيات. وما فرضيتك؟ أطلعتها على كتاب كونراد. راجعته بنظرة سريعة خبيرة وفكرتُ أنها تعرفت على طريقة إيدا في التحديد. وماذا؟ قالت. ربما كانت على علاقة بتوماس مونك. نظرت لي مندهشة. أهو، يا إلهي قالت، وأشعلت سيجارة. عندما كانت تدرس هنا، كان هو بروفيسورًا في قسم الرياضيات. ألا تتذكرين أي تعليق من إيدا حول هذا الصديق البولندي؟ حسنًا، إيدا كان لديها الكثير من الأصدقاء، كانت فتاة ذات شعبية كبيرة. ساحرة للغاية – نظرت لي – إن عرف المرء كيف يعاملها. شديدة الاستقلالية، متعالية قليلاً، مجتهدة جدًا. رأي من مدير رسالتها. فيما يتعلق بحياتها الشخصية، قالت، كانت فتاة من عصرها، متحررة جنسيًا وصاحبة مبادئ، راديكالية.

ثم قالت لي إن إيدا تركت قبل رحيلها بعض الأشياء في مخزن للأثاث، ولم تذهب أبدا لاستعداداتها. دخلت الصالة وعادت بإيصال الخزانة والتوكيل بتوقيع إيدا. صورنا نسخة على الفاكس المتصل بتليفونها وقامت بالاتصال بالمكان لتقول إن شخصًا سوف يذهب من طرفها لنظر ممتلكات إيدا براون. ستخبرني إن كانت هناك مستجدات؟ نعم، بالطبع، قلت لها.

المخزن كان في الغرب، في منطقة مخازن وهناجر وساحات انتظار تحت الأرض. كان مبنى من عدة طوابق، وفي كل طابق توجد

Twitter: @alqareah

مقتنيات وأثاث تركها السكان قبل الانتقال، الهرب أو الموت. كان له شكل القمع الذي يُصعد إليه عبر سلم إسمنتي، وفي كل طابق توجد مجموعة من الأقفاص من السلك المجدول، مرقمة، ومتراكم فيها حشيات ملفوفة، لوحات، مكتبات، تليفزيونات، دواليب، مكانس كهربائية، ملابس، حقائب. كان مثل السير في أنقاض مدينة مهجورة. هناك توجد الذكريات المفقودة للهاربين، الأموات في فيتنام والشباب الذين تركوا الجامعة وانضموا لكومونات من الحرفيين اليدويين في وديان كاليفورنيا الواطئة. مرافقي كان صينيًا له هيئة منفرة، ويبدو أنه لا يتحدث الإنجليزية وكان يقودني عبر الممرات بإشارات سريعة. وفتح إحدى الخزائن وظل معي رغم قولي له إنني أفكر في إلقاء نظرة سريعة. مصباح خافت كانت يضيء المخزن المريع. كان هناك مصباح أرضي، مروحة وصندوق. الصندوق كان مفتوحا وبداخله تراكمت ملفات بمناهج المحاضرات، أسطوانات مرنة للكمبيوترات القديمة التي لا يمكن قراءتها الآن، عدد من مجلة (تيلاس) مخصص لآرنست بلوش، غليون مائي لتدخين الماريجوانا، علبة واقٍ ذكري، قمصان صيفية، وفي قعره صندوق كريستالي داخله أوراق وأظرف. أشياء عادية، فواتير، نماذج ضرائب، وصفات طبية وبعض الصور المبعثرة: هي مع شباب آخرين، هي في حفلة رقص، هي بصدرها عارٍ على الشاطئ، وفي النهاية صورة حيث كانت إيدا في قلب الصورة مع رجل ينظر إلى الجانب، بعيد عن بؤرة العدسة، يبدو كأنه يخرج من الصورة. كان توماس مونك، شابًا، بوجهه الشارد الغامض. على الظهر يوجد عنوان مكتوب بقلم حبر جاف. حفظت الصورة أمام النظرة غير المكترثة للصيني، لكن عندما وصلنا إلى الطابق الأرضي توقف أمام

Twitter: @alqareah

البوابة وفتح راحة يده مثل متسول في الحي الصيني. أعطيته عشرين دولارا وتركني أخرج، لكن قبل ذلك أمسكني من ذراعي.

- التخدير ورطة – قال بإنجليزية صينية غير مفهومة. هل هذا ما أراد أن يقول؟ تصنعت أنها كانت تحية وابتعدت مبتسمًا.

-٢-

في آخر الظهيرة ذهبت إلى العنوان المكتوب في ظهر الصورة في شمال الحرم. حسب الإرشادات التي أعطتها لي فاتي (كان أحد معارفها الآخرين أيضًا)، هناك يعيش الألماني، مصور يمتلك نادي فيديو، اسمه بلاك جاك، بإعلانات أفلام في الواجهة الزجاجية. كان هناك شابان أو ثلاثة يتفحصون علب شرائط الفيديو على الأرفف.

هانك كان رجلا ضخمًا لطيفًا، شعره أسود ولحيته سوداء، يرتدي معطف عمل أبيض. يدخن سيجارة ويبدو الوحيد الذي يستمع إلى توم وايتس في مكبرات الصوت، لأن الشباب كانوا مندمجين كأنهم من جامعي القطع النادرة في بعثة أثرية في مصر. فتاة زرقاء الشعر، حافية، ببلوزة مفتوحة وميني جيب، ووشم ياباني على العنق كانت واقفة أمام صورة لهيتشكوك وتحاول الكلام في التليفون المحمول. فيلم الرعب؟ هل فيلم الرعب موجود؟ كانت تلح بصوت متحمس.

أشار هانك للفتاة ذات الشعر الأزرق واحتلت مكانه خلف الطاولة. صعدنا إلى غرفة في نهاية سلم كان يؤدي إلى الشارع أيضًا. هانك ترك الجامعة وفتح نادي الفيديو، الذي كانت نقطة لقاء أفضل ما في بيركلي البديلة. لم ينه الدكتوراه، وهذا حوله إلى

Twitter: @alqareah

مهمش، قال لي، لم يرغب في الذهاب للقتال في فيتنام، وهذا جعله مطاردا من العدالة. ذهب للحياة في المكسيك منفيًا وعاد في عهد كارتر، والآن يعيش في وضع شبه قانوني مقبول من الشرطة. كان عليه أن يذهب إلى المكسيك أو كندا كل ثلاثة أشهر، وهذا كان يفيده ليجدد تأشيرته كلاجئ من الأمم المتحدة، وأيضًا مجموعته من شرائط الفيديو الأجنبية. أنا أمريكي بتصريح إقامة، لكن قانونًا أنا من دون جنسية، كان يقول بفخر مواطن المستقبل. من يشاركون في المجموعة التي تلتقي في محله يدفعون شهرية، وبها كان يحصل هانك على ما يشبه الراتب الذي يسمح له بالاستمرار في نادي الفيديو وبار يقدم طعامًا كاليفورنيًا (هذا يعني مكسيكيًا، قال) ويمكنه تناول النبيذ والبيرة. كان قد شارك في مقاطعة نبيذ تشيلي في عهد بينوتشيه واستمر على هذه السياسة آملا أن يموت الطاغية. هكذا طلبت كأسا من نبيذ بينوت اليوناني. هانك طلب بيرة وأشعل سيجارة مصرية أخرى (هي كانت مصرية؟). قلت له إنني أفكر في زيارة توم مونك في السجن، وكنت أحاول العثور على دلائل لعلاقة محتملة بين توم ومونك والبروفيسورة إيدا براون في السنوات التي تصادفا فيها في بيركلي. أطلعته على صورة إيدا. كانت قد بهتت لكنها كانت واضحة بما يكفي. ظن أنه يتذكر تلك العصفورة، قال بينما ينظر إلى إيدا الشابة، جميلة متألقة تبتسم بغموض. بالنسبة لمونك، كان يأتي كثيرًا إلى المحل، كان شديد الاهتمام بالسينما. متحفظا جدا، أحيانا كان يبقى لتناول زجاجة بيرة لكنه يتكلم قليلا. الشرطة جاءت للقاء هانك لأنهم يعرفون أن توماس كان يتردد على المكان. توم كان يأتي هنا من وقت إلى آخر، أيضًا خلال الفترة التي كان يعيش فيها في غابات مونتانا. أن يقوم

Twitter: @alqareah

شخص واحد بهذه الاغتيالات يبدو لي غريبًا، قال. توجد الكثير من الجماعات المناصرة للبيئة التي كانت ستساعده من دون مشاكل. منيندث وكلابه الشرسة يريدون إقامة سور حول هذه القضية، عزل توم؛ أنت تعرف كيف تسير الأمور هنا، على الأخص عندما يتورط شخص في أمر كهذا، حيث يطرح الكلام في السياسة جانبًا. بمفرده، سيحولونه إلى قضية طبية. على الرغم من (إف بي آي)، تعتقد الشرطة المحلية أن الجماعات الراديكالية المناصرة للبيئة تعاونت مع توم، لكنهم يفضلون حكاية الرجل الواحد. حملني هانك إلى معمله. الضوء الأحمر الدموي في الجو، الأفلام من دون تحميض معلقة في الهوا. قام هانك بتكبير الصورة وعرضها على الحائط. بكشاف ضوؤه أزرق قوي، جعلني أرى بروفايل الوجه البارد المتهرب للشاب الذي كانه توم. الدليل، حسب هانك، كان علبة فيلم جوني جيتار. فيلم الويسترن لنيكولاس راي، الذي يرَى في يده. في سجل الاستعارات ، يخرج الفيلم في ١٣يونيو ١٩٧٦ ويُعاد في ١٥ يونيو. في ذلك الحين كان توم قد هجر منصبه كبروفيسور، لكن من وقت إلى آخر كان يظهر في بيركلي، قال لي. هناك كان ينزل في فندق دورانت ويمضى عدة أيام، مستشفيًا من الوحدة. كان يأتي هنا ويفحص الكتالوج بعناية شديدة قبل اختيار فيلم. أتخيل أنه كان يشاهد ويسترن لأنه كان يحب طريقة تصوير طبيعة المكان الذي يعيش فيه. وأيضا لأنه كان رومانسيا ويعجب بالأبطال الفرادى الذين كانوا يواجهون أشرار المجتمع بمفردهم.

كنا نعرف أنه اختار العزلة، قال، إنه كان يعمل في كتاب، لا أحد كان يعرف في ذلك الوقت أنشطته الحقيقية. إيدا من جانبها، قلت له، في تلك الفترة، كانت تقوم بالتدريس في لا هويا، أي في جامعة

Twitter: @alqareah

كاليفورنيا في سان دييجو، ربما كانت تأتي إلى بيركلي للقائه. هانك كان يشك أنه كان يعمل بمفرده. وإيدا إذن؟ حسن، من الممكن تخيل أن البعض كانوا يتولون إرسال الخطابات من عناوين بعيدة. عمل لا يجب أن يكونوا على دراية بأهدافه. كثيرًا ما تكون هذه المجموعات مخترقة من عملاء سريين ولا يريدون الكشف عنهم، ولهذا لا يعلنون عنها، يقتلونهم واحد واحدًا حيث يجدونهم. العدالة تقع على مذنب واحد وهذا يترك الشعب هادئًا، لأنه يكشف أن كل شيء كان سيكون مثاليًا إن لم يكن بسبب بعض المخابيل. كنت أحب هذا النذل، قال هانك، كان شديد الجدية في هذه الأمور، قوي الملاحظة. لفت انتباهه ظهور مسلح يقرأ كتابًا في جوني جيتار. كان يبدو مريضًا، راعي بقر، ربما كان مصابًا بالسل، لأنه كان يسعل بشكل مميت أثناء القراءة. وكان يستخدم نظارة. "كلما ظهر شخص بنظارة في أحد أفلام هوليوود، هذا يعني أنه شرير". كان توم قد قال هذا، تذكر هانك.

مونك كان مضحكًا، بالإضافة إلى هذا، لأنه كان يقول الحقيقة دائمًا. أحيانًا في البار كانوا يوجهون له أسئلة مباشرة، وهو بطبعه الهادئ، كان يجيب بأمانة شديدة، رغم أن الحقيقة – كما يحدث عادة – كانت تتركه في موقف مضحك. هل تأتي معي؟ قالت له فتاة ذات مرة. لا، رد عليها. لماذا؟ قالت هي، ألا أعجبك؟ نعم، لكنني كنت مع فتاة قبل وقت قليل. لم يكن يقول كل شيء، فقط كان يقول الحقيقة حول ما يسألونه.

عندما خرجتُ، كانت الشابة ذات الشعر الأزرق ما زالت جالسة على المقعد العالي، الآن كانت تشاهد فيلمًا آخر لهيتشكوك

Twitter: @alqareah

(فيرتيجو، أعتقد) في الشاشة الكبيرة المعلقة، وكانت هي من فتح لي الباب لأخرج. عدت للفندق واستلقيت على ظهري فوق الفراش. مع مرور الوقت تقل رغبتي في إعطاء تلك المحاضرة للحصول على عمل في بيركلي. فكرت أن حياتي كأستاذ انتهت، لكن لم يمكنني تخيل كيف ستكون حياتي الجديدة. كنت في هذا عندما بقيت نائمًا، استيقظت في الفجر وكان التليفزيون ما زال يبث صورًا. في الماضي، على الأقل، عندما كنت أستيقظ في قلب الليل كان الجهاز يعرض خطوطًا بيضاء تجري من أعلى لأسفل بطقطقة مستمرة، كأنها رسائل عالم بعيد مجنون.

ـ ٣ ـ

كان عليّ أن أترك الغرفة في وسط اليوم، وهكذا أنهيت إجراءات الخروج من الفندق في الحادية عشرة صباحًا، دفعت الحساب ومشيت عدة نواصٍ في تلجراف حتى اخترت كافيه ميدتيرانيوم لأنني فكرت أن هناك يمكنني أن أتناول إفطارًا جيدًا من دون الحاجة لتناول بيكون مع البيض المقلي. بالفعل، أمكنني تناول قهوة دوبل مع كرواسان وكنت أقرأ شيئًا حول بوش الأب في سان فرانسيسكو كرونيكل عندما ظهرت الفتاة ذات الشعر الأزرق، طلبت الإذن وجلست معي. أي مصادفة. لم تكن مصادفة، كانت تنظرني على باب الفندق ومشت ورائي عندما ذهبت للإفطار. كانت تعرف أنني سوف أذهب إلى ساكرامينتو وكانت تريد توصيلة. كانت شديدة النحافة، شابة جدًا، بقميص قصير، السرة مكشوفة، حلقة معدنية في الأنف. إن تحدثك بالإنجليزية غريب، قالت لي، يبدو أنك تفكر في شيء آخر.

Twitter: @alqareah

كان اسمها نانسي كيلر، تدرس الأدب المقارن وتَعِد رسالة حول الطيور لهيتشكوك. انطلقت من الرواية القصيرة لدافني دو موريير، التي قام عليها الفيلم، واهتمت بوجه خاص بالسيناريو الذي كتبه إيفان هنتر، روائي كبير كان يصدر كتبًا بوليسية مثل إد ماكبين، لكن بينما كانت تتقدم في بحثها، قررت تغيير خطتها وقالت للمشرف إنها سوف تقوم بتصوير فيلم تسجيلي كرسالة. حسب ما قالت، ستكون الأطروحة الفيلمية الأولى في تاريخ الولايات المتحدة. وماذا تريدين أن تصوري؟ طيور، قالت ضاحكة. كانت تحمل كاميرا فيديو، خفيفة للغاية، (سوني دي في ديجتال)، لكي أقول الحقيقة، الأولى التي أراها. كانت تريد رصد ما يحدث في المنطقة، ولأن مونك محبوس، ربما تذهب إلى مونتانا لتصوير الغابات. ألا ترى علاقة غير منطقية بين الطيور وقنابل مونك؟ ألم يكن فيلم هيتشكوك نموذجًا للإرهاب البيئي؟ الطيور تهاجم البشر الأغبياء.حذار، لأن الطبيعة سوف تقوم برد الفعل في أي لحظة والعالم سيتحول إلى جحيم. بعد أن أخبرتني بمنتهى الجدية حول طموحاتها الأكاديمية، انتهت من أكل الزبادي بالحبوب ودخنت سيجارة ماريجوانا. بدا لها شديد الغرابة أن أكون أرجنتينيا، لا بامبا، باتاجونيا، الأراضي الشاسعة الخالية، ما رأيي بخصوص المحميات الطبيعية الأرجنتينية؟ بينما كنا نسير نحو السيارة قامت بتصويري سائرة إلى جانبي، بالكاميرا على وجهي. لن أظهر معها في الصورة إطلاقا، قالت، كانت هي عين الكاميرا. ما رأيي في عنوان "بتحليق طائر"؟

عبرنا الجسر من الطريق ٨٠ لندخل سان فرانسيسكو، وعندما كنا بالقرب من ميدان يونيون اقترحت عليّ أن نمر على (روبنسونس هاوس أوف بيتس)، محل الحيوانات الأليفة الذي يظهر في فيلم

Twitter: @alqareah

هيتشكوك باسم دافيدسونس. كان في مايدن لين، وكان أقدم محال الطيور في الولايات المتحدة. في بداية الطيور، الشقراء الثرية الغاضبة التي تقود السيارة الرياضية وقامت بالاستحمام عارية في نافورة بروما، تدخل المحل بحثًا عن ببغاء، وهناك تجد المحامي الذي يسعى خلف زوجين من اليمام، وشعرت بالرغبة فيه، أو بمعنى أدق، حسب نانسي، داعبته مباشرة لأنه يبدو ذكرًا، فحلاً، قضيبًا كبيرًا(*). صعدنا إلى الطابق العلوي حيث يعرضون الطيور الاستوائية، تخصص البيت. هنا اشترى توم مونك ببغاءه والآن ديزي كانت معروضة في قفص عليه لافتة: "ببغاء مونك". في الواقع كانت أنثى، وكانت غاضبة؛ صفراء كالبيض والريش منتفش، كانت تخبئ منقارها تحت الجناح وكل فترة ترفع رأسها، تنظر بعين واحدة وتصرخ: اذهب للفندق، توم، اذهب للفندق، توم. نانسي كانت تصورها وبعد ذلك صورت القفص الكبير بفراخ الصقور. سوف يغلقون هذا المكان بنهاية العام، أمر مؤلم. عندما ألقوا القبض على توم، أعاد أحد، ربما المأمور، الببغاء إلى المحل الذي اشتراها منه. كانوا سيبيعونها في مزاد علني. يمكننا شراؤها وحملها إلى مونك، قالت هي. لم تكن فكرة سيئة، لكنني لم أكن أعرف إمكانية رؤيته ولم أرغب في التنقل ببغاء في كل مكان.

غادرنا سان فرانسيسكو وفي أوكلاند، في النهاية أخذنا الطريق٨٠ الذي يحملنا إلى وسط كاليفورنيا. كانت هناك متاجر على طرف الطريق وخلفه، حتى مدى البصر، حقول كثيرة مزروعة. كنا نسمع محطة راديو من باسادينا وهي علقت على (Undone-The Sweater Song لفريق صدرت أخيرًا أسطوانته الأولى مؤخرًا، فريق

(*) بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

Twitter: @alqareah

ويزير، قالت لي. روك مرح، يضعون صخبا وأصواتًا طبيعية وسط الأغاني وفي الصدارة يُسمع حوار بين عازف الباص وصديق للفريق. شرحت لي نانسي. الفريق انحل ولم يكن واضحًا إن كانوا سيواصلون العزف معًا، لأن القائد، الذي يدعى كومو، ذهب لدراسة الفن في هارفارد. كله ما بعد بانك، متمرد، حالة ثقافية متطورة، وفقًا لما قالت. توجد المئات من الفرق في جاراجات كاليفورنيا تصنع هذه الحركة الروكية على طريقة بيتش بويز، لكن المجانين انفصلوا عندما بدأوا في لفت الأنظار. من الواضح أنها من محبي الفريق لأنها قالت لي إنها أمضت عدة أيام من العشق في الفراش مع كومو. "ما بيننا كان حبا، لكن حب سريع"، أوضحت. كان من المستحيل أن تظل عاشقة أكثر من ثلاثة أيام، بعد ذلك، الأمر يصبح إدمانًا. وكانت تفضل المخدرات التي يمكن شراؤها... كانت تتحدث هكذا، عبارات قصيرة ومنحوتة، كأنها تكتب جرافيتي على جدار العقل.

اسمع، اسمع، قالت لي، هذه هي Only in Dreams عظمة العظمة؛ الأغنية كانت طويلة للغاية، جيتارين وباص جيتار كانوا يرتجلون شيئًا مثل السول - بايون. قاموا بإحياء مفهوم "إبداع الضجيج"(١) (أترجم بشكل سيئ، لأني لا أفهم نبرة صوتها: مفهوم الفرقة هو خلق الحماس)(٢). نانسي كانت تصرخ مع العزف المنفرد الطويل للجيتار. جعلتني أتذكر فرقة فيروس التي كانت تعزف في بوينس أيرس في الثمانينيات، نوع من البهجة الصافية والعنيفة. كنت أذهب للحفلات لأن أحد أصدقائي كان يكتب كلمات الفرقة.

---

(١) بالإنجليزية في الأصل. (المترجم).

(٢) قصد المؤلف أن تكون ترجمة الراوي للعبارة بالإسبانية مختلفة، بل ومن دون معنى ليواصل خيط الاضطراب اللغوي الذي تصاب به الشخصية أحيانًا. (المترجم).

Twitter: @alqareah

كانت تسمعني بانتباه لكن بدون اهتمام. لماذا فيروس؟ لماذا هذا الاسم؟ مستوحى من بوروزو؟(*) سَألَتْ. اللغة تعتبر فيروسًا. كانت فتاة حديثة، تتكلم في كتل من الكلمات وليس بعبارات، وكانت تترك نفسها للاندفاع يجرفها. كانت ابنة حقيقية لساحل كاليفورنيا، الشاطئ هو كل شيء، التزلج على الماء، الشمس، الموسيقى، الانسجام بالنباتات المخدرة. كانت تخرج جسدها من النافذة وتصور الفراغ وطائرًا محلقًا. تَكثُر هنا لأنها منطقة غلال، شرحت لي. على أبراج وأسلاك الكهرباء توجد الكثير من الطيور الثابتة، وفجأة تتجه في أسراب بطيئة داكنة نحو السماء الزرقاء. لهذا جاء هيتشكوك لتصوير الفيلم في هذه المنطقة. وسط الحقول يمكن رؤية خيال مآتة كثيرة للغاية، لكن الطيور لم تكن تأبه بها كثيرا ولا تفزع عند رؤيتها، كانت تحط على رؤوس أو على أذرع الدمى كأنها تتدرب على هجوم انتحاري على الجنسي البشري بكل فصائله.

توقفنا مرات كثيرة، لأنها كانت تنزل لتصوير الغربان أو السحب (وأيضًا لتتبول على جانب الطريق، التنورة مرفوعة ومن دون سروال). عندما بدأ الظلام يحل خرجنا من الطريق السريع ودخلنا فاكافيلي، قرية زراعية تقليدية، بها (بارات) وعنابر لتحميل الماشية إلى الشاحنات ذات الأقفاص. كان هناك الكثير منها ماركة سكودا متوقفة، ضخمة مثل الديناصورات بمقطوراتها الممتدة خلفها في ساحة موتيل لا روكا، وهناك جلسنا، لأنه حسب ما قالت، حيث

(*) ويليام بوروز William S. Burroughs كاتب أمريكي مولود في ٥ فبراير ١٩١٤ في مدينة سانت لويس في ولاية ميسوري الأمريكية، وتوفي في لورانس بولاية كانساس سنة ١٩٩٧، اشتهر برواياته ذات الطابع الخاص والتي غالبًا ما تمزج بين الفانتازيا والواقعية، وتتحدث عن المخدرات والشذوذ الجنسي، كما كان أحد رموز جيل البيت.. (المترجم).

Twitter: @alqareah

تتوقف الشاحنات، من المؤكد أن المكان جيد وتوجد الكثير من العاهرات بالقرب.

أخذنا حجرة واحدة لكلينا (للتوفير، قالت) وعندما فتحنا الباب كانت قد خلعت البلوزة وظلت بنهديها الصغيرين عاريين. جلست على الفراش وأوصلت كمبيوترها الياباني المحمول بالتليفون واتصلت بالإنترنت. غابت عن عيني خلال ساعة تقريبا، كانت تتصفح محرك بحث مقرصنًا متصلاً بملفات الممثلين الذين شاركوا في أفلام هيتشكوك. من كانوا أطفالاً في الطيور أصبحوا الآن عجائز متقاعدين يعيشون في دور مسنين في كاليفورنيا . وهي كانت تنوي لقاءهم من أجل رسالتها .

كان بها شيء من فتاة سيبر بانك، من طفلة قرصانة، وأرتني كيف تخترق شركات الطيران وتختار تذكرتين في الدرجة الأولى إلى نيويورك، وبعد بعض العمليات المعقدة كانت تقوم بالحجز وتدفع برقم حساب مسروق مدون – كوشم - في رسغها بالحبر الأسود. لم أوجه لها أسئلة كثيرة لكنني تابعت عملها بمزيج من الإعجاب والدهشة. كنت أعرف أن بعض الطلاب، وجماعات كثيرة سرية كانوا معتادين على اختراق كمبيوترات الشركات الكبيرة ويستخدمون أرقام التليفونات الخاصة لعمل مكالمات دولية، ويحكَى أن بعضهم – على الأخص طلاب الاتصالات في بالو ألتو - استطاعوا سحب أموال من حسابات مزيفة من البنوك الكبيرة، لكنني لم أر أحدا يفعل هذا أمامي من قبل. عندما حَصَلَتْ على التذكرتين سان فرانسيسكو - نيويورك - سان فرانسيسكو، استدارت بتعبير فرحة شخص فاز بميدالية أوليمبية.

Twitter: @alqareah

- أسافر مجانًا دائمًا - قالت، واقتربت مبتسمة.

بالنسبة لها، الذهاب للفراش معي كان مثل شرب كوب ماء، بينما كان بالنسبة لي مثل الصعود إلى لعبة قطار الموت.

بعد ذلك طلبنا بيرة وبعض الفطائر والسندوتشات المكسيكية، وجلسنا لمشاهدة التليفزيون والكلام. كانت تعجبني لأنها كانت تأخذ كل شيء على محمل الجد، وكانت تريد أن تعرف ما أرغب في سؤال مونك. هل يمكن أن يكون الغبي قد قتل إيدا أيضًا؟ ولماذا يقتلها؟ سألت هي. تعارفا في بيركلي واستمرا في اللقاء وربما كانت على دراية بأنشطة مونك، ربما لم تكن تعرف كل شيء لكن من المحتمل أن يكون قد حكى لها شيئًا. أو ربما كانت تتعاون معه. كانت تحب تلك الفكرة: الفتاة التي تعيش حياة الخطر. لكن، لماذا لم يكن (إف بي آي) يعرف هذا إن كانت لديه معلومات كثيرة عنها؟ ولماذا لم يربطوا بين موت إيدا وباقي الاغتيالات؟ من قام بالتأثير في الآخر؟ هل أضفى عليها راديكالية أفكاره، تلك القدرة على تخطي الحدود؟ أم كانت هي مِن حملته من الدفاع المجرد عن الطبيعة والأفكار البيئية الساذجة إلى العنف الثوري؟

السيد مونك سبب ضررًا أكثر من النفع للقضية، قالت هي. القضية هي الدفاع عن الطبيعة. هي كانت تعتقد أنه في النهاية سوف يقدم كمجنون، مجنون مطلق السراح، مثل أوسوالد، وبالهناء والشفاء. ألم تر، قالت فجأة، إن الفنان - مثل ألفريد هيتشكوك وباتريشيا هايسميث - كخبير في روح المجتمع تم استبداله بالطبيب النفسي؟ لقد فقدنا البراءة، قالت. لدينا حاجة مرضية للأمن. في الماضي كان الروس والآن؟ الخطر موجود في الداخل! انظر لمونك،

Twitter: @alqareah

عبقري تخصص في تصنيع قنابل منزلية في غابة. تخيل المستقبل... كل جيلي سوف تتم معاملته كمجرمين صغار أو مشاريع إرهابيين كانت تنظر بتركيز إلى طرف سيجارة البانجو المشتعل، بساق على ساق، وفجأة كانت تضحك قليلاً وبعد ذلك تواصل بنبرتها الوعظية. لا، لا، بشكل جاد، هل تدرك هذا؟ نحن نتزلج، نتزلج وأسماك القرش تسير تحتنا، وأخذت تضحك مرة أخرى.

نمنا متعانقين، بتكييف الهواء على أقصاه. كانت هذه أول همهمة حملتني على البقاء مستيقظًا. ثم الماء في المواسير، وأيضا كانت هناك صرخات، كلاب تنبح من بعيد، وأيضا كانت هناك أصوات، شجارات، تنهدات حب، وفي الخلفية، الصوت المعدني للتليفزيون. والأسوأ، أن مصباح الممر كان مشتعلاً باستمرار وخيوط الضوء كانت تعبر بين ألواح الباب وتضيء الغرفة ببريق أبيض. كانت متقوسة في نومها وملتصقة بجسدي، وأحيانًا كانت تفتح عينيها وتستغرق وقتا في التعرف إليَّ.

في الصباح التالي، في ساحة انتظار الموتيل كان ينتظرها، فوق دراجة نارية هارلي دافيدسون، شاب نحيف يحمل أوشام زهور وطيور، بعصابة على شعره، شارب صيني وملابس جلدية، وواصلت نانسي الرحلة معه.

ـ ٤ ـ

ساكرامينتو مدينة مستوية، هي العاصمة والمركز الإداري لولاية كاليفورنيا، وكانت تذكرني بمدينة لابلاتا بطابعها الهادئ وشوارعها المرتبة بالحروف. كانت أحد تلك المراكز المخصصة للبيروقراطية، التي تكثر فيها المكاتب والوزارات. عندما وصلت تركت السيارة في

Twitter: @alqareah

ساحة انتظار أول فندق محترم أجده. غيرت ملابسي وذهبت سيرًا إلى منطقة سجن الولاية. في الشوارع يمكن رؤية حركة شباب وجماعات مدافعة عن البيئة يسيرون إلى السجن. فتيات ونشطاء عجائز مناصرين للسلام، مجموعات نسوية، نشطاء مثليين ومناهضين للحروب كانوا ذاهبين لمساندة مونك في حقه في الدفاع عن نفسه وإيصال صوته. (الكلمة لمونك، الكلمة لمونك)، كانوا يرددون كأنها تعويذة أو ابتهال. كان هناك جرافيتي بصورة الكوخ في الغابة وكلمات أصبحت الآن أكثر مباشرة: مونك للرئاسة. الفوضويون كانوا يعتبرونه سجين حرب، رهينة للرأسمالية.

في مكتب بجوار السجن تجمع صحفيون، فضوليون، محامون وسياح، هناك يُطلَبُ التصريح بالزيارة. كنت أحمل رسالة من باركر عليها موافقة منيندث، وأظهرت هويتي وشرحت من دون تفاصيل الغرض من حضوري. أود التأكد، قلت للشرطية البدينة التي استقبلتني، إن كان مونك قد عرف طالبة سابقة في بيركلي، وبعد ذلك أستاذة في جامعة كبيرة في الشرق، لأن هذه المعلومة قد تكون مفيدة في القضية. أظهرت، أمام وجه الشرطية المندهش، صورة إيدا والعلامات في كتاب كونراد. قالت المرأة إنها يجب أن تستشير، وتحدثت مع شخص يدعى رينولدز وقالت، بينما تتحدث في الموبايل الذي يختفي في يدها كعملاقة، نعم، لا، لا، نعم، لا، نعم، نعم، وبعد ذلك، نظرت لي وأخبرتني أنه من المحتمل بدرجة كبيرة أن أستطيع رؤيته في اليوم التالي، كان يجب أن أذهب في أولى ساعات الصباح.

خرجت للشارع واقتربت من مكان تجمع المتظاهرين في كابيتول بارك، على مبعدة أربعمائة متر من السجن. الشرطة بواقٍ للرأس

Twitter: @alqareah

ودروع كانت تحيط بأطراف الحديقة ولا تسمح بالاقتراب من السجن، لكن بالدخول بحرية إلى الميدان عبر ممر ضيق بين أزياء رسمية زرقاء.

المنظمون رتبوا المكان بشكل جيد، وعبر مكبر للصوت كانوا يرشدون عن أماكن الحمامات الكيمائية التي تم إنشاؤها في أحد الجوانب، كانوا يطلبون إلقاء القمامة في السلال، عدم استخدام مواد لا تتحلل، أن من يريدون الكلام يمكنهم التسجيل في المنصة المرتجلة في وسط الحديقة. فوق المنصة، فرقة بها عازفي جيتار وأورج وباص، الأربعة مظهرهم شرقي، ربما أبناء يابانيون أو كوريون أو فيتناميون وأطلقوا على الفرقة مونك فور مونك، كانت تعزف روك بكلمات راب مستوحاة من Out out of the Obviousأو يتبعون جناسا لفظيا فوضويا مثل: Free, Free, Freedom for Fire وأيضًا شعارات ثورية قديمة بتصرف مثل One, tow, Much munk, وأحيانًا يغنون استهلالات روك ذات روح دادئية مثل !Mucus, Mud, muddle, Munk

المتظاهرون في الحديقة كانوا طلابًا في كليات ومعاهد المنطقة، الذين كانوا يرون أنفسهم في الجامعي اللامع الذي تمرد على (النظام)، الذي كانوا يتحدثون عنه باعتباره كيانا. كما كانت هناك مجموعات من الشعراء الذين يلقون أشعارهم ونظموا حلقات نقاشية. الذين كانوا يسيرون في المنطقة كانوا يحملون قلادات، أوشامًا وعصابات على الرأس، كانوا يعلقون زهورا في الشعر، ويبدون كأنهم طلاب مدرسة في رحلة، كانوا يذكرونني بالنزهات الخلوية التي كانوا ينظمونها في الحزب الشيوعي في فترة دراستي الثانوية (لكنني لم أكن أذهب لتلك النزهات). مجموعات من الفتيان

Twitter: @alqareah

الطيبين الذين يدافعون عن قضايا عادلة، ببهجة قصوى. ما سبب السحر الذي يشعه مونك؟ صفاء تمرده الخالص؛ كان صفاءً شريرًا، شيطانيًا، وكان حدثًا كبيرًا في النضال ضد الظلم والتغييب. كان بطلاً أمريكيًا بكل المعاني: شخصًا جيد التعليم، مثقف أكاديمي بارز، يأخذ قرار التخلي عن كل ممتلكاته ويرحل للحياة في غابة، بأناقة وبساطة راهب، بناءً على تأملاته وخبراته يقرر البرهنة على أن التمرد ممكن، أن رجلاً واحدًا يمكنه أن يضع (إف بي آي) في كش ملك.

هذه كانت الآراء التي تظهر في النقاشات وفي التجمعات بين النشطاء المخيمين في الحديقة. لم تكن مظاهرة سياسية، لكنه نوع آخر من الإثارة، عيد، كأنهم يحتفون بفرقة روك أسطورية لن تصل أبدًا. كانوا وحيدين. لم تكن هناك أية قناة تليفزيون، لم يكن هناك صحفيون ولا مصورون يغطون الحدث، لكنهم كانوا يتواصلون بتليفوناتهم المحمولة ولافتاتهم، ومحطتي راديو مستقلتين تنقلان الحدث من خيمة بيضاء. كانوا في المجموع ثلاثة أو أربعة آلاف شخص تقريبًا، كانوا نساء، أطفالاً، عجائز، شبابًا، مناضلين اجتماعيين ونشطاء سلام، يساندون أفعال إرهابي، أو في أفضل الأحوال، يطالبون بالحق في سماعه. جاءوا من تلال جنوب كاليفورنيا، من الوديان الوسطى، من القرى الهادئة المضاءة طوال الليل في الوسط الغربي، في كرافانات، في سيارات متهالكة، في أتوبيسات، في سيارات رياضية، في شاحنات زراعية، مسيرة دائمة من المثاليين القدامي، أبناء هيبيز، مدخني ماريجوانا، مدافعين عن الحيوانات، أنصار بيئة، نشطاء سلام، مناهضين للعنصرية، نسويين، شعراء غير معروفين، حرفيين من بيج سور، لكن أيضًا

Twitter: @alqareah

مدافعون عن حقوق الإنسان في نيويورك وتشيكاغو، مدافعين عن الأقليات، موجة من المتمردين، ماركسيين سابقين، فوضويين، تروتسكيين، الكثيرون ناضلوا ضد الحرب في فيتنام، ضد حرب الخليج، ضد المبيدات الحشرية والمفاعلات النووية، كانوا مدافعين عن التعاونيات الزراعية، والمشاريع الريفية الصغيرة، عن الإدارة الذاتية، عن حقوق السجناء، عن المشردين، عن كل القضايا الخاسرة وكل الهزائم، كأن توماس مونك قد جرؤ على فعل كل ما تمنى الكثيرون منهم فعله أو قوله، من دون أن يجرؤوا: قتل كل أبناء الحرام هؤلاء، التكنوقراط والرأسماليين.

اللحظة الكبيرة في اليوم كانت العرض الذي قدمته فرقة من الفنانين الطليعيين من سان فرانسيسكو الذين مثلوا مقاطع من الملك أوبو(*) لجيري، أمام كاميرات المراقبة لكل المباني العامة والحصون المحمية في مدينة ساكرامينتو؛ كانوا يمثلون في جماعات صغيرة في النواصي، أمام البنوك، في المحطات، وماكينات سحب النقود، حمامات المحطات، والنواصي الخطرة، والمطارات، كانوا يمثلون أمام عدسات الكاميرات في أبواب المباني، في ممرات السوبر ماركت. مجموعات صغيرة من الفنانين التحريضيين ملأوا خلال أربع وعشرين ساعة كاميرات المراقبة في كل المدينة بعروضهم، بقراءتهم للخطابات المتفجرة لجيري، رافعين لافتات

(*) الملك أوبو، عمل مسرحي للكاتب الفرنسي ألفريد جيري (١٨٧٣ ـ ١٩٠٧). تم عرضه للمرة الأولى في ١٠ ديسمبر ١٨٩٦، في باريس. ومنذ ذلك العرض شهد المسرح تغيرًا وانقلابًا حادين علي التقاليد المسرحية المعروفة حتى ذلك الوقت، سواء في الكتابة أو التمثيل والإضاءة والملابس. وبهذا أصبح أهم إرهاصات السريالية ومسرح اللا معقول. (المترجم).

Twitter: @alqareah

ويذيعون أغاني أمام الشرطة، التي، عندما كانت تهاجمهم تصبح جزءًا من العرض.

بالتوازي قدموا طلبًا رسميًا أمام المحكمة العليا في الولاية طالبوا فيه بالحفاظ على هذه التسجيلات لأنها تعتبر عملاً فنيًا، ممولاً من الجائزة الوطنية للمسرح ومتحف الفن الشعبي في سانت كروز، ولا يمكن تطبيق الرقابة عليها ولا تدميرها، من دون مخالفة دستور الولايات المتحدة، الذي يحفظ الحق في التعبير والعمل الفني.

ـ ٥ ـ

في نهاية الظهيرة توقفت أمام مجموعة كانت قد أقامت منصة وسمعتهم يتناقشون ويضحكون ويرفضون القانون الجديد ضد الإرهاب الذي يريد كلينتون تمريره. كانوا يعتبرون مونك ثوريًا جديدًا (ثوريًا غاضبًا) استخدم حق العصيان المدني، الذي كان يحتوي - حسب ما قالوا - على الحق في العنف أمام دولة قمعية تحمل البلاد بشكل دوري إلى الحرب لكي يدعم الآلات الشيطانية في مصانع السلاح. كانوا يعتبرون أن مونك كان أول من رد عمليًا على مطلب صامت للمجتمع من أجل الدفاع عن عالم طبيعي وعن عدالة اجتماعية. فقط قام بمهاجمة الشخصيات الخفية التي تحافظ على الهرم الاجتماعي والبنية التكنولوجيا - العسكرية. لم يوجه نظره إلى أراجوزات السياسة ولا أعضاء الكونجرس الفاسدين، ولا هاجم الشرطة ولا القتلة المأجورين، ولا هاجم المسئولين الاقتصاديين والمصرفيين عن الكارثة، هاجم من يعرفهم خير المعرفة، النخبة المثقفة التكنولوجية المنّظرة للرأسمالية

Twitter: @alqareah

المجرمة، المسئولين عن مفاهيمها، مفكريها، العلماء المجانين بآلاتهم الشيطانية وتجاربهم البيولوجية. القتل أمر سيئ، لكن الدفاع عن النفس أمر جيد، وخاصة، استخدام العنف لكسر حاجز الصمت ونشر مانيفستو الحرية الجديد، عمل تنظيري به أفضل التقاليد الأمريكية، تقاليد جيم براون، مالكوم إكس، تشومسكي. نبرة المانيفستو أسرتهم. أفكاره كانت رائعة، كلماته نبيلة وحارة. لا توجد مطالب عملية يمكن أن تقطع سحر العبارات، باستثناء ملاحظة في أسفل الصفحة الأخيرة، مكتوبة باليد، بالطبع بعد الكتابة الأولى، بخط واثق، والتي يمكن اعتبارها اقتراحًا لطريقة. كانت بسيطة جدًا، اقتباسًا - بخلاف اللجوء المتكرر البائس للمشاعر الغيرية التي اعتاد اليسار الأمريكي على رفعها بشكل كئيب في مسيراته السلمية - يبدو براقًا، لامعًا، مرعبًا، مثل برق في سماء صافية: "يجب قتل كل أبناء الحرام هؤلاء، التكنوقراط والرأسماليين".

كان قد كتب هذه العبارة في نسخته الشخصية قبل إرسالها إلى نيويورك تايمز وواشنطن بوست، والآن أصبحت إحدى أدلة الادعاء للكشف على أن من وضع القنابل هو نفسه من كتب البيان. يبدو أن مونك نسي هذه التعليق الختامي المهم، وكان متيقنًا أن "كتيبه" (هكذا كان يسمى المانيسفتو) سيصبح أساسًا للاعتراف بذكراه في المستقبل. لن يُنسَى، قال رجل شديد الأناقة، بوجه مغطى بندوب صغيرة، لا يعرف المرء من أي حروب، كان تحت ظل شجرة يحكي أنه منذ شهور قضى ليلة متحدثًا مع توم في بار في محطة في أوكلاهوما؛ كلاهما فقد الأتوبيس الأخير وانتظرا معًا أول خدمة في الصباح. المتحدث كان رجلا رمادي الشعر، يبدو غريبًا في المكان، لأنه كان يرتدي بذلة من الكتان الأبيض، حذاء من اللون

Twitter: @alqareah

نفسه، قميصًا سماويًا ورابطة عنق رمادية. كان سمته وقورًا، لكن به أيضًا شيئًا من الخسة والغندرة. كان يتحدث بصوت هادئ وجذب انتباه المحيطين به. أمضوا الليلة متحدثين في المحل نصف الفارغ في المحطة شبه المغلقة ولم يتحدث مونك عن قنابل أو عنف، لكنه تحدث بالفعل عن مشروعات كبيرة. كان يبدو رجلا بحاجة للكلام، فقط كان يحتاج روحا تسمعه. قال لى إنه رحالة، وأعطاني اسمًا كأي اسم (كيرتز أو كيرتزيو، لا أتذكر)، لكنني لم أصدقه بالطبع وفكرت أنه هارب، مبشر إنجيلي مطرود من جماعته لاعتداءات جنسية، أو كاتبًا فاشلاً أو صاحب أملاك تم النصب عليه. الآن نعرف أنه قاتل، لكن في تلك اللحظة حدست شيئًا مثيرًا للقلق وجذابا فيه، خطرًا عليه نفسه، وفكرت أنه شخص يريد الانتحار. كان يبدو مهمومًا، كأنه على وشك الانفجار، قال الرجل ذو الملابس البيضاء، لكن أكثر ما أثر فيّ كان رؤية يده المحروقة، اليسرى، من دون ضمادة لكن الجلد متقشر، كأنه شخص يقوم عمله على وضع اليدين في النار.

Twitter: @alqareah

الفصل الثاني عشر

ـ ١ ـ

وصلت إلى السجن في العاشرة صباحًا؛ على مائدة الاستقبال قدمت بطاقتي وخطاب باركر، وفي منطقة التفتيش، طلبت التحدث مع الدكتور بيك، طبيب مقيم في السجن، صديق - أو موظف - لسام كاررينجتون الذي كان يستخدمه كهمزة وصل بين الأولاد (كان يطلق هذا على المساجين) وتجارته في السيارات المستعملة. بعد فترة ظهر، كان بدينًا بشوشًا، يبدو كدجالي الموالد، يرتدي معطفًا أبيض باسمه مطرز عليه. تخيلت جدران عيادته بشهادات داخل أطر ودبلومات أكاديمية غريبة. لم يبد أنه مشغول ذلك الصباح وكان يدخن في غليون من الصدف، وهو ما يؤكد هيئته كممثل كوميدي. الحقيقة أنه بفضله (ومائة دولار أخرى) أمكنني الدخول من دون مشاكل وتخطى كل نقاط التفتيش.

سجن بإجراءات أمنية عالية في الولايات المتحدة يعتبر مؤسسة معقدة، ربما أكثر الأشكال الحياة الاجتماعية التي يمكن للمرء

Twitter: @alqareah

تخيلها تعقيداً، قال لي الدكتور بينما نهبط في مصعد زجاجي الجدران. في الواقع، هو معمل تجريبي لسلوك البشر في ظروف قصوى، مكان ممتاز للعمل بالنسبة لطبيب نفسي مثلي، قال. خرجنا إلى باحة مغطاة وبعد عبور ممر أسطواني توقفنا أمام بوابة معدنية بيضاء. قدمنى الدكتور بيك للحارس وذهب. سوف نلتقي على الجانب الآخر عندما أعبرُّ منطقة التفتيش. سمعت كيف يغلقون بالمزلاج خلفي ونزلت للقبو بصحبة السجان.

في العمق توجد صالة الفحص، غرفة معتمة أمامها شبكة معدنية لا تسمح بالرؤية على الجانب الآخر. على الجدار الخلفي توجد خطوط تحدد المكان الذي يجب الوقوف فيه، مجموعة من الأرقام لقياس طول الشخص الذي سوف يتم التحقق منه. أمامي، في السقف، توجد الكثير من المصابيح التي اشتعلت على الفور. الحارس الذي رافقني خرج وبقيت بمفردي في الصالة. أرشدوني عبر مكبر للصوت أن أقف في وسط الخيوط البيضاء تحت الكوة المغطاة بشبكة حديدية. خلف الشبكة كان كل شيء مظلماً، ومن هناك يصل الصوت الذي يوجه لي الأسئلة. من أريد أن أزور (كانوا يعرفون هذا)، بأي غرض، قلت لهم إنني أريد أن أعرض على السجين بعض المستندات التي يمكن أن تكون مفيدة في القضية. سألوني إن كانت لي سوابق، إن كانت بي علامات مميزة أو ندوب، لأي دين أنتمي، لأي جنس، إن كنت مدمن مخدرات. كل هذه المعلومات يتلقونها عندما يملأ المرء نموذج التصريح، لكنهم كانوا يكررونها، إذ ربما يكون قد أخطأ أو أعطى معلومات مختلفة أو لمجرد الروتين. الأمر كان إرهاق الزوار ومعاملتهم كأنما سيتم سجنهم. صوروني من الأمام ومن الجانب وتركوني دقائق طويلة

Twitter: @alqareah

تحت الضوء الذي يغشي البصر لكي يبثونًا فيّ الخوف، أعتقد. الصوت الصادر من مكبرات الصوت استأنف الارشادات بعد فترة. قف منتصبا، ارفع ذقنك، الق كتفيك للخلف، اخلع النظارة، انظر إلى الأمام، درْ إلى اليسار، الآن إلى اليمين، إثبت واقفا إلى الجانب. اخلع ملابسك، اتركها على الأرض. انظر للحائط، انحن، افتح ردفيك (اكشف مؤخرتك). اعتدل في وقفتك، أنظر للأمام الآن، ارفع ذراعيك، دعني أري الإبطين، ارفع الخصيتين. حسن، الآن انظر للضوء، افتح الفم وأخرج اللسان، اكشف عن أسنانك. اليدان منفصلتان، الأصابع مفتوحة على الآخر، راحة اليد إلى أعلى، راحة اليد لأسفل. ارتدِ ملابسك. انطفأ النور. كانوا يعتقدون أن المرء يمكنه أن يخفي مخدرات في أي تجويف ، أو ربما بومة ملفوفة في شريط بلاستيكي مخفية بين تلافيف الروح. مطواة من الممكن، بعض المشتروات للأولاد المحبوسين، نشرة من الحزب العمالي مطبوعة على ورق أرز غير مرئي. كنت أذهب للسجن خلال سنوات لزيارة بيتو كاررانثا، صديق كان حظه السجن قبل الانقلاب العسكري في ١٩٧٦، ورغم أنه تعرض للتعذيب ولمحاكاة الإعدام رميًا بالرصاص مرات عديدة ، وُضِعَ تحت تصرف السلطة التنفيذية ونجا من الاغتيال سرا. في سجن ديفوتو، عندما كنت أزوره في تلك السنوات، كان الحراس ينبهونك إلى أنك مسجل، يسألونك إن كنت من المنظمة، إن كنت تروتسكيًا، إن كنت شاذًا، إن كنت يهوديًا وشيوعيًا (أو يهوديًا فقط) وفي النهاية يطلبون منك مالا للسجائر. أصدقاء المعتقلين كنا بالفعل نمرر لهم خطابات مكتوبة بخط ميكروسكوبي على ورق تبغ أو ننقل لهم رسائل محفوظة في الذاكرة. أتذكر أنه عندما كان كاررانثا يدخل صالة الزايارات يبدو

Twitter: @alqareah

دائمًا سعيدًا ومتفائلاً ويبث فينا الأمل، نحن القادمين من الشارع.

بعد انتهاء الفحص خرجت من الغرفة ودخلت مكتبًا حيث تركت المال الذي أحمله، بطاقات الائتمان، المفاتيح. كتاب كونراد كان يمثل جزءًا من الأشياء التي يمكن دخولها في المنطقة عالية التأمين.

عندما خرجت من غرفة الفحص، كانت الدكتور بيك ينتظرني. حسب ما قال، السجن كان أحد أكثر الأماكن هدوءًا في العالم. يمكن السير في الممرات ليلاً بين الزنازين من دون مشاكل. هنا الحياة معلقة، لا هدف لها ولا معنى. في زنزانة يمكن رؤية بطانية قذرة على الأرض الإسمنتية، ورجل لا يستطيع النوم جالسًا على حافة الفراش بقدميه حافيتين فوق البطانية، ثابتا، منتظرا وصول الغد. يوجد الكثير من الزنوج واللاتينيين المسجونين (هم ٦٧٪) و٢٥ في المائة من باقى السجناء بيض، قال الطبيب، ٨٪ الآخرون شرقيون، لكن ٧٦٪ من الحراس بيض، عامة بيض فقراء من لويزيانا أو من فريجينيا، كانوا يعملون من قبل في منطقة الشحن في المزارع أو أرصفة الموانئ، لكنهم فقدوا وظائفهم وأصبحوا حراس سجون. كانوا يفضلون الحياة بين الأسوار على البقاء من دون عمل. الدكتور بيك أيضا دخل للعمل هنا لأنه لم ير أفقًا آخر، وكان مرتاحًا في هذا العمل، لأنه باستثناء الجرحى في المشاجرات - جروح بمدى، ضربات رأس تحطم أنفا - وفي الاغتصابات القسرية، الأغلبية كانت لديهم أمراض عادية ويقضون وقتا في العيادة لكي يفرغوا توتر الحياة هنا.

Twitter: @alqareah

فيما يتعلق بمونك، كانوا يتعاملون معه بكثير من التقدير وينادونه البروفيسور، نقلوه إلى حبس انفرادي، لكن لكونه لم يقتل أي رجل شرطة، تتم معاملته كسجين عادي. كان بحال جيدة الآن، قال الدكتور بيك، نحن مقتنعون أنه ليس مريضًا نفسيًا، على العكس تمامًا، إنه رجل لطيف، محب للقراءة، قليل الكلام. آه، لا أعتقد أنه يمكن العثور على شخص مثله. رجل عظيم، عقل لامع. يعيش في عالمه، يفكر طوال الوقت. لقد وسع من معارفي ليس فقط لإمكانية الحوار معه من وقت إلى آخر، وإنما لحكايته. عاش وحيدًا في الغابة من دون ضوء كهربائي ولا تليفزيون، لهذا يشعر هنا أنه في مكان رائع، هو لا يقول هذا، لكنني أدركته.

نزلنا طابقًا تلو الآخر عبر سلم إسمنتي حتى الوصول إلى المنطقة الرمادية، التي يطلق عليها أيضًا (العزل). هناك يوجد القتلة، المرضى النفسيون، المجرمون الخطرون الذين ينتظرون الحكم. كانت ما يمكن أن يطلق عليه عمليا المنطقة النفسية في السجن، رغم أن بيك كان يضحك من تلك التسمية. المجانين موجودون في الخارج، يا صديقي، أعرف ما أقول، هنا يوجد فقط مجرمون بائسون، قال، وتركني بمفردي أمام الممر الإسمنتي شديد النظافة حتى يبدو كأنه خارج السجن.

ـ ٢ ـ

صالة الزيارة كانت حجرة بيضاء بها نوافذ عالية عليها شبكة معدنية وضوء ناصع. استقبلني حارس وأجلسني إلى مائدة مستطيلة وبعد ذلك جلس في آخر الغرفة الفارغة، مثل الحارس المملول في متحف يرى، من دون أن ينظر، الأعمال العظيمة

Twitter: @alqareah

المعروضة. أحد الجدران كان يوحي بأنه غرفة جيزيل، أي مرآة خفية تسمح بمراقبتنا من الجانب الآخر. جعلني أتذكر حوض السمك الخاص بدا-أماتو بالقرش الأبيض الذي يسبح باستمرار في المياه الشفافة في انتظار الفريسة. ساعة دائرية بعقارب كبيرة سوداء كانت ستحدد زمن الزيارة، وكانت قد بدأت في العد.

في النهاية تُسمَع أصوات بعيدة ووقع أقدام معدنية تقترب عبر ممر المدخل. "لا أحب أن تتكلم الناس عني كأنني غير موجود"، قال شخص. "اهدأ، ميستا(*) مونك، رد عليه الحارس، زنجي أشيب الشعر، بينما يدخلان الغرفة.

كان توماس مونك أطول مما تخيلت، له طلة هادئة، وعينان زرقاوان حادتان. كان هناك مرتديًا الزي الموحد البني للسجن، شيئًا يشبه البيجاما واسعًا عليه، كانت ساقاه مصفدتين بقضيب معدني عند الكعبين، ومع هذا كان له مظهر مميز، كأن تميزه لا يعتمد على أي ظرف خارجي. عندما يتحرك كانت خطواته ترن بصوت حزين، كان معتقلاً والكلمة بالنسبة لي اكتسبت كل معانيها للمرة الأولى. ضغط حديدي، آلي، مبالغ فيه، غير شخصي، لديه القدرة منع إنسان عن الحركة.

جلس أمامي مباشرة، على الجانب الآخر من المائدة؛ كان قريبًا للغاية حتى إنني تراجعت قليلاً بالكرسي، بينما كان يفتح ويغلق يده اليسرى المشوهة بالندوب والحروق.

كان لديه وقت قليل، قال، توجد أشياء يريد أن يقولها، ويرغب أن تُسمع بعض أفكاره مباشرة. كان يشكر من يجيئون لزيارته، كان

(*) يقصد (مستر)، وهي موجودة في النص بهذا النطق للدلالة على عدم تخلص المتحدث من لكنته اللاتينية لدى التكلم بالإنجليزية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

لديه الكثير من الطلبات للزيارة، لكنه استقبلني لأن قدومي من بوينس أيرس أثار فضوله.

- هل حقيقة كان الثوار الأرجنتينيون يحملون قرصًا من السم معهم؟ سألني.

- لتفادي التعذيب. ليس لأنهم كانوا يرغبون في الموت

- أفهم. قال.

- عندما بدأ القمع، متوسط حياة ناشط في الخفاء كانت يقدر بثلاثة شهور.

- في هذا البلد الاختفاء مستحيل. قال، الإنسان يمكنه أن يختفي لفترة لكنه دائمًا يُصور ويُراقب، مهما فعل، وسوف يقرؤون مراسلاته، يراقبون حسابه البنكي ويفتشون بيته وبيوت أصدقائه سرًا. الطريقة الوحيدة للنجاة هي حياة العزلة في مكان بعيد. على الجزيرة البعيدة يمكن التأمل، الهمس، الكلام، التفكير. لا أحد يمكنه أن يعرف ما ندبر، الأفكار لا يمكن رؤيتها. في هذا تنحصر اليوم الحياة السرية، يجب أن نقوم بالانسحاب والبدء من جديد. الطبيعة قامت باحتياطاتها لكي تكون الأفكار غير مرئية. إنها الملاذ الأخير للتمرد. في الماضي كان من الممكن تكوين مجموعات سرية، تنظيمات صغيرة محكمة، شبكة من الخلايا المغلقة، مدربة وكفئة. تلك المرحلة انتهت، توجد سلسلة رهيبة من الهزائم. الآن يجب البدء من جديد، نحن في عصر الرجال المنفردين، المؤامرات الشخصية، الحركة الفردية. فقط يمكننا المقاومة بإخفاء أفكارنا غير المرئية، بإخفائها بين الجماهير. نحن أفراد متفرقون داخل الغابات، تائهون في المدن الكبيرة، أفراد هاربون تائهون في البراري.

Twitter: @alqareah

نحن منعزلون لكننا كثيرون. انتقلنا من الكتلة إلى الطائفة. هذا هو الوضع السياسي الجديد: تشتت، تراجع، الطليعة تائهة خلف خطوط العدو. كروبوتكين، الأمير كروبوتكين، الثوري الروسي، المنظر اللامع، كان يطلق (صلابة) على الطاقة التي تحافظ على العلاقة بين الرجال في مواقف الاضطهاد والخطر. متحدون في الشتات، مجهولون فيما بينهم، هذه الجماعات المتقاربة تغير باستمرار من: طريقها، أبعادها، مجالها، سرعتها.

الفوضوية تلغي التمييز الكاذب بين الفرد والمجموع: الفرد، في البداية، وعلى العكس من معاني الكلمة، هو مجموع. الأمير كان يطلق عليه مُركَّب القوى، كل فرد هو مجموعة من الجهود، وكل مجموعة يمكن أن تُدرك كفرد واحد. وكما يقول الإنجيل: "صانع الفخار يمكنه أن يصنع وعاءً للشرف وآخر للعار. أوعية من الغضب، أوعية من الرحمة" (سفر الرومانيين ٩,٢١) أي حياة للشرف - قال - حياة للعار. حياة من الغضب. حياة من الرحمة. كل طريقة حياة لها قيمها، لغتها وقانونها، وهي معرضة لتغير دائم وإعادة التوصيف. الشخصانية الفوضوية متغيرة. انقطاعها حقيقة يشرحها كروبوتكين باعتبارها نتيجة لسلسلة من الوحدات المستقلة والمتتاليات التي تشكلها بالتوازي.

أكثر ذكرياتنا حميمية، أكثر مشاعرنا حميمية، أساليب حياتنا، كلها متعددة. كل قرار نأخذه يغلق سلسلة من البدائل المحتملة. ماذا سيحدث إن حاولنا في الوقت نفسه اتخاذ قرارات متعارضة وحافظنا عليها منفصلة مثل متسلسلات مفتوحة؟ الحياة السياسية، الحياة الأكاديمية، الحياة العاطفية، العائلية، الجنسية، الدينية توجد بينها علاقات غير واضحة تماماً (لكي لا نقول سرية).

Twitter: @alqareah

كان يتحدث هكذا بدون مبالغات. متعب قليلا، مثل من يلتقي غريبا في قطار ويقيم معه حوارًا عرضيًا بدون هدف. قام بدراسة زملاء السجن، الذين لا يتوقف سلوكهم عن إدهاشه. يكونوا هادئين ناظرين للصور على شاشة التلفزيون في صالة الترويح وهناك كانت تبدأ أكثر التمردات دموية. كانت رؤية الموجودين في الخارج تثير حنقهم، يعيشون بشكل طبيعي. لم يكن الاضطهاد هو ما يجعلهم يثورون، وإنما التكرار المستفز للتفاصيل اليومية التي تعرض على الشاشة. معرفة أن الحياة تسير خارج ذلك المكان كان يحنقهم ويثيرهم.

أحيانًا، قال بعد ذلك، كان يندهش للحنين لفترات لا يتذكر أنه عاشها. يوجد بهو به أصص حمراء وأير الراعي وعزف بيانو. كانت أمه. كان يفتقدها لكنه لا يريد رؤيتها، كانت مرتبطة بأكثر جوانب روحه ضعفًا. كانت أمي تعزف البيانو بطريقة شديدة التميز، أضاف، لدرجة أنني أتذكرها بتأثر جالسة أمام الأصابع، بنظارتها الخاصة بقراءة النوتة الموسيقية. كانت عازفة بيانو بولندية، أي أنها لم تكن روسية، وكانت تشعر بالدونية لكنها كانت ممتازة. الموسيقى تعبر عن الأفكار أفضل من أي شيء آخر، قال.

(التمرين على تخيل عوالم ممكنة أو مجتمعات بديلة من ثوابت الفكر اليوتوبي، لكن لم يعن لأحد - عدا أن تكون صدفة أو حظًا - تخيل عدة حيوات شخصية متزامنة، مختلفة جذريًا الواحدة عن الأخرى، وبعد ذلك أن يكون قادرًا على أن يعيشها.)

- سعيت إلى التعبير عن أفكاري عن طريق الفعل المباشر. هل تقوم بالتدوين؟ - نظر لي كأنه يستيقظ وابتسم-. لكن، ماذا تفعل هنا إذن؟

Twitter: @alqareah

– أنا صديق لإيدا براون – ظل رابط الجأش، لم يكن شخصًا يمكن إرباكه بهذه الألاعيب – معي صورة . قلت، ووضعتها على المائدة. درسها بعناية. فتاة مبتسمة، وشاب متهرب. هل تذكرها؟ كانت طالبة في الدراسات العليا في بيركلي. ماتت في حادث سيارة. هل كنت تعرفها؟

عرفتها، نعم، منذ وقت طويل، قال. وهل واصلت. لقاءها؟ رأيتها، نعم، مرتين، بعد ذلك. كانت صديقة. كان يمكن الثقة فيها. توافقنا في هذا، مثل غريبين يندهشان لمعرفة أنهما أحبا المرأة نفسها. لكنه لم يقل شيئًا شبيهًا، كنت أتخيل هذا، لأنه لم تكن هناك ثقة، ونقطة الاتفاق الوحيدة كانت عندما ذكرت اسم إيدا براون فبدأنا نتحدث بالإسبانية، وعلى الفور قام الشرطي الذي كان معنا بإشعال ضوء أحمر.

– لا تهتم به. سيستغرقون وقتًا أطول في تفسير ما يسجلون، لكن منيندث سوف يفهمنا، هو الوحيد الذي يمكن أن يهتم بهذه المحادثة، وإن كنت أنت موجودا هنا فلأنه سمح بهذا – قال – المكسيكي يحاول أن يفهم. غموض الشخصية الإجرامية قال بسخرية. إنه كلب لا يمكنه الإمساك بدبور، فقط يشعر بلدغته. ويقفز. يعض الهواء، ينبح في الليل. هل يمكن لكلب أن يفهم دبورًا؟

وفقًا لمونك، كان (إف بي آي) يقوم بجمع أدلة، يستشير متخصصين، يستخدم معامل علمية، ملفاته الإلكترونية المتشابكة المتصلة بكل أجهزة الشرطة في العالم، يجذب الشبكة لكي يصطاد الدرفيل، لكن في النهاية يَحِلّون – ما يمكنهم حله – بالتعذيب، الابتزاز والوشاية.

Twitter: @alqareah

- أخي، على سبيل المثال، إنه أسوأ من ببغائي ديزي، هي على الأقل، لا تعرف ما تقول. أعطوه مليون دولار كمكافأة، وأقسموا له أنهم لن يشنقوني.

بدا كأنه يكلم نفسه، غير مكترث بتعاطف أو نفور من يسمعه بفضل العادة التي اكتسبها بالتفكير بصوت عال، في عزلته في الغابة، مثل الناسك الذي يتحدث في الصحراء عن رؤاه. لا أعتقد أنني أنقل كلماته بأمانة، لأنني كتبتها عندما عدت للفندق، بعد ساعات، لكن بعض مقولاته موجودة في ملاحظاتي، وحاولت أن أنقل المغزى الذي عبر عنه في ذلك اليوم.

بنظريتي حول القرارات، قال بعد ذلك، فزت بميدالية فيلدز. ما إن تسلمت أموال ميدالية فيلدز حتى تركت كل شيء، وهذه كانت نقطة انطلاقي. كانوا قد منحوه الميدالية لإنجازاته في منطق القرارات. يتعلق الأمر، حسب ما قال، بالتجريب في الحيوات الممكنة والحيوات المتخلية. في كلتا الحالتين، نكون مندمجين في عالم كأنه العالم الحقيقي، مندمجين مثلما نكون في العالم الحقيقي. المفتاح هو أن العوالم المتخيلة - بخلاف العوالم الممكنة - غير مكتملة (لهذا لا يمكننا معرفة ماذا فعل مارلو بعد أن انتهى من قص حكاية لورد جيم). مونك كان يطمح لاستكمال (سياسيًا) بعض الحبكات غير المحلولة والتصرف بناء على هذا. كان يفضل الانطلاق من حبكة مسبقة. كان هذا كل ما قاله حول قراءته لروايات كونراد.

في البداية، فكر في كتابة دفاتر مختلفة، كل واحد منها عن المتتاليات البديلة لحياته: لكن بعد ذلك أدرك أن التقاطعات هي ما

Twitter: @alqareah

يثير الاهتمام. لكي لا يورط أحدًا، كانت توجد صفحات كثيرة جدا مشفرة في يومياته، مكتوبة بنظام الشفرات المتحركة، التي اخترعها. التي تتغير حسب الساعة. في الثالثة مساء الكلمات تعني شيئًا، لكن في منتصف الليل يصبح معناها مختلفًا.

كان يعرف أن خبراء (إف بي آي) لجأوا إلى ناسا، وحاول محللو شفرات ناسا اللجوء إلى الروس، لكن الروس كانوا منشغلين بفك شفرات الحسابات السرية للقادة السابقين في الحزب الشيوعي في سويسرا، ولم يرغبوا في التعاون في شيء شديد السطحية مثل فك شفرة يوميات عالم رياضيات سابق.

- الروس فقدوا كل شيء لكنهم احتفظوا باحتقار الأمريكيين، وفي هذا أنا أيضا روسي.

لا تظن أنني لا أفكر في الموتى، قال بعد ذلك. إنهم مثلي، كان من الممكن أن أكون أحدهم. علماء كبار، أنذال حتى النخاع، رجال مرهفون. جون كلاين كان يحب الطيور. جيمس كوردا، رجل اللاهوت، كان لديه عشيق لم يستطع البوح بحبه لكي لا يفضحه. ليون سينجر كان اشتراكيًا طوال حياته، وهذا أتى له بمشاكل في مسيرته الأكاديمية. أرون لوين لم يحتمل المنفى. كانوا طيبين ولطموحهم الشخصي، الذي كانوا يطلقون عليه حب العلم، كانوا يتقدمون بينما يدمرون كل شيء في طريقهم، مثل البلدوزرات التي تحطم غابات وجبالاً مقدسة. تجاهلوا - أو لم يرغبوا في رؤية - تبعات أفعالهم. هذا هو الشر: عدم تحمل مسئولية تبعات الأفعال. التبعات وليس النتائج. التبعات، قال. المشكلة الأبدية هي كيفية ربط الفكر بالفعل. توجد أفعال تعبر بوضوح عن طرق التفكير: في هذا كانوا كلهم مثله.

Twitter: @alqareah

ضوء المكان كان ضوءًا أبديًا، أنابيب الفلورسنت كانت تخلق جوًا نهاريًا. الشرطي الجالس إلى جانب يبدو ناعسًا بعينين مفتوحتين. الحوار، أو بشكل أدق، المونولوج، كان يُقطع من آن إلى آخر بصرخات أو تأوهات أو ضربات ضد الشبكات المعدنية وبأصوات بعيدة، متقطعة، حادة ، بأصوات غير الواقعية من التليفزيون، الأصوات التي تدخل من فجوات تكييف الهواء. لم يكن هناك صمت أيضًا في السجن. على الإطلاق، قال، وابتسم كأنه اكتشفني من جديد. حينئذ سألني ماذا كنت أقول له.

- ماذا كنت تقول؟ سأل.

- لقد تلقيتَ رسالة من إيدا براون.

تأخر في تحريك قطعه.

- رسالة؟

-اتركني أطرح الأمر بطريقة أخرى - قلت له - إيدا اكتشفت بالمصادفة في رواية كونراد علاقة ما بأفعالك. مصادفة، ربما، ولكي لا تكشف عنك، كتبت لك رسالة تحذرك. نظر لي بجمود وتابعت-. لدى اختيار رواية كونراد، لا بد أنك فكرت، مثلما يفعل أي منتحل، في إمكانية أن يكتشف شخص، بالمصادفة، هذه العلاقة بينما يقرأ هذا الكتاب. (إف بي آي) لمح علاقة ما بين الرواية وأفعالك لكنه لم يستطع التقدم أكثر من هذا. كتاب في حد ذاته، وحيد، لا يعني شيئًا. توجد حاجة لقارئ قادر على إدراك العلاقة ويضعها في السياق. العلامات في الكتاب واضحة، التواريخ تتوافق. هي قامت بتدريس الرواية في الأسبوع الأول من مارس. لهذا لا بدَّ أنها أرسلت الخطاب قبل الثالث عشر من مارس، لأنها في ذلك

Twitter: @alqareah

اليوم تركت الكتاب لي، نسيته، يمكن أن نقول هذا، أو استخدمتني كبديل. لربما حدث لها شيء - كان قد انتعش ونظر لي باهتمام - لا أعرف ماذا يمكن أن تكون قد قالت لك في الرسالة، لكن من القليل الذي عرفته عنها، يمكنني أن أؤكد أنها لم تكن ستشي بك من دون تحذيرك قبل ذلك، من دون أن تقول لك إنها اكتشفتك بل أيضًا من دون أن تقترح عليك الهرب، أن تترك ما كنت تقوم به.

تأخر في الرد

- لا أتلقى رسائل منذ شهور، والتي أتلقاها، أقطّعها من دون قراءتها.

رغم هذا كانت توجد بعض النقاط الغامضة. كنت مقتنعا أن موت إيدا لم يكن حادثا. كل واحد يجب أن يكون - على الأقل- صاحب قرار في موته. الاتساق يفترض هذا.

- هل تعرف ما الاتساق؟

- كان يمكنك استخدام الاتساق لكي لا تقتل أناسًا أبرياء.

- الاتساق في حالتي فضيلة تالية على الأفعال - قال. إطلاقًا، لا يجب شرح ما يفعله المرء ولا يجب تقديم مبررات.

إن كان قد بقي صامتًا بشأن أسبابه، قال بعد ذلك، لكان قد انتصر. سلسلة من القتل غير المفهوم، عمل فني شرير ومكتمل، كل المجتمع يدور حول نقطة عمياء. كان يرفض الأخلاقيين الذين يقتلون ويدمرون باسم النيّات الطيبة. أسبابه، على العكس، لم تكن متسقة مع الاغتيالات التي ارتكبها. لم يقل أبدًا لماذا فعل ما فعل. بهذه الطريقة حصل على السيادة المطلقة، غير سياسية وفوق

Twitter: @alqareah

أخلاقية، قال. لا يوجد أي بديل في المستقبل يبرر الأفعال الحالية: كان يرفض الأمل اليوتوبي، اللاحق دائما ، المؤجل إلى الأبد، رغم هذا كان يقدم نفسه كالأفق الأخير في الفعل. لم يقل هذا مطلقًا بشكل صريح، لكنه كان يعتقد أن العنف السياسي يفسر نفسه بنفسه. كان مصطلحًا، لا يحتاج لشرح. كان مثالاً، حالة، شيء يحمل على التفكير. كان يعمل مثل الأمثلة المتخيلة في تاريخ الفلسفة: كهف أفلاطون؛ سباق أخيل والسلحفاة.

لكن يوجد شيء لا يستقيم مع هذا المنطق، قلت له، لأن موت إيدا خضع لسبب، وكنت أعرض عليه تفسيرًا. هي لم تكن تريد الوشاية به - كررت - وأرسلت له خطابا لتحذيره.

- لم يكن الأمر هكذا. قال.

- إذن، هل كانت إيدا تتعاون معك؟

وجه خال من التعبيرات، مرعب.

- لا أؤكد ولا أنفي. قال.

لا يمكنه الكذب، أم أنه يريد أن أصدق أنه لا يمكنه الكذب؟

- في بلدي حدث هذا كثيرًا. القنبلة تنفجر أحيانًا في من يحملها. هي كانت تتعاون معك. قلت هذا كأنه أمر بدهي. من المحتمل أنها كانت تحمل إحدى الرسائل في ذلك اليوم.

- لا أؤكد ولا أنفي.

- في النهاية كانت مفزوعة مرعوبة ربما. وماتت وحيدة.

- وحيدة لا - قال - نحن كثيرون في هذا البلد.

Twitter: @alqareah

كنت أعرف هذه اللغة؛ جيش خفي، حرب سرية، أبطال مجهولون. كنت أفكر طوال الوقت في شاب تروتسكي، محبوب للغاية، فاسكو بينجوتشيا، لامع، مليء بالحيوية، مات عندما أمسك بقنبلة - صاروخ كما يقال في الأرجنتين - انفجرت فجأة وقتلته في شقته بشارع جاسكون، في بوينس أيرس.

- لهذا أتيت لرؤيتك، وهكذا على الأقل سوف يكون لموتها معنى.

- معنى؟ سأل.

- هي كانت مثقفة بارزة، ومن المحتمل أن تكون قد قررت النضال سرًا دفاعًا عن مبادئها وقيمها. لا يهم إن كانت مخطئة أم على صواب، لكنها ماتت من أجل شيء كانت تؤمن به وهذا يعطي لموتها معنى...

- إيدا كانت امرأة شجاعة. نحن نتذكرها.

- نحن؟

- أنت وأنا. بهذا يكفي تذكرها.

- متى كانت آخر مرة رأيتها فيها؟

- أنظر -قال لي بإسبانية متقنة - لا أفكر في توريط أحد. يمكن قراءة حالات كحالتي في الكتب، لكن عندما تحدث الأمور للمرء تكون دائما أكثر قذارة ولا سموًا أو درامية بها. ببساطة يكون دنيئا ومرعبا - قال مونك - يجب القيام بالواجب، أحيانًا يبدو مستحيلاً أو بلا فائدة، وأحيانًا ببساطة يكون هذا فظيعًا. يجب علينا أن نبدأ من جديد، من الصفر، مثل الأزمان القديمة، نحن فرادى لكن يمكننا المقاومة والانتصار- أتى بإيماءة من يديه - أحيان

Twitter: @alqareah

كثيرة في حياتي. قال، لكن جرس الساعة قاطعه. الوقت انتهى. حسنًا إذن، قال، ونهض بصعوبة، بساقيه المصفدتين.

- بحذر، ميستا مونك، بحذر.

عندما عدت للفندق كانت كلمات مونك، لا تزال تتردد في أذني. كان الموت العرضي لإيدا هو ما جعله يكسر الصمت ويرسل المانيفستو الذي قاده إلى هلاكه. هل هذا ما حدث؟ لم يعطني تفسيرًا. "نحن كثيرون"، قال. كانت جملة مبهمة يمكن فهمها فقط إن كان المرء يعرف أفكاره. "أنا كامبريدج، أنا بادينجي، أنا برادو، أنا كل الأسماء التاريخية". ألا يكون الفرد هو ذاته، يغير هويته، يخترع ماضيا.

هي كانت هكذا أيضًا، كنت متيقنًا، كان لديّ شعور بهذا، لمحة صغيرة من الولع بالأسرار، بالحياة الخفية. يمكنني أن أتخيل جيدا رحلات إيدا الليلية إلى مدن بعيدة، الإشارات المدروسة، الخطر الذي كان يجعلها تتوقف في الشارع بسلاح في حقيبة يدها وقلبها منقبض. إن كانت قد ماتت في إحدى تلك الرحلات السرية وتم كشفها، كان الجميع سيتحدث عنها، لإدانتها ولعنها، لكنهم سيحافظون على ذكراها حية، على الأقل بينما يسبونها. لا بد أن يكون المرء يائسًا، وفي الوقت نفسه أن يشعر بكره بارد، صاف، لكي يذهب ليقتل. ربما كان هذا ما حدث. لا أؤكد ولا أنفي. لا يمكن فهم هذا، لا يمكن شرحه، لكنه ممكن، بل أيضا قد يكون عادلاً. حسب الظروف. أو ربما كان مونك يريد فقط تخيل أن في الولايات المتحدة توجد كتلة من الشباب العازمين على التحرك، من دون أن يعرفوا بعضهم. برهن على أن رجلاً بمفرده يمكن أن يعمل ويضلل (إف بي آي) خلال عشرين عاما. من الممكن. لا أؤكد ولا أنفي.

Twitter: @alqareah

عبر نافذة الفندق تُرى أمطار الليل، كانت إحدى عواصف الصيف العنيفة والقصيرة. على الجانب الآخر من ساحة انتظار الفندق، في الخارج، توجد الحقول، السهل المظلم، وخلفه، بعيدا، بعض الأضواء الضعيفة. كانت أضواء السجن، السور العالي مثل سماء مرصعة بالنجوم. فكرت أن مونك قد ينظر إلى المطر أيضا، بيديه على الشبكة ربما من بعيد بين الضباب، يمكنه رؤية انعكاس ضوء في نافذة غرفة فندق.

Twitter: @alqareah

خاتمة

تم إعدام توماس مونك في ٢ أغسطس ٢٠٠٥ بعد عشر سنوات من إلقاء القبض عليه. تم تأجيل التنفيذ أكثر من مرة لوجود طعون، نقض ومحاكمات جديدة. طالب قطاع بالرأفة به، لكن المحكمة لم تترك مجالا للعفو. مرت سنوات كثيرة منذ ذلك اليوم، لكنني أتذكر بدقة تفاصيل معينة. الكرسي الكهربائي المطلي باللون الأصفر وسط غرفة زجاجية. حذاء مونك الرياضي المتهالك، برباطه المعقود المتشابك وصوت الكعب المطاطي على الأرض الإسمنتية. أمه كانت معه وأيضا الرجل ذو البذلة البيضاء. البث عبر الدائرة المغلقة للسجن تم التقاطه وإذاعته على الهواء عن طريق رابط على الإنترنت.

اسمي الحقيقي توماس ريجنالد مونك، ليس الظل ولا ريسكلر، لست قاتلا مثقفًا، كما يسبني من لاحقوني من دون طائل خلال عشرين عاماً، وفقط أمكنهم الإمساك بي عندما خانني شقيقي.

ابحثوا عن محاضرة حول الأخلاق للودفيج فيتجنشتاين: "إن استطاع إنسان كتابة كتاب في الأخلاق، ويكون بالفعل كتاباً في الأخلاق،

Twitter: @alqareah

ذلك الكتاب سوف يدمر كل الكتب الأخرى بانفجار". الأخلاق انفجار. يهوه هو الإرهابي الأول. لكي يفرض قانونه أخذ يدمر مدنا، ويقتل أبناء يعقوب. أم لماذا تعتقدون أن ديستوفسكي كان يفكر في تحويل أليوشا كرامازوف، الراغب في القداسة، إلى ثوري؟

فيديو الإعدام ظل وقتًا على يوتيوب، لكن الأم اعترضت أمام القضاء واستطاعت أن تجعلهم يرفعوه. خلال أسبوعين تم استبداله بصورة مونك أثناء تسلمه ميدالية فيلدز، لكن هذه الوثيقة فقدت أيضا في بحر الإنترنت.

كانت إيدا براون من ربطني بهذه الحكاية، ومن أجلها كتبت هذا الكتاب. الذكريات لا تزال حاضرة، مثل اللوحات. هي مرتدية معطفها الرمادي، بمنديل أصفر على الرأس، تنتظر في مدخل "حيات". واقفة بجانب الفراش، كانت تخلع القرط وتبدأ في التعري. كانت لديها بقع بيضاء على الجلد، كوشم خفيف شاحب يعبر جسدها. كانت علامات الميلاد، بقايا من الماضي، كانت تجعلها أكثر جمالاً.

- أنا نصف مهرة بيضاء ببقع - ابتسمت إيدا - أترى، يا فحلي؟ وانحنت لكي أرى ذلك الرسم الشبحي على جسدها. أمي لم تكن تمتلكه، لكن جدتي نعم، وقالت لي جدتي إن لنا جداً من الإسكيمو. تخيل، امرأة ببياض القطب الشمالي. الإسكيمو لا يقولون أبدا اسمهم الحقيقي، إنه سر، فقط يكشفونه عندما يشعرون أنهم سيموتون.

بعد أسبوعين من زيارتي لمونك عدت إلى بوينس أيرس. عندما وصلت إلى إيثيثا، في المطار، كان ينتظرني صديقي جونيور، لكن هذه حكاية أخرى.

Twitter: @alqareah

المترجم عبد السلام باشا

عبد السلام باشا، صحفي ومترجم وكاتب مصري، خريج كلية الألسن، جامعة عين شمس، قسم اللغة الإسبانية. من ترجماته:

- المجنون، رواية لميجيل ديليبس، دار شرقيات، القاهرة ٢٠٠٠.
- بورخيس، سيرة ذاتية؛ لخورخي لويس بورخيس، دار ميريت، القاهرة ٢٠٠١.
- ليل تشيلي، لروبرتو بولانيو، دار التنوير، القاهرة - بيروت ٢٠١٣.

له مقالات وترجمات منشورة في صحف ومجلات مصرية وعربية وإسبانية، منها أخبار الأدب (مصر)، سطور (مصر)، موقع:

WWW.arabworldbook.com حيث نشر نصوصاً لجابرييل جارثيا ماركيز وماريو بارجاس يوسا وغيرهما. مجلة Abaco الأكاديمية الإسبانية.

- تحت الطبع: رواية المهرطق، ميجيل ديليبس، دار التحرير.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

صدر من هذه السلسلة

1 ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

2 ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسي «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتير.

3 ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصري «خيري شلبي» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

4 ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصري «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

5 ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

6 ـ «عاشوا في حياتي».. للكاتب المصري «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

7 ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصري «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

Twitter: @alqareah

8 ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

9 ـ «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

10 ـ «نوّة الكرم».. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

11– «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالي «إيتالو كالڤينو».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

12– «القلعة البيضاء».. للكاتب التركي «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

13 – «أين تذهب طيور المحيط».. للكاتب المصري «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

14 ـ «قرية ظالمة».. للكاتب المصري «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

15 ـ «الرجل البطيء».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

16 ـ «طحالب».. للكاتبة الجنوب إفريقية «ماري واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

17 ـ «شوشا».. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

18 – «شارع ميجل».. للكاتب من تريندداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

Twitter: @alqareah

19 ـ «الحياة الجديدة».. للكاتب التركي «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

20 ـ «عشر مسرحيات مختارة».. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

21 ـ «الآخر مثلي».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

22 ـ «المستبعدون».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية.. جائزة نوبل.

23 ـ «الأنثى كنوع».. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

24 ـ «ثلاثة أيام عند أمي».. للكاتب الفرنسي «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

25 ـ «إسطنبول.. الذكريات والمدينة».. للكاتب التركي «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

26 ـ «الطوف الحجري».. للكاتب البرتغالي «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

27 ـ «نار وريبة».. للكاتبة الألمانية «بريجيتّه كروناور».. مختارات..جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

28 ـ «الذكريات الصغيرة».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

29 ـ «إليزابيث كُستّلّو».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي» .. رواية.. جائزة نوبل.

Twitter: @alqareah

30 ـ «السيدة ميلاني والسيدة مارتا والسيدة جيرترود».. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

31 ـ «حين تقطعت الأوصال».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

32 – «مارتش».. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس».. رواية.. جائزة البوليتزر.

33 – «اغتنم الفرصة».. للكاتب الكندي «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

34 – «البصيرة».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

35 – «بريك لين».. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا علي».. رواية.. جائزة البوكر.

36 – «بريد بغداد».. للكاتب التشيلي «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

37 – «عن الجمال».. للكاتبة البريطانية «زادي سميث».. رواية.. جائزة الأورانچ.

38 – «العار».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

39 – «قبلات سينمائية».. للكاتب الفرنسي «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

Twitter: @alqareah

40 ـ «هكذا كانت الوحدة».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

41 ـ «الشلالات».. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

42 ـ «العشب يغني».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

43 ـ «العالم».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

44 ـ «ميراث الخسارة».. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

45 ـ «الطفل الخامس».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

46 ـ «بن يجوب العالم».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

47 ـ «ثورة الأرض».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

48 ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

49 ـ «الكهف».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

50 ـ «يوميات عام سيئ».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

Twitter: @alqareah

51 ـ «كازانوفا».. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر».. رواية.

52 ـ «انقطاعات الموت».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

53 ـ «العم الصغير».. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب المنفى.

54 ـ «اللعب مع النمر».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

55 ـ «في أرضٍ على الحدود».. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

56 ـ «الإرهابية الطيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

57 ـ «المسرحيات الكبرى» جـ1.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

58 ـ «المسرحيات الكبرى» جـ 2.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

59 ـ «نصف شمس صفراء».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزي آديتشي .. رواية..جائزة الأورنج.

60 ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

61 ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

Twitter: @alqareah

62 ـ «الحوت».. للكاتب الفرنسي «جان ماري جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

63 ـ «رقة الذئاب».. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بيني».. رواية.. جائزة كوستا.

64 ـ «رحلة العم مآ».. للكاتب الجابوني «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

65 ـ «مسيرة الفيل».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

66 ـ «كرسي النسر».. للكاتب المكسيكي «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

67 ـ «داي».. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندي».. رواية.. جائزة كوستا.

68 ـ «الحب المدمر».. للكاتب الأمريكى الكندي «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

69 ـ «أين نذهب يابابا»؟.. للكاتب الفرنسي «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

70 ـ «نداء دينيتى».. للكاتب الجابوني «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

71 ـ «صخب الميراث».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

72 ـ «المؤتمر الأخير».. للكاتب الفرنسي «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

Twitter: @alqareah

73 ـ «كتاب الرسم والخط».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

74 ـ «كلٌّ رجل».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

75 ـ «نُريد أن نتحدث عن كيڤين».. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورنج.

76 ـ «ألم فذ».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

77 ـ «أناقة القنفذ».. للكاتبة الفرنسية «موربيل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

78 ـ «حزن مدرسي».. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

79 ـ «غدًا».. للكاتب الألماني «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

80 ـ «الكلمة المكسورة».. للكاتب الإنجليزي «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

81 ـ «أن نُصبح أغرابًا».. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتي تراسك.

82 ـ «المرأة المسكونة».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دي لاس أمير كاس.

83 ـ «بيتر كامينتسند».. للكاتب الألماني «هِرْمَن هيسِّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

Twitter: @alqareah

84 ـ «بيت السيد بيسواس».. للكاتب من ترينداد «ڤ. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

85 ـ «مدريد الأصيلة».. للكاتب الإسباني «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

86 ـ «لاڤينيا».. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كي لي جوين».. رواية.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

87 ـ «أشجار متحجرة».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

88 ـ «سنوات الهروب».. للكاتب الكولومبي «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

89 ـ «الباحث عن الذهب».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

90 ـ «جائزة أو. هنرى».. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنري لـ عام 2007.

91 ـ «الحيوان المُحتضر».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن / نابوكوف.

92 ـ «أنشودة ألاباما».. للكاتب الفرنسي «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

93 ـ «إنجيل الابن».. للكاتب الأمريكي «نورمان ميللر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

94 ـ «الوصمة البشرية».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

Twitter: @alqareah

95 ـ «ليتني لم أقابل نفسي اليوم».. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

96 ـ «حكاية أوزوالد جـ1».. للكاتب الأمريكي «نورمان ميلر».. لغز أمريكي.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

97 ـ «حكاية أوزوالد جـ2».. للكاتب الأمريكي «نورمان ميلر».. لغز أمريكي.. الكتاب الثاني. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

98 ـ «وبنى لها معبدًا».. للكاتب الألماني «سيجفريد أوبرماير.. رواية.. جائزة شيلزهايم.

99 ـ «جنون المتاهة».. للكاتب الإنجليزي «آدم فولذر».. رواية..جائزة صنداي تايمز لكاتب شاب.

100 ـ «الملك ينحني ليقتل».. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

101 ـ «العبد».. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

102 ـ «الفراشة والدبابة».. للكاتب الأمريكي «إرنست همنجواي».. قصص.. جائزة نوبل.

103 ـ «التجمع».. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

104 ـ «موندو».. للكاتب الفرنسي «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

105 ـ «الكون فى راحة اليد».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

Twitter: @alqareah

106 ـ «جزيرة صغيرة».. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورنج .

107 ـ «حياتي».. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .

108 ـ «تيو».. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية.. وجائزة مونتانا للرواية.

109 ـ «الجولة وحوادث مؤثرة أخرى».. للكاتب الفرنسي «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

110 ـ«ذهول ورعدة».. للكاتبة الفرنسية «إميلي نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

111 ـ «أوليف كيتريدج».. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

112 ـ «زهرة الكركديه الأرجوانية».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزي آديتشي».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

113 ـ «ثمةُ ما أقولُ لكُم».. للكاتب البريطاني من أصول باكستانية «حنيف قريشي».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

114 ـ «قلبٌ ناصعُ البياض».. للكاتب الإسباني «خابير ماریاس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

115 ـ «كتاب الزنوج».. للكاتب الكندي «لورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

Twitter: @alqareah

116 ـ «ملك كاهل».. للكاتب الفرنسي «تيرنو مونينمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

117 ـ «البينيلوبية».. للكاتبة الكندية «مارجريت أتوود».. رواية.. وسام الفنون والآداب الفرنسي 1994.

118 ـ «ڤوس».. للكاتب الأسترالي «باتريك وايت».. رواية.. جائزة نوبل.

119 ـ «هناك حيث النمور في أوطانها» جـ1.. للكاتب الفرنسي «جان ـ ماري بلاس دو روبليس».. رواية.. جائزة ميديسيس.

120 ـ «هناك حيث النمور في أوطانها» جـ2.. للكاتب الفرنسي «جان ـ ماري بلاس دو روبليس».. رواية .. جائزة ميديسيس.

121 ـ «الناقوس الزجاجى».. للكاتبة الأمريكية «سيلڤيا بلاث».. رواية.. جائزة البوليتزر.

122 ـ «لاحواء ولا آدم» .. للكاتبة الفرنسية «إميلي نوتومب».. رواية.. جائزة دى فلور.

123 ـ «ذكريات تراني».. للكاتب السويدي «توماس ترانسترومر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

124 ـ «التصحيحات».. للكاتب الأمريكي «چوناثان فرانزن» رواية.. جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية.

125 ـ «أعداء» (قصة حب).. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية جائزة نوبل.

Twitter: @alqareah

126 ـ «زجاج مكسور».. للكاتب من الكونغو «آلان مابانكو».. رواية.. الجائزة الدولية الفرنكفونية.

127 ـ «الإحساس بالنهاية».. للكاتب الإنجليزي «چوليان بارنز».. جائزة البوكر الدولية.

128 ـ «رُبَّ جملة بعشرة آلاف جملة».. للكاتب الصيني «ليو تجن يون».. رواية.. جائزة ماودون.

129 ـ «حبُّ الغربان».. للكاتب الألماني «فافر تسينيك».. رواية.. جائزة إنچبورچ باخمان.

130 ـ الصبي سارق الفجل.. للكاتب الصيني «مو يان».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

131ـ الصائد صفر.. للكاتبة الفرنسية «باسكال روز».. رواية.. جائزة الجونكور.

132 ـ رحَّالة القرن.. للكاتب الأرجنتينى «أندريس نيومان».. رواية.. جائزة الفاجوارا.

133 ـ مذكرات شيهم.. للكاتب من الكونغو «آلان ما بانكو».. رواية.. جائزة رينودو.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ جيران العالم.. يانيس ريتسوس.. جائزة نيوستاد الدولية للأدب عام 1984.

٢ـ رجلٌ لا يكفُّ عن المرح وقصص أخرى.. مويان جائزة نوبل للآداب عام 2012.

٣ ـ العاري والميت.. نورمان ميللر.. جائزة الكتاب الوطني 2005.

Twitter: @alqareah

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

Twitter: @alqareah

الكاتب:

ريكاردو بيجليا، كاتب وناقد، وكاتب سيناريو وأستاذ جامعي أرجنتيني.

- ولد ريكاردو إيمليو بيجليا رنزي في بوينوس أيرس عام 1941.
- نشر ثلاث مجموعات قصصية بين عامي 1967 و 1975. وفي 1980 نشر روايته الأولى "تنفس صناعي" التي جلبت له شهرة واعترافا عالميين بأدبه. ثم نشر أربع روايات أخرى هي المدينة الغائبة 1992، وفضة محترقة 1997، وأبيض ليلي 2010، والطريق إلى إيدا 2013.
- له العديد من الكتب النقدية التي جعلته من أهم النقاد والمنظرين للأدب، أكثرها شهرة كتابه "القارئ الأخير" برشلونة 2005. كما أمضى خمسة عشر عامًا في التدريس في جامعات مختلفة بالولايات المتحدة منها جامعتي برنستون وهارفارد.
- ترجمت أعماله إلى اثنتين وعشرين لغة.
- فاز بالعديد من الجوائز الأدبية داخل وخارج الأرجنتين، منها على سبيل المثال جائزة بلانيتا (الأرجنتين) 1997 عن رواية فضة محترقة، جائزة أمريكا اللاتينية للأدب "خوسيه دونوسو" (تشيلي) 2005، وعن رواية "ابيض ليلي"فاز بالجوائز التالية: جائزة النقد، (إسبانيا) 2010، وجائزة رومولو جايجاس (فنزويلا) 2011، وجائزة بيت الأمريكيتين 2012. وفي عام 2013 فاز بجائزة مانويل روخاس للسرد في أمريكا اللاتينية.

الجائزة

جائزة مانويل روخاس للسرد.

هي جائزة للسرد في أمريكا اللاتينية، تأسست حديثا لتخليد اسم الكاتب التشيلي الكبير "مانويل روخاس"، ويمنحها المجلس الوطني للثقافة والفنون في تشيلي. ولقد حصل عليها ريكاردو بيجليا في دورتها الثانية عام 2013، ومما جاء في تقرير لجنة الاختيار: "ريكاردو بيجليا كاتب فرض اسمه وفتح آفاقا جديدة للأدب المكتوب بالإسبانية".

Twitter: @alqareah



الرواية

قد يجد القارئ مبررًا ـ أو حقًا ـ في الاعتقاد أن رواية "الطريق إلى إيدا" سيرة ذاتية لمؤلفها الذي يتطابق اسمه الثاني ولقبه الأخير مع اسم إيمليو رنزي، الشخصية الروائية التي تقوم بالسرد في الرواية. وخاصة عندما نعرف أن ريكاردو بيجليا نفسه أمضى خمسة عشر عامًا في التدريس في جامعات مختلفة بالولايات المتحدة، وأنه لم ينف ـ على العكس ـ أن بروايته ملامح من سيرته الذاتية وخبرته في التدريس والحياة في الولايات المتحدة.

إلا أن هذا الظن يتبدد مع المضي قدمًا في قراءة الرواية. وستظهر بدلاً منه تساؤلات حول التوصيف ـ أو التصنيف ـ لماهية الرواية. الأدق أنها رواية حول الأدب والروايات ومَن يكتبونها ومَن يدرسونها.

يسعى إيمليو رنزي إلى التحقق من طبيعة مقتل زميلته إيدا براون. وفي طريقه نحو كشف هذا الغموض ينتقل بالرواية من مستوى الرواية البوليسية أو أدب السيرة الذاتية إلى كشف روابط بين روايات جوزيف كونراد وعالم رياضيات اعتزل العالم خلال عشرين عامًا وقرر شن حرب على النظام الرأسمالي ممثلاً في الولايات المتحدة. قرأ هذا العالم أعمال كونراد، بين أعمال أخرى، وتماهى مع الشخصية الروائية. وسط شخصيات أكاديمية مرموقة، كل منها متخصص في كاتب كلاسيكي كبير مثل هدسون وميلفيل وكونراد وأوراثيو كيروجا وتولستوي. يقوم إيمليو رنزي ببناء علاقات بين النصوص الأدبية وقارئيها والمتخصصين فيها.

في هذه الرواية يواصل ريكاردو إيمليو بيجليا رنزي، المؤلف، هوايته بصنع تناص نقدي وأدبي بين العديد من النصوص والقامات الأدبية الكبيرة، والتيارات الفكرية والسياسية التي غيرت البشرية خلال القرنين الماضيين.

الروائي: ريكاردو بيجليا، الكاتب الأرجنتيني.

الجائزة: جائزة مانويل روخاس للسرد عام 2013.

تصميم الغلاف: د. هند سمير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٨ جنيها

